أنيس منصور

ألوان من الحب

دار الشروق

الوان من الحب

الطبعة الأولى
١٩٧٢ م
الطبعة الثانية
١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
الطبعة الثالثة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
الطبعة الرابعة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

© دار الشروق
القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف . ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس . 93091 SHROK UN
بيروت . ص . ب ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

الحب ألوان

إذا كنت تحب فتاة وهى لا تعلم أنك تحبها ، فأنت لا ينقصك إلا الشجاعة لأن تقول لها إنك تحبها . !

وإذا كنت تحب فتاة وهى لا تحبك ، فأنت تعيس ، وعليك أن تكف عن محاولة جذبها إليك !

وإذا كنت تحب فتاة وهى تحبك .. فيا بختك !

جاء شاب يسألنى : إننى أحب فلانة وأشار إلى فتاة كانت تقف بالقرب منا . وقال : ولكننى لا أستطيع أن أقول لها إننى أحبك .. ولا أعرف كيف أقول لها ذلك إذا أنا استطعت .. لقد حاولت أن أقترب منها ، ولكنها كانت بعيدة بعيدة .. وحاولت أن أفتح عينيها ولكننى لم أستطع ، وحاولت أن أبين اصفرار وجهى ، ولكنها لم تلتفت إلى وجهى أو إلى وجودى كله .. لقد سبقنى إلى عينيها وإلى أذنيها الكثيرون من زملائى فى الجامعة .. فماذا أصنع ؟

وأخذ الفتى يتوجع ويبكى وكأن فى حلقه شوكا .. وجعل يكتفى

بالنظر إليها من بعيد .. فإذا ضحكت ارتفع صدره ، وإذا وقفت إلى جوار شاب آخر هبط صدره .. وإذا مالت على أذن شاب ، تلمس الدمع فى عينيه ..

ثم نظر الفتى إلى وقال : إنه عذاب شديد .. أن يحب الإنسان ، فتاة لا تحس به ولا تراه ولا يستطيع أن يقول لها ذلك .. إن الكلمة تقف على لسانى ولا أعرف كيف أقولها .. كلمة «أحبك» كعصفور بلا ريش .. إننى اذا أطلقته سقط تحت قدمى ..

وأخذ الفتى يصلى لله ويدعوه أن يجعل قلبها يرق لحاله ، وأن يتحول إليه .. ولكن الدعاء لا يفيد ، والله لا يأخذ بيد الخائفين ..

وروى لى الفتى أن صاحبته هذه قد انتقلت نظراتها إلى شاب آخر ليس أحسن منه صورة ولا أكثر منه ذكاء ولكنه أكثر منه شجاعة .. والتفت ذراعاها حول خصره ، وأخذت تدور حوله كما يدور القمر حول الأرض .. إنها تدور وترقص .. أما هذا الفتى الخائف فهو الذى أصابته الدوخة .. إنها ترقص ، أما هو فيدوخ ويهذى ويقول : إننى أحبك ولكننى لا أملك الشجاعة . إننى أحب نحافتك وسواد عينيك ومشيتك وأنت تقفزين كالطائر .. إننى لم أستطع أن أقول لك ذلك ولكننى قلتها لنفسى .

وكل ما ينطلق من الشفتين ولا يبلغ أذنيها فهو وهم . والحب ليس وهماً بل هو حقيقة ، تتم بين طرفين متجاوبين .. والطريق إلى قلب المرأة يبدأ بالشجاعة وينتهى بالتضحية !

* * *

وهذه قصة أخرى

أعرف فتاة جامعية جميلة ، طويلة ، لها عينان لامعتان وعقل أكثر

لمعانا ، وسمرة دافئة ، وقلب أكثر دفئا .. لا أكاد أراها حتى أسألها : كيف الحال ؟

فتقول : أبداً .. لا جديد .. الحال كما هو .. حاولت أن أفهم موقفه ، ولكنى لم أفلح ! إذن سأظل هكذا أتعذب ويظل هو لاهيا عابثا .. النار فى قلبى ، والماء فى يديه ، والسهر فى جفنى ، والراحة فى عينيه ، والحب أحرسه ، واللهو يحرقه .. وأنا أقطع الليل وحدى ، وهو يقطع الليل مع أخريات .. كان تلميذا بليداً ، وساعدته حتى نجح .. كان تلميذا يائسا فنفخت فى روحه وملأته أملا وثقة .. كان يريد أن يكتفى بالتوجيهية ، فدفعته إلى الجامعة .. هل تعرف أن حكايتى مع حبيبى هذا كحكاية البطل المسكين «سيزيف» الذى تقول عنه أساطير الإغريق إن الآلهة قد حكمت عليه أن يدفع أمامه حجرا إلى قمة الجبل .. فكان كلما بلغ القمة تدحرج الحجر إلى السفح فيعود يدفع الحجر إلى القمة .. فيسقط إلى أسفل الجبل .. وهكذا . وأنا أعلم أن هذا الحجر سيسقط ولكننى مع ذلك أعمل المستحيل .. إننى أتحدى يأسه وأتحدى إهماله لى ، وهيامه بالأخريات .. إننى جعلت من حبى له قوة خارقة ، وجعلت من حبى له سياجا من حديد ، وجعلته نارا لا تنطفىء وريحا تدفع سفينته إلى الأمام .. حتى دخل الجامعة .. وفى الجامعة ضاع منى .. فى الزحام ..

ثم تقول : لقد كنت أتعذب منه وحده .. أما اليوم فأنا أتعذب منه وله .. ومن كل الفتيات الأخريات .. إذا رأيته يضحك لهذه الفتاة بكيت ، وإذا رأيته ينحنى لهذه الفتاة ، انكسر ظهرى .. إننى أنا التى أحترق ليضىء هو .. إننى مصدر الضوء والسعادة له ، ولكننى حزينة . آه ..

وكنت أسألها دائما : ومن أين تعرفين أنه لا يحبك .. كيف ؟ هل قال لك ذلك ؟ هل هو يحب فتاة أخرى ؟

وكانت تقول : ولكننى أرتعد إذا تركنى ، وأبكى إذا لم يقبلنى وأمرض إذا لم يعانقنى .. إننى أريده بين أصابعى وبين عينى وفى أذنى .. ولكننى أفتش عنه فأجده كالخاتم فى أصابع الفتيات وكالعقد فى أعناقهن .. وكالكرة فى أرجلهن !

وأسألها : ولكن عندما يكون معك ألا يقبل عليك ، ألا يستمع لك ، هل تغير عن ذى قبل ؟ هل سمعت منه أنه لا يحبك ؟

فتقول : لم يتغير منه شىء .. ولكنه إحساس بأنه لم يكن كذلك .. لم يكن كذلك .. فلهجته غريبة ونظرته غريبة .

وكنت أضحك وأقول لها : إن حواء كانت تتشاجر مع أبينا آدم وتقول له : لقد لاحظت أنك تغيرت هذه الأيام .. ولا تكاد حواء تكمل عباراتها حتى تتعالى أصوات الذئاب والأسود والنمور والطيور والقرود فى الغابة .. فلماذا يتغير آدم .. لأنه أحب قردة أو ذئبة .. فحكاية «التغير» هذه تهمة قديمة .. إنه يحبك ولكن لا يبدو عليه ذلك . فهنالك أناس تظهر عليهم العواطف وأناس لا تظهر عليهم .. فالزجاج شفاف لامع ، والنحاس مظلم والحديد صفيق .. والحديد والنحاس أقوى من الزجاج .. وهو كالحديد أو كالنحاس متين وقوى وثابت ولكنه معتم لا يكشف عما وراءه ..

مسكينة هذه السمراء الجميلة .. إنها تحرس عصفورا فى حجرة : نوافذها مفتوحة .. فإذا طار العصفور تبكيه ولكنه يعود إليها ..
وفى كل مرة يتركها تفتقده وتبكى على فراقه.. كأنه فراق بلا لقاء..!

مسكينة إنها تحبه وهو لا يحبها ولكنها تقاوم وتتحدى المستحيل !

* * * *

وقصة فتى وفتاة .. هو يحبها وهى تحبه .. أحبها وقال لها ذلك .. وأحبته وقالت له ذلك .. إنها تراه فتحس أنها تطير إليه ، ويراها فلا يرفع عينيه عنها .. ويدق قلبه إذا رآها ، ويخفق قلبها إذا رأته .. كأنه أول لقاء أو كأنه وداع إلى الأبد !

وفى الصباح يحرك يده وتسبقه أصابعه إلى التليفون ويقول :

أهلا حبيبتى ! أهلا روحى !

وتقول حبيبته وروحه : ازيلك يا روحى !

وهذا كلام حقيقى بلا كذب .. فيه حب وفيه شوق وفيه حنين .. كأنهما مشدودان بحبل من المطاط اذا ابتعد بعضهما عن بعض ارتدا بعنف ..

هذا اسمه حب حقيقى !

ولكن لا حب بلا خطر ، لا حب بلا قلق بلا خوف بلا فزع .. وحين يدخل الإحساس بالخطر ، يصبح الحب أكثر عنفا ، وأكثر قسوة!

ماذا يحدث للجسم إذا دخله ميكروب .؟

يقوم الجسم بحشد كريات الدم وينظمها للقضاء على هذا الميكروب ، ويلتهب الجسم وترتفع درجة حرارته فى هذا الكفاح المسلح ضد العدو الأجنبى !

فإذا تكاثرت الميكروبات ، انهزمت كريات الدم ، ومرض الجسم وأصبحت الحياة فى خطر !

وفى الحب يحدث هذا الغزو الخارجى !

وكان الفتى يسألها : من الذى خرجت معه قبل أن تعرفينى .. من الذى عانقك أول مرة ؟ من الذى رقصت معه أول مرة ؟ مع من كانت

أول زجاجة بيرة ؟ مع من كانت أول نزهة فى النيل ؟ مع من سهرت ليلة رأس السنة ؟

وكانت الفتاة تذكر له أسماء هؤلاء الذين شربت معهم ورقصت معهم وتنزهت معهم ..

وكان هو يقول : آه .. إذن أنت رقصت وسكرت وخرجت مع هؤلاء جميعا !

ويدوى هذا الصوت فى نفسه وتتكاثر الميكروبات على الدم وترتفع درجة حرارة الغيرة .. الغيرة من ماضيها . ويمرض الجسم . ويهدد حبل المطاط بالانقطاع !

ولكن يعود فيرى أن هذا كله حدث فى الماضى ، وأنه لم يكن يعرفها ، وليس من حقه أن يسألها عن ماضيها .. ثم تعود الميكروبات تهاجم الجسم .. ويظهر فى حياتها أحد أقاربها أو أحد زملائها فى العمل أو أحد جيرانها .. وتنظم الميكروبات هجماتها وترتفع درجة حرارة الغيرة ويلتهب الجسم . تظهر عليه التهابات فى مناطق متعددة وتتحطم قصور النوم السعيد ، وتنقطع الدموع عن العين . ويطير النوم من الجفون ، وتستولى ميكروبات الغيرة على خطوط تموين الجسم .. فلا طعام ولا شراب ولا مأوى !

ولكن كريات الدم تقاوم إلى آخر لحظة .. ويرتد العدو ويتحصن فى الراس ثم ينسحب إلى القلب ، ثم يتوارى نهائيا .. ويرفع الراية البيضاء .. لقد استسلم الميكروب !

وتحت هذه الراية البيضاء يقف الفتى والفتاة ويتواريان عن الأنظار فى قبلة طويلة مرتجفة لها اسم واحد هو : الحب !

إنهما سعيدان .. فيا بختهما !

* * * *

□ أما إذا كنت تحب فتاة ولا يعنيك أن تعرف هى ذلك ، ولا تحاول أنت أن تقول لها، ثم تجد متعة فى هذا الحب.. فأنت من الملائكة أو من القديسين !

وهذا الذى لديك ليس حبا وحسب وإنما هو عبادة يحسدك عليها الكافرون والأشقياء والسعداء معا !

الحب الرومانتيكى

كل إنسان يبحث عن الحب .

الطفل يبحث عن الحنان .

والمراهق يبحث عن الزمالة .

والبالغ يبحث عن الزوجة .

والعجوز يبحث عن الممرضة ..

وكلها أنواع من الحب .

ولا يمكن الاستغناء عن الحب أبدا .

ولكن الإنسان ، قد يعيش طويلا وعريضا ولكنه لا يعرف بالضبط ما هو هذا الحب الذى يشعر به نحو فتاة . إنه يحس بحرارة تملأ نفسه وتفيض على الناس حوله ، ويحس بشىء من «الإكلان» فى قلبه ، فيعلن بين نفسه وبين الناس أن هذا هو الحب ..

وقد حدث أن ذهبت سيدة جميلة إلى طبيب نفسى معروف .

وجعلت تشكو من متاعب زوجها وأنها لم تعد تتحمل هذا الزوج وأنها لا بد من أن تنفصل عنه .

وسألها الطبيب : هل تحبين زوجك ؟

قالت : طبعا أحبه

فسألها : ولكن أى نوع من الحب ؟

ودهشت السيدة جدا ثم قالت : أى نوع ؟ إننى أحبه فقط . وهل هناك أكثر من نوع من الحب ؟

والجواب هو : طبعا هناك أكثر من نوع . ومعظمهم لا يعرفون أى نوع من الحب هذا الذى يشعرون به ..

* * *

فالحب هو علاقة بين شاب وفتاة قائمة على التفاهم والحنان ، لتحقيق الراحة والسرور . ولكى يحرص الإنسان على هذه الراحة فإنه يتعب ويضحى من أجل نفسه ومن أجل الفتاة التى يحبها .

وقد ترى رجلا وسيما مشهورا ناجحا تتمنى فتيات كثيرات أن يكن صديقات له أو زوجات له ولكنه يحب فتاة ليست جميلة وليست متعلمة ويتزوجها وترى الاثنين فى الطريق جنبا إلى جنب ، ويرتفع صدرك وتقول فى نفسك : والله هذا الشاب أعمى ليس عنده نظر ولا عنده ذوق !

وهذا الحكم ظالم . وأنت تحكم على هذه العلاقة من الخارج فقط . وإذا ذهبت إليه وسألته عن سبب زواجه من هذه الفتاة لقال لك : إنها تعطينى شيئاً لا أجده عند أية امرأة أخرى : إننى أجد الراحة واالسرور معها . ولهذا تزوجتها .

والإنسان يظل على علاقة بإنسان آخر ، ما دامت هذه العلاقة

تعطيه «شيئا»، وتظل هذه العلاقة قوية ، ما دام هذا «الشيء» نادرا ، لا يجده في أية علاقة أخرى .

ولكن لكي يكون حبا ناجحا — وأرجو أن تقرأ كلامي بعناية — يجب أن تعرف أي نوع من الحب هذا الذي يشغل قلبك أو عقلك أو جسمك أو الناس حولك . فليس هناك نوع واحد وإنما أنواع . خمسة أنواع .

هناك الحب «الرومانتيكي» أو الحب الخيالي أو الحب الذي تتحدث عنه القصص والأفلام . الحب الذي فيه خيال ولمعان .. وكل شيء له معنى .. اليوم الصافي له معنى ، والسحب لها معنى ، وزقزقة العصافير هي « بشرة خير ». ذلك هو الذي تحدثنا عنه القصص والروايات .. حب الشاطر حسن وست الحسن والجمال — وكلنا قد مررنا بهذه المرحلة في حياتنا .

والقصص تحدثنا عن الفتاة المنسكينة التي أحبت شابا غنيا . ولكنها لا تدري ماذا تفعل . إنها تبكي ليلا ونهارا .. وترى في نومها أن الله قد بعث لها بأحد الملائكة ، وأن هذا الملاك قد حملها على جناحيه وطار بها إلى بلاد بعيدة ، وأنها ظلت تبكي طول الطريق ، ولم تخف من الموت لأن الموت يرحمها من عذاب الحياة ، ومن فراق الحبيب . واستسلمت ونامت على جناح الملاك الرحيم وهبط بها في جزيرة ، وهناك في الجزيرة وجدت الفتى الغني على حصان أبيض .. فلم تكد تراه حتى : صحت من النوم ودموعها على خديها !

والحب الرومانتيكي هو الحب من أول نظرة ، ومن أول كلمة .. والقصص تقول لنا : إنه لم يكد يراها ويملأ عينيه من عينيها حتى أحس أن سهاما نفذت إلى قلبه . وأن قلبه انشق إلى ضلفتين ، ومن هاتين الضلفتين ظهر بلبل صغير يقول : أحبك .. أحبك .. ثم دخل البلبل وأغلق نافذة القلب وراءه ونام البلبل وأخذ القلب يدق ، ولكن صاحب القلب لم ينم !

إنه هكذا من أول نظرة !

والحب الرومانتيكى أو الخيالى هو الذى يجسم العقبات والعقد المخيفة فى العلاقة بين شاب وشابة . فهو دائما يحدثنا عن الفتاة الغنية التى أحبها خادمها . وهى مسلمة وهو مسيحى وكيف أن أباها قد علم بهذا الحب العنيف فطرد الخادم من البيت . ومرضت الفتاة وراحت تبعث له بالمال وبالملابس ولكنه كان يرفض .. وأخيرا قررت أن تهرب معه ، غير أنها الابنة الوحيدة لأبيها . ويوافق الأب على أن تتزوج ابنته هذا الخادم . إنه تحول إلى الإسلام ، وفى آخر لحظة يموت الخادم .. وبعد أيام تموت الفتاة ويتحطم الأب والأم ..!

وفى الحب الرومانتيكى تعتقد الفتاة والفتى أنهما خلقا بعضهما لبعض .. وأنها لا تصلح لأحد سواه . وأنه لا يصلح لواحدة غيرها . كل شىء فى كل منهما قد خلقه الله لينعم به الآخر .. إن صوتها جميل ناعم . وقد خلقه الله لأذنه . وهو أبيض اللون طويل القامة . وهى تحب هذا النوع من الرجال . إنها فنانة ترسم . وهو مهندس يبنى العمارات وله ذوق فى اختيار الألوان . وهى تحب المهندسين وهو يحب الفنانات .. وهى تحب نفس النوع من الطعام . ونفس ألوان الملابس ونفس العطر .. كل شىء تماما كما كان كل منهما يتصور . ويحلم به .. لقد خلقهما الله ليكونا حبيبين وزوجين وسعيدين ..

ونرى القصص والأفلام تعكس الأوضاع أحيانا ، لتكون العلاقات أعنف وأقوى . فنرى مثلا أن الفيلم يبدأ بأن يصور لنا الحب على أنه علاقة قد بدأت أول الأمر بشىء من الكراهية الحادة بين اثنين لم يكن أحدهما يعرف الآخر .. فنجد اثنين يتلاقيان بمحض الصدفة وتكون النتيجة أنهما لا يطيقان النظر بعضهما إلى بعض .. ولكن لا يكاد الشاب

يذهب إلى البيت حتى يفكر فى هذا الأمر ، وكذلك الفتاة .. فيقول هو لنفسه : ولكن لماذا أكرهها ، مع أننى لا أعرف عنها شيئا ، ولم أرها قبل ذلك .. ولم تكلمنى .. ثم أنها جميلة وذوقها جميل وصوتها جميل وهي تتكلم كلامـــا معتدلا .. ولكن لماذا أكرهها .. شيء غريب .. ثم لماذا أفكر فيها دائما هكذا كأنى أحبها .. إننى لا أستطيع أن أكف عن التفكير فيها .. هل أفكر فيها لأنها احتقرتنى ، لأنها لم تهتم بى ، لأنها لم تشعر بوجودى .. لماذا ؟ لماذا ؟

أما الفتاة فتعود هى أيضا إلى البيت وتقول لنفسها :

إنه إنسان قليل الأدب والذوق . إننى لم أطلب إليه شيئا . . ولكنه ظل طول الوقت يتحدث إلى الفتيات الأخريات .. إنه لم يضع عينه على ، إنى لست قبيحة الصورة إلى هذه الدرجة .. لقد كان هناك شبان كثيرون وكانوا جميعا مشغولين بى وأنا أتجاهلهم جميعا . اننى أكره هذا الشاب .. أكرهه من صميم قلبى .. ولكنى لا أستطيع أن أتوقف عن البكاء .. إنه لا يهمنى .. إننى أشعر بالغيظ كأنه يحبنى ثم هجرنى .

ويفكر الشاب فى أن يلقاها وتفكر الفتاة فى أن تلقاه . ثم يلتقيان ويقول واحد منهما للآخر : أنا لا أفهم لماذا كرهتك .. إننى لم أجد سببا لهذه الكراهية .. ولكنى فكرت فيك طويلا ولا أستطيع أن أتوقف عن التفكير وتكون النتيجة هى : الحب ..

كل شيء فى هذا الحب الرومانتيكى عنيف ومفاجيء .. فالحب لا ينمو تدريجيا . ولكن فجأة كالبرق والصواعق .. إنه ليس كالشمس عند الفجر تظهر فى الأفق درجة درجة. ولكن ينقل الإنسان من الليل إلى النهار مرة واحدة ..

والحب الرومانتيكى نهر من الماء يغلى ، كل من ينزل فيه يلتهب

ويحرق . ولكن الاحتراق متعة . والهوان لذة ، والحرمان واجب . والعقبات ضرورة . والدموع حياة . والسهر غاية .

* * *

وليس الحب الرومانتيكى دليلا على أن المجتمع فقير ، وأن الناس محرومون وأنهم عاجزون عن تحقيق السعادة بالزواج . فالعلماء فى أمريكا وجدوا أن تلامذة المدارس والجامعات يفضلون هذا النوع من الحب على العلاقات الصريحة ، والعلاقات الجنسية أو حتى على الزواج .. وسبب ذلك أن القصص والكتب والمجلات والسينما والتليفزيون تؤثر فى حياتهم وتصور لهم هذا الحب النارى الخيالى ..

وكل هؤلاء الشبان من المراهقين. والمراهقة هى مرحلة من العمر يمر بها كل إنسان ، هى مرحلة نشاط فى جسمه وفى نفسه يدفعه إلى البحث عن تحقيق رغباته بعنف . وهى مرحلة تبدأ فى الثانية عشرة وتنتهى عند الخامسة والعشرين .. وقد تطول هذه الفترة فنجد أناسا مراهقين فى الثلاثين أو فى الأربعين أو فى الخمسين . ونجد رجالا شابت رؤوسهم ومع ذلك يفضلون هذا الحب الخيالى الحالم ..

أعرف صديقا فى الخمسين من عمره يحب فتاة فى الخامسة والعشرين حبا مجنوناً .. إنه لا يلمسها بيده إلا مضطرا .. ويفضل أن يراها عن بعد ، وأن يسمع عنها .. .. إن جلوسها الصامت يملأ رأسه بالكلام .. ومعدته بالطعام . ونومه بالأحلام .. وهو سعيد بها هكذا .. مع أنه تجاوز الخامسة والأربعين من عمره .

وكلمة «الرومانتيكى» مأخوذة من الكلمة الأجنبية «رومان» بمعنى قصة خيالية .. ولذلك فالحب الرومانتيكى هو الخيالى هو الحالم الشاعرى . والفتاة التى تحب حبا رومانتيكيا ترى أن حبيبها هذا هو أجمل

إنسان فى الدنيا ، ليست فيه عيوب ، ولا نقائص ، ولا يملأ عينها أو رأسها رجل سواه .

والفتى يرى فتاته كذلك .

والحب الرومانتيكى يقوم على أنه عناق دائم بين روحين .. تكمل الواحدة منهما الأخرى . لأن الله عندما خلق الأرواح قسم كل واحدة منها الى نصفين ، والقى بالنصفين فى مكانين مختلفين ولذلك فالنصفان يبحث كل واحد منهما عن الآخر . والحب الرومانتيكى هو الذى يلتقى فيه النصفان ، ويصبحان قلبا واحد وحياة واحدة ، وتصبح الحقيقة والخيال شيئا واحدا ..

ولكن هذه «الهالة» الجميلة التى تضعها الفتاة حول حبيبها من الممكن أن تتحول إلى حبـــل مشنقة . فهى لا ترى فيه عيبا ولا نقصا ، ولكن عندما تتزوجه سترى عيوبه الواحد بعد الآخر .. وهذا يصدمها ويجعل حياتها جحيما وتعاسة . وكذلك الشاب يرى فى فتاته مخلوقا كاملا .. وبعد الزواج تتراكم العيوب . وتجيء الصدمة مفاجئة ، كالحب من أول نظرة والكراهية من أول نظرة . وحينئذ يتولى كل منهما شنق الحب بهذه الهالة المضيئة ..

ومع ذلك فحياتنا بلا خيال ولا أحلام تصبح حياة قاسية جافة ميتة .. وتصبح المرأة مجرد حيوان يؤدى وظيفة الراحة والإتيان بالأولاد .. إنها كالمروحة والمطبخ والسرير . وحياتنا بلا حنان ولا رقة ولا حرمان : حياة بليدة لا تغرينا بالحرص عليها ولا التمسك بها . إن هذه الرومانتيكية كالملح فى الطعام أو كالفلفل الذى يفتح النفس .. ولكن عندما يكون الطعام كله ملحا وفلفلا ، فإنه لا يصبح طعاما وإنما يصبح نارا محرقة ، وحينئذ يموت الحب ، بموت المحبين معا ..

أحب جسمك !

هناك حب آخر غير «الحب الخيالى» أو غير «حب الخيال» والظلال والضياء والقمر والسهر والأحلام والآلام .. وغير الذين يفضلون النظر إلى الشيء الجميل دون أن يلمسوه، وإذا لمسوه فدون أن يأكلوه وإذا أكلوه فالقليل جدا يكفيهم .. بل إن الذكرى تسعدهم. فالخيال عندهم أقوى من الواقع ،والأوهام أروع من الحقيقة..إنهم السعداء الذين يعيشون فى عالم نبيل ليس فيه شر وليس فيه رذيلة إنه عالم يطل على الفردوس .. إنه عالم المحرومين المعذبين والسعداء فى حرمانهم وعذابهم.. إنه عالم الذين يحرصون على العذاب لكى يوحى لهم الحب . إنهم الذين يؤمنون بأن الحب لا يكون بغير نار ، النار هى البعاد والحرمان والشقاء .. ولكن فى سبيل الحب ، كل شيء يهون .. كل شيء إلا الشرف وإلا الإخلاص : ذلك هو الحب الرومانتيكى ..

ولكن هناك حب آخر تكرهه أو تخافه كل فتاة.الحب الذى يكشف

عن طبيعة الرجل . الحب الذى يختفى وراء آصحاب الجلود الخشنة والأصوات الغليظة ..

وقبل هذا . أريد أن أقول شيئا ضروريا عن المرأة والرجل . فالمرأة أقل «حسية» أو أقل «شهوانية» من الرجل وليس هذا هجوما على المرأة . ولا دفاعا عنها . ولكنها حقيقة علمية . ولكن الرجال يتهمون المرأة بأنها حيوان وأنها لا تفكر وأنها عصارة الخبث والشر . وأنها الأفعى والشيطان فى وقت واحد . الشيطان هو روحها والأفعى جلدها . أما الرجل فمسكين برىء . لا حول له ولا قوة . إن استطاع أن يغلب غرائز الشيطان فأين يذهب من جلد الأفعى .

والحقيقة هي أن الرجل هو الذى يخفى وراء جلده حيوانا حقيقيا. فالرجل لا يستطيع أن يعجبه شىء فى المرأة ، دون أن تتحرك أصابعه وخياله ..

وهو كالطفل الذى لا يجد شيئا أمامه دون أن يضعه فى فمه .

وعند الرجل يتحول كل شىء إلى إثارة جسدية ، إلى إثارته حسيا . فهو لا يصبر على علاقة عاطفية طويلة مع المرأة . لا يقوى على العالم الرقيق الخيالى الذى تحب أن تعيش فيه المرأة. فاذا حملته إلى السحاب، ألقى بنفسه وبها إلى الأرض . إنها ترفعه إلى أعلى ، وهو يهبط بها إلى أسفل : إنها تحدثه عن الحياة وعن تفكيرها فيه . وعن العذاب الذى تحسه عندما يبعد عنها .. أما الرجل فيكون رده الوحيد : ولماذا نعيش فى العذاب ؟ ولماذا نعيش بعيدين ؟ فى استطاعتك أن تكونى أكثر قربا وأكثر التصاقا . فى استطاعتنا أن نجعل شفاهنا واحدة .. وألا نجعل الهواء ينفذ فيما بيننا ..

ولكن الرجل ينسى أن المرأة لا تقصد هذا دائما .. إنما هى تقصد أن هذا العذاب جميل ، وأنها تفكر فيه ، وأنه شىء كبير بالنسبة لها .

وأنها فى حاجة إليه . وأنها عندما تتركه تشعر بنقص كبير . ولكن كل هذه المعانى تتحول عند الرجل الى صورة حسية جسمية .

ونظرة الرجل مختلفة عن نظرة المرأة ..

لأن الرجل إذا نظر إلى امرأة فإنـــه ينظر إلى كل شيء ليس مغطى من جسمها .. ينظر إلى الأعضاء التى لا يغطيها الفستان .. أما المرأة فتنظر إلى الأعضاء التى تغطيها البدلة..إنه ينظر الى لحمها، أما هى فتنظر الى هيئته وتتعرف منها على مركزه وعلى مكانته وعلى ذوقه وعلى شخصيته ..

وهذا الاختلاف بين الرجل والمرأة ، اختلاف طبيعى. اختلاف فى طبيعة الرجل والمرأة . فليس للرجل دخل فى طبيعته وفى أن غرائزه وإحساساته كلها تعبر عن نفسها بهذه الصورة .

فالرجل دوره فى الحياة الجنسية والعاطفية إيجابى . فهو الذى يسعى وهو الذى يبذل الجهد وهو الذى يتقدم إلى الفتاة ويطلب يدها ، ثم يطلبها كلها ويبنى بها أسرة جديدة .

والرجل هو الذى يحمل جرثومة الحياة . إنه هو الذى يضع بذور الحياة . والمرأة هى التى ترعى هذه البذور وتغذيها .. وبذلك تمتد الحياة من جديد . وكل ما يقوم به الرجل من محاولات وغزوات ومجهودات ، ليس إلا لتهيئة الجو الصالح لإلقاء بذور الطبيعة . وعملية وضع البذور عملية صعبة وشاقة . ودور المرأة ، هو كدور الأرض الطيبة ، دور سلبي فهى تتلقى البذور ، وتنميها وتحميها وترعاها بعد ذلك ..

هذه هى طبيعة الإنسان : الرجل الذى يتقدم بقوته ، والمرأة التى تنتظر بخصوبتها وجمالها .

ولكن هذا الخلاف بين الرجل والمرأة ليس معروفا . أو على الأصح

يجب أن يكون معروفاً ، يجب أن نضع أصابع كل فتاة عليه .. يجب أن نعلم الشباب جميعا هذه الفروق فى الطبيعة البشرية . فكل المصائب والصدمات فى حياة الشبان وحياة الشابات إنما مصدرها هذا الخلاف . فكل الفتيات يتهمن كل شاب بأنه حيوان وأنه لا يفكر إلا فى «قلة الأدب» وقلة الأدب هذه يجب أن تعرف سببها ، وأن تعرف كيف تواجهها .. كيف يواجهها الشاب ، وكيف تواجهها الشابة ..

وعندما يلتقى الزوجان لأول مرة فى شهر العسل . تكون المفاجأة الكبرى لكل منهما .. أو على الأصح للفتاة أكثر .. إن الفتاة هى التى تتلقى الصدمة وحدها .. إن خيالها لا يمكن أن يصور لها أبداً ماذا يحدث فى اليوم الأول والثانى والثالث .. من هذه العزلة السعيدة . إن الأيام الأولى من شهر العسل كلها خجل وخوف .. الفتاة فى خجل فهى لا تدرى ماذا تفعل ولا تدرى ما الذى يجب أن تفعله أو تقوله وهى طول الوقت تنتظر الخطوة التالية . وأما الفتى فهو الآخر فى تجربة غريبة ، إنه حساس برجولته . وخائف أن تخذله رجولته .. وهو طول الوقت يريد أن يتفادى نظرات زوجته .. إنها تنظر اليه كإنسان غريب .. كل شىء غريب . شكله وهو نائم ، وهو قائم وهو يتقلب إلى جوارها .. وعندما يصحو وعندما يتثاءب .. كل شىء قلق . كل شىء مضطرب . . ليست هناك أية راحة فى هذا الشهر . فهناك اثنان مختلفان تماما ، يحاول كل منهما أن يتعود طباع الآخر حتى لو كانت لهما تجربة فى هذه الحياة . فإن اللقاء الأول هام وثقيل أيضا ..

والصعوبة عند الفتاة .. أنها تتصور أن هذه «العزلة السعيدة» ستمكنها من أن تعرف الرجل الذى ستشاركه حياته وأولاده ومستقبله . ولكن الرجل هو الرجل .. إنه يتصور أن العزلة السعيدة ، ليست إلا عزلة جنسية

حسية . ولكن الزوجة الشابة لا تريدها كذلك . ولا تجد اللذة التى يتصورها أو يتوهمها .

أبداً إنها تفضل الجلوس الهادى ساعات طويلة على أقصى لذة حسية فى الدنيا .

إنها تفضل الكلمة الحنون على شهر عسل طوله ألف يوم ..

إنها تفضل قبلة عابرة ، على قبلة طولها الليل والنهار ..

وهناك زوجات اليوم يتمنين الطلاق من أزواجهن ويفضلن الحياة بلا أزواج ويأكلن العيش والملح لأن أزواجهن ليسوا إلا حيوانات وإلا وحوشا ، ولا يفهمون ماذا تريد الزوجة .

إنهم يفهمون ماذا يريدون هم ، هم وحدهم . ولا يقيمون وزنا ولا قيمة لما تريده المرأة ، إن الرجل منهم يطلب إلى زوجته أن تلبس الأحمر والكحل والبودرة وأن تنتظره .. فيلقى نظره على هذه اللوحة الجميلة .. ويقرر فى نفسه شيئا .. أما الذى فى نفسها ، فهو لا يعنيه . إنه ينسى أن هذه اللوحة الجميلة يسكنها شحاذ متسول .. شحاذ يطلب الكلمة ولا يطلب اللقمة .. ينتظر الهمسة ، ويستغنى عن العناق .

ملايين من الزوجات والأمهات يتمنين الحياة وحدهن بعيدا عن أزواج ليسوا إلا حيوانات يأكلون لحوم البشر ، وينسون أن فى هذه اللحوم تعيش قلوب رقيقة ..

وفى التقرير الخطير جدا الذى نشره الدكتور كنزى فى أمريكا يرى أن فى أمريكا عشرات الملايين من الفتيات يفضلن الحياة العاطفية الحرة ، على الحياة الزوجية . ولم يكد يصدر هذا التقرير حتى ثارت الكنيسة . وراح رجال الدين يخطبون ضد هذا التقرير الخطير فى كل مكان . ولكن التقرير لا يحرض الفتيات على الامتناع عن الزواج .

ولكن يقرر الواقع . أما الواقع فهو أن الفتيات فى أمريكا ، كما هن فى كل مكان يفضلن الحياة فى جو عاطفى حالم ، على الحياة الزوجية التى لا يراعى فيها الزوج عواطف المرأة ..

وهناك نقطة هامة جدا . وهى أن «الجنس» أو «الغريزة الجنسية» ليست شرا وليست خيرا أيضا . فنحن لا نقول إن الطعام والشراب والنوم خير أو شر ، أو من أعمال الفضيلة أو من أعمال الرذيلة . فالجنس والطعام والشراب والنوم من ضرورات الحياة ، وكل ما هو ضرورى لا يوصف بالشر أو بالخير . فنحن لا نقول إن التنفس شر ، ولا نقول إن دقات القلب خير .. وكذلك الجنس والغريزة الجنسية والأعمال الجنسية . كلها لا توصف بالشر أو بالخير .

ولكن الذى يوصف بالخير أو بالشر هو موقفنا من الجنس والغريزة الجنسية ، هو تصرفنا الجنسى ، وعلى ذلك فالرجل الذى يحب المرأة حبا جنسيا فقط ، إنما يظلمها ويقسو عليها ولا يفهم طبيعتها ولا يشعر إلا بطبيعته هو . والرجل الذى ينظر إلى جسم امرأة ويرتفع الدم فى رأسه ويهجم عليها .. ثم يستريح ، رجل أنانى . لأنه استراح هو ، ولم يرحها هى . والمرأة تفضل حياة بلا رجل ، على حياة فيها رجل يعاملها كحيوان ، يعاملها كأنها لحم ميت ، كأنها تمثال من الحجر أو تمثال من الكاوتش ..

والوسيلة الوحيدة لمنع هذه الكارثة بين الفتى والفتاة ، بين الزوجين الشابين هو التفاهم الصريح .. هو الثقافة الجنسية لكل الشبان والشابات.. وعندما يعرف كل منهما طبيعة الآخر فإن الحياة تصبح أسهل ، والسعادة تصبح ممكنة . والسعادة تمشى على ساقين ، هما : الشجاعة والصراحة !

الحب الممنوع

أبادر فأرد على قارئة سألتنى : هل حب الجسد شر كله ، شر من أوله لآخره ؟ ألا يمكن أن يحقق الإنسان عن طريق حب الجسد متعة روحية ؟

والذى تقوله القارئة صحيح فعلاً . فالإنسان عن طريق حب الجسد ومتعة الجسد يشعر بلذة روحية عـالية . وليس هذا رأيى ولا إحساسى ولكنه إحساس كثيرين جداً من المتطرفين فى الدين . فقد كان المتصوفون يرون أن المتعة الجسدية نوع من الفنـاء فى الحقيقة ، أو فى « الله » ولذلك لا يرون فى هذا الامتزاج الجسدى ، أو هـذه اللذة الجسدية اللانهائية ، أى شر أو أية رذيلة . والشاعر عمر الخيام الذى تغنى أم كلثوم قصائده، لم يكن متصوفاً ولا راهباً ولا فاضلاً . وإنما هو رجل عربيد، يعرف الجنس ويعرف الخمر .. ويرى أن الجنس نوع من الصلاة الحارة المهلكة يؤديها إلى ربه . وهو عن طريق لذة الجسد يحقق أعظم سعادة روحية .. ونحن نسمع شعره ونحس كأنه يصلى ويتعبد .. والحقيقة أنه بلغ من الفناء فى الجسد درجة العبادة .. !

ونحن الآن نجد أناساً يحبون المال ، يحبون المادة ، وعن طريق هذا الحب المادى ، تمتلىء نفوسهم بلذة وسعادة ، وترتفع أيديهم إلى السماء يشكرون الله على ما أعطاهم ، من مادة ولذة مادية ؟ ألا يعبدون المال ، المادة ؟

إننا لا نستطيع أبدا أن نحقق لذة معنوية ، من غير مادة . والمادة هى جسم الإنسان . فبغير هذا الجسم لا يكون لنا وجود . ونحن نلمس كل المعاني السامية فى الأرض أو فى السماء ، بشىء واحد هو : الجسد ! إن الجسد هو الملعقة التى نتناول بها الحياة . بل إن الجسد هو الملعقة وهو الفم وهو الحياة نفسها !

كيف تفكر ، إذا لم يكن لك جسم ؟ كيف تصلى إذا لم يكن لك جسم ؟ كيف تحب إذا لم يكن لك جسم ؟ كيف تكره كيف تشبع ؟ كيف تحزن كيف تفرح .. لا بد أن يكون لك جسد أولا ، وبعد ذلك تكون لك عواطف وأفكار ، وتكون لك نزوات وصلوات ..

ولكن بين آبائنا وامهاتنا من يرون أن هذا الكلام حرام ، وأن هذا الكلام كفر .. وأن الإنسان يجب ألا يستسلم لجسده . إن الإنسان يجب أن يقف موقف العداء من كل مطالب الجسد . أن يحاربها ، أن يدوس عليها ، أن يقتلها .. ولكن كيف أحارب الجسد الذى هو أنا ، وكيف أدوس على الجسد الذى هو أنا ، وكيف أقتل من هو أنا . : وإذا حاربته ودست عليه ثم قتلته ، فلكى أحقق ماذا ؟

ماذا يتحقق لى بعد أن أنتحر أنا ؟ بعد ألا اكون ؟

أسئلة معقولة جداً يسألها الإنسان لنفسه . ولكن الآباء والأمهات لا يسألون ولا يناقشون ولا يرون أن الدنيا قد تغيرت وأن أفكارهم هذه لم تعش حتى الآن ، إلا لأنها وضعت فى « النفتالين » منذ عشرات

السنين .. وهذا « النفتالين » هو التزمت والرجعية !

إن الآباء يرون أن كل شيء يدل على الحياة حرام . . فالبنت التي تقرأ وتكتب وتذهب إلى السينما وتغني وترقص ، هذه البنت «مجرمة» سافلة منحطة — كدهوه ؟ ! .. وأن البنت المثالية الكاملة هي التي تجلس في البيت ، ورأسها في الأرض ، وتخاف من التليفون ، ولا ترى من خلق الله إلا الغسـالة وبائع اللبن ، وأحياناً بائع الصحف . . وحتى لو نظر لها بائع الصحف نظرة كده ولا كده ، فإنها تبادر وتفتح له العين الحمراء .. هذه هي البنت « الحشمة » البنت الشريفة الفاضلة التي احتقرت مطالب حياتها وشبابها .. التي جعلت من جسدها حذاء تلبسه وتقلعه ، وتنفضه ، فإذا نامت ، ألقت به تحت السرير .. أما الذي فوق السرير ويتقلب يميناً وشمالا ويحلم وتسيل دموعه على خده . ساخنة غزيرة .. فليس إلا روحاً ، إلا ملاكاً طاهراً .. !

هذا هو كلام آبائنا وأمهاتنا .. ولهم كلام آخر . فهم يرون أن الجنس — أعوذ بالله — حرام في حرام . والكلام عنه أكبر خطيئة . أما الكلام الذي ليس حراماً ولا خطيئة فهو الكلام عن الزواج . الزواج نصف الدين . وبالزواج يتم الدين كله .

ولكن قبل الزواج الذي هو نصف الدين ، ألا يجب أن يكون هناك تفاهم ، تقارب .. ألا يجب أن يكون هناك حب ؟ ألا يجب أن تكون معلومات أو تجارب شخصية ؟

أنهم يقولون : يجب الاّ يكون !

إذن لماذا يعيش الناس ؟

والجواب : ليتزوجوا .

سؤال آخر :

ولماذا يتزوج الناس ؟

جواب آخر : ليكون عندهم أولاد ، ولكى تستمر الحياة ، والناس خلقوا ليتناسلوا ، ليحموا رسالة الحياة .

سؤال : ولكن إذا كان الإنسان قد خلق ليتناسل ويكون له أولاد وأحفاد ، فما هو الفرق بين الإنسان والحيوان ؟ .

إن الحيوانات والحشرات والنباتات تتناسل ، ولا تتوقف عن التناسل أبداً . مثل الإنسان كذلك . أعتقد أن الفرق بين الإنسان والحيوان شيء واحد هو : الحب .. الإنسان يحب والحيوان لا يحب .. الإنسان عندما يحب فأنه يختار ، أما الحيوان فأنه لا يختار .. الإنسان ليس مجرد حيوان يرى الأنثى فيندفع نحوها فقط ! .. أبداً إن الجنس عند الإنسان يمر بمراحل عديدة ، يمر بمرحلة الإثارة الجسدية ، وبعد ذلك بمرحلة التجاوب العاطفى ، ثم الحب . إن الإنسان حيوان ، هذا صحيح . ولكنه ليس حيوانا مائة فى المائة . وأنتم يا آباءنا وأمهاتنا ، ترون أن هذا الذى يحدث قبل الزواج هو الشيء الحرام .. الشيء المحرم ، الشيء الكافر الذى لا تعرفه الفتاة التى تقفل الباب على نفسها وتنام .. وتضع رأسها تحت المخدة ، وتضع المخدة فوق رأسها ، وتظل تتلوى ليلاً ونهاراً ، كأنها تريد أن تكون هى والمخدة ضفيرة مجدولة .. بل حبلا غليظاً تتمنى أن تشنق به الذين شنقوها وحبسوها وحرموها وجردوها من جلدها ، من جسدها ، ولم يتركوا فيها إلا روحها التى تتفجر أرقا وعرقاً وقلقاً ودمعاً ودماً وحرماناً !

هذه هى الحياة التى يتحول فيها البيت إلى سجن ويصبح الأب هو السجان والأم هى الشاويش، ويصبح السرير مصيدة للفئران ويصبح المستقبل طريقاً أسود مظلماً وكل ما تعمله الفتاة هو أن تنتظر . تنتظر

من ؟ إنها لا تعرف . وليس من حقها أن تعرف . فهذه هي مهمة الأب ومهمة الأم . ويجيء ابن الحلال ــ ولا تفهم لماذا يسميه الناس ابن الحلال ؟ ــ ربما لأنه ينقذ منها الأب والأم معاً ! ويخطفها ويذهب بها إلى بيت آخر . ربما كان البيت أوسع وأجمل .. ولكن الحياة التي عاشتها في بيت أبيها وأمها ، ليس من السهل أن تتخلص منها .

لقد تحولت في بيت أبيها إلى جثة وفساتينها ليست إلا كفناً وسريرها ليس إلا نعشاً..إن زوجها الجديد يريد أن يبعث فيها الحياة.. ولكن الحياة قد فارقتها منذ زمن بعيد .

هذه هي الجريمة التي يرتكبها الأباء المتزمتون باسم الفضيلة واسم الحلال .. إنهم يحكمون عليها بالموت ، وبعد ذلك يحكمون عليها بالحياة . كأنهم يقطعون الألسنة ، وبعد ذلك يقدمون الطعام ، إنهم يفقأون العيون ، وبعد ذلك ينقلون بناتهم إلى مسرح الحياة ..

ومرة أخرى .. إن حياتنا كالساعة وفي الساعة عقربان هما : غريزة حب البقاء وغريزة الاستمرار . ونحن نستطيع أن نحقق بقاءنا عن طريق الطعام والشراب والنوم .. ونستطيع أن نجعل الحياة تستمر عن طريق الجنس .. أو بعبارة أخرى إن حياتنا تقوم على أساسين هما : الخبز والجنس .

لا بد أن يكون هناك خبز وأن يكون هناك جنس .

والفرق بين الإنسان المتحضر والإنسان غير المتحضر هو ضبط النفس .. فالإنسان الهمجي عندما يشعر بالجوع فإنه يخطف ويقتل . أما الإنسان المتحضر ، فهو يضبط نفسه . فإذا رأى الطعام لا تمتد يده إليه ، إلا إذا كان هذا الطعام حقاً له . والإنسان المتحضر لا يأكل أي طعام ، وإنما يختار ما يعجبه من الطعام في الوقت الذي يعجبه

والمكان الذى يريده ، وبالمال الذى يقدر عليه ..

وكذلك فى الجنس .. فالإنسان الهمجى ، يهجم على الأنثى ، أى أنثى . والشعوب الهمجية لا تعرف الزوجية ، وإنما المرأة هناك زوجة للجميع .. فهناك حفلات تقام ويختلط فيها كل الرجال بكل النساء .. أما الإنسان المتحضر فهو يختار ، ولا يعبر عن كل ما يشعر به ، وإنما يخفيه أو يحاول أن يظهر مشاعره بصور مختلفة . يظهرها بالأناقة فى ملبسه أو الأناقة فى كلامه وتفكيره ، أو بإظهار قوته ورجولته ومركزه .. وهناك أشكال كثيرة يعبر بها الإنسان المتحضر عن غريزة الجنس عنده : قراءة القصص الغرامية ومشاهدة الأفلام والغناء والرقص، كل هذه صور للاستطلاع أو الإشباع الجنسى ..

ولذلك يجب أن نعرف أن هذه جميعاً صور جنسية . بل أن التدخين فيه تعبير عن الجنس ، ومضغ اللبان فيه تعبير عن الجنس ..

وآباؤنا يرون أن البنت أو الولد يجب ألا يختار وألا يكون له رأى أو شعور خاص .. أما إذا كان له رأى أو موقف ، فهذا هو الشىء الحرام . فالحياة عندهم رجل وامرأة .. الحياة زوجان ، أما التفاهم والحب والتجربة الشخصية فهذا حرام . والجنس هو من أجل الأسرة ، من أجل الأبناء . فأنت تتزوج ليكون لك أولاد . هذه هى الحياة الشريفة النبيلة ..

ولكن لا بد للجنس من صور أخرى غير الزواج ، لا بد أن نسمح له بالظهور على أشكال كثيرة ، فهذه متعة وهذه ضرورة حيوية .. لا بد أن نعرفها بوضوح .. ألسنا نعرف أن جسم الإنسان لا بد أن يفرز العرق ويفرز ما زاد على حاجته .. وإذا لم يفرز الإنسان عرقه أو الأملاح أو السموم الزائدة عنده ، فإنه يموت .

وكذلك الإنسان إذا لم يفرز أحلامه وأوهامه واهتمامه ، فإن قلبه يجف ويجمد وتصبح الحياة كالنافورة التى يندفع منها الرمل لا الماء ، والرمل يملأ العيون ويملأ الآذان .. ويندفع الرمل ويهبط علينا ، ليدفننا ونحن أحياء ..

إن شاباً رومانياً طلوا جسمه بالذهب منذ ألفى سنة وجعلوه يرقص . وظل يرقص حتى مات ولم يعرف أحد لماذا مات . لم نعرف ذلك إلا من مئات السنين ، .. فالذهب غطى مسام جلده ، ولم يفرز جسمه عرقاً .. ولذلك مات !

وهذا ما يحدث للراهبات في الأديرة .. إنهن يحرمن على أنفسهن كل صور الجنس .. كلها .. فماذا تكون النتيجة ؟ .. إن الكثيرات منهن يصبن بالجنون والأمراض العصبية والهزال .. إنهن يتهيأن للموت يوماً بعد يوم فلا غرابة فى أن نجدهن يلبسن الأكفان البيضاء !

وقد غيرت الكنيسة نظرتها إلى المرأة .. وإلى الجنس ! !

* * *

هذا « الإكلان » وهذه الرغبة فى « الهرش » ليست حراماً ..

ولكن المصيبة التى يعانيها الشباب اليوم هى أنهم يجدون من يقول لهم : هذا الإكلان حرام ، هذه الرغبة فى الهرش خطيئة.. وكل يوم وكل حصة وكل إذاعة يقال لهم هذا الكلام ..

وهذه هي الخطورة ، فهى تقضى على جيل شاب حى ، أمامه مستقبل أجمل وأروع من حاضره ومن ماضيه ..

هذا الشيء الحرام هو الذي أفسد علينا جيلاً كاملاً .. ولكن من المستحيل أن يعيش آباؤنا إلى الأبد !

حب الروح

نفرض أن إنسانا جلس إلى مائدة الطعام . وأمامه طعام مختلف الألوان والأشكال . فإذا أغمض عينيه ، وجعل يملأ أنفه من رائحة الطعام ، وجعل يحلم بطعم هذا الطعام ، وجعل يبتعد عن المائدة ، ويضع أصابعه فى أنفه وفى أذنيه ويشكو من الجوع والعذاب .. ثم يجد اللذة فى هذا الجوع .. فهذا يشبه الحب الرومانتيكى .

وإذا سحب المقعد والتصق بالمائدة وجعل يفرغ هذه الأطباق فى حلقه الواحد بعد الآخر .. ولا يفرق بينها وكأنه يأكل وهو مغمض العينين ، ثم بعد أن يفرغ من الطعام اللذيذ ، يجر معقده ويدير ظهره للمائدة ، ويذهب لينام .. فبعد الطعام يجب أن ينام ويستعد للوجبة التالية .. فهذا يشبه حب الجسد !

وإذا جلس أمام المائدة ونظر إلى الطعام ثم أطبق عينيه ، وابتعد عنه وراح ينظر من النافذة أو يقرأ فى كتاب أو يدخل فى السرير وينام وينتظر انطلاق مدفع الإفطار . فهذا هو الحب الحرام .. فهذا الإنسان

يحب أن يكون صائماً ، لا يرى الطعام ولا يسمع ضربة الملعقة في الطبق ، ولا يفتح أنفه لرائحة اللحم أو الحساء ، بل ولا يفكر فى أن يأكل إلا بعد أن يتجه المأذون إلى المدفع ويطلقه .. وحينئذ يتقدم هذا الإنسان ويأكل ككل الناس .

ثم إذا جلس هذا الإنسان إلى المائدة وتطلع إلى الطعام وأعجب بألوانه ، وتلفت إلى المدعوين حوله يتحدث إليهم ويأكل .. ويروى الحكايات ويشرب .. ويشكو متاعبه ويتناول الفاكهة .. ويمسك الورق والقلم ويجرى بعض العمليات الحسابية ليعرف كم بقى من مرتبه من الفلوس ثم يميل على الراديو ويستمع إلى الأغانى أو إلى نشرة الأخبار . فمعنى ذلك أن هذا الطعام ليس هو الغاية فى ذاته ، وإنما الجلوس إلى الطعام مناسبة ممتازة لتكون هناك سعادة عائلية وطمأنينة نفسية . هذا تماماً يشبه اللون الرابع من الحب .. وهو حب الروح !

وأنا الآن أشرح هذا اللون من الحب .. وقبل ذلك أعود فأوضح نقطة مهمة . ولكن الناس لا يحبون الكلام عنها ، ويكرهون مناقشتها . إنها عنصر أساسى جداً . إننا نكره الكلام عن الجسد ومتاعب الجسد ولذة الجسد . مع أنها ضرورية فى كل علاقة بين فتى وفتاة . لقد أعجبتنى العبارة التى قالها شارلى شابلن فى أحد أفلامه : إننا نخاف من رؤية الدم مع أنه يجرى فى عروقنا .. وكذلك نحن نكره الكلام عن الجنس مع أنه يجرى وينام ويولد ويعيش وينمو ويكبر فينا ..

وهذا اللون الرابع من الحب ، ليس خالياً من الجنس ، ولكن الجنس له معنى آخر . له مفهوم آخر . فحب الروح ليس معناه أن نحب روح الإنسان . فنحن لا نرى الروح . ولكن توجد صفات ومزايا وعيوب فى كل إنسان . أن هذه الصفات والمزايا تنشأ من نشاط

جسم الإنسان وأعضائه وغدده وعلاقة هذا الإنسان بالناس حوله .. فأفكارنا لا وجود لها ، إلا عن طريق الجسم .. والحب والكراهية يتولدان من نشاط هذا الجسم وعلاقته بالآخرين فى البيت وفى العمل وفى المجتمع وفى العالم كله ..

فالسيارة تتحرك وتنطلق بسرعة وبطء ، لأن هناك أجهزة تدور وتحترق ويدفع بعضها بعضا ولأن هناك سائقاً يوجهها .. وكذلك جسم الإنسان كأى آلة فى الدنيا ، يتحرك ويقوى ويضعف ويمرض ويموت.. ويتعب ويستريح ، ويستمتع لأن هناك عقلاً يوجهه .. هذا العقل هو نتيجة لتطور الإنسان من الحشرة إلى هذا الإنسان المعقد خلال عشرات الألوف من السنين ولا شىء يدل على تمدن الإنسان أكثر من فهمه للجنس وللعلاقة التى بينه وبين الناس . فالحب الذى يقوم على الصدق والإخلاص والوفاء والتضحية هو الحب الروحى فى أعلى درجاته .

فالذى يحب فتاة حباً روحياً ، هو الذى يشعر بأن هذه الفتاة شريك وصديق وأخت وضرورية له . وأن لها قيمة كبيرة فى حياته ، وأنها لذلك تستحق أن يضحى من أجلها بالكثير ، وتستحق أن يحرص عليها وعلى مشاعرها وعلى رضاها . فالشاب الذى يحب فتاة حباً روحياً هو الذى يرى أن الفتيات الأخريات لسن أحسن منها . قد تكون هناك فتيات أجمل وأروع وأغنى وأذكى وأكثر ثقافة . ولكن الفتاة التى يحبها هو ، هى بالضبط الفتاة التى تحقق له الراحة ، وتحقق له الطمأنينة .

إن الحب « كالأسانسير » يبدأ أول الأمر بالوقوف فى الطابق الأرضى ثم لا يزال يرتفع من أرض الجنس طابقاً طابقاً حتى يبلغ درجة الصداقة .. فالفرق بين الحب وبين الصداقة هو الجنس . فالحب فيه

جنس ، ولكن الجنس ينقص عندما تكون هناك صداقة .

فالحب — الجنس = الصداقة . والصداقة هى التى تبقى . لأن الصداقة مربوطة بشىء لا يزول ، مربوطة بخيوط أبدية اسمها الوفاء والتضحية والإخلاص .

أما الجنس فهو مرتبط بما يزول ويمرض ويضعف ويموت .. إنه مرتبط بالجسم . وكل ما يرتبط بشىء زائل ، فإنه يزول أيضاً .

ولكن كيف يتحول الحب الذى فيه جنس إلى حب بلا جنس ؟ يتحول ذلك عن طريق العقل ، عن طريق الفهم السليم للعلاقة بين رجل وامرأة .. يتحول عن طريق التجربة . فالشاب العاقل المجرب هو الذى يستطيع أن يرفع الحب إلى أسمى مراتبه .. إلى الصداقة .. إذا كان الحب كالسيارة فإن الصداقة كالطائرة . هذه تمشى على الأرض ، وتلك تحلق فى السماء .. وفارق كبير بين سائق السيارة وسائق الطائرة . الفارق هو الفهم والتجربة لهذه العلاقة التى تدوم بين اثنين يحب كل منهما الآخر ، ويحرص على أن تبقى هذه العلاقة زمناً طويلاً .

وأنا أؤكد دائماً يجب ألا نحتقر الجسم ومطالب الجسم .. فان الجسم هو مركز القوى ، ومصدر حياتنا والوسيلة الوحيدة للمواصلات فى هذا العالم ..

قد يقول إنسان إن الجنس نار .. نعم نار .. ولكن هل يمكن أن تكون هناك حياة بلا نار .. بلا حرارة .. بلا احتراق .. هل يمكن أن تدور آلات فى هذا العالم ، بلا احتراق ولا نار .. إن الشمس هى مصدر النار والنور فى هذا العالم .. فلولاها ما كانت أرضنا ولا كانت مياهنا ولا الزرع ولا الحيوان ولا المناجم .. ولا هذه الحياة . وكذلك الجنس أو الجسم هو شمس هذه الحياة .

وقد يقال إن الجنس طين ووحل ودنس .. ولكن إذا لم يكن هناك طين ، فهل يمكن أن تكون هناك هذه النباتات والحيوانات والإنسان إنها جميعاً خرجت من الطين ، وإلى الطين تعود ..

يجب ألا نحتقر أجسامنا ، وإنما يجب أن نوجهها وأن نعلو بها .. أن ننفخ عجلاتها وأن نضع لها أجنحة لتعلو وتطير ، وننظر إلى كل شيء من أعلى ..

لقد أعجبني أحد الممثلين في فيلم من الأفلام . فقد وقف في نهاية الفيلم يعلن احتفاله بمرور ٢٥ عاماً على زواجه فقال لزوجته : عندما تزوجتك كنت أظن أنني أحبك ، ولم أعرف معنى الحب إلا الآن..

أي إلا بعد ٢٥ عاماً .. أي عندما تحول الحب إلى صداقة ، إلى حب روحي .. إلى حب الصديق .. إلى حب الحياة المشتركة .. إلى علاقة يكون فيها الجنس في المرتبة الثانية .. إلى جلوس إلى المائدة والاستمتاع بالجلوس إلى الناس والتحدث إليهم أثناء الطعام اللذيذ .. فالطعام يذهب ويجيء غيره ، أما الذي يبقى فهو الشهية إلى الأكل مع الناس ..

وحب الروح هو في الواقع حب القلب الكبير والعقل الناضج . والفتاة تحب أحياناً الرجل الكبير ، الرجل ذا التجربة ، الرجل الذي يفهم حقيقتها والذي يجعل وزناً كبيراً لمشاعرها .. إنها تحب الرجل الذي يشعر أنها قطعة من الذهب ، يجب أن تصان . لا قطعة من السكر يجب أن يمتصها فوراً وتذوب ويبحث عن أخرى ، ولا تحب الرجل الذي ينظر إليها على أنها كومة من التراب يجب كنسها ورش الأرض بعدها .. إن هذه الفتاة تبحث عن العلاقة التي تدوم .. ولا يدوم إلا حب الروح !! .

* * *

الحب الواقعي

هناك مثل بلدى يقول : ما من شجرة إلا هزتها الريح . وما من قلب إلا هزه الحب . والقلوب يختلف بعضها عن بعض كما تختلف وجوه الناس . فهناك قلب يهزه الحب فيهتز ولكنه لا ينبض ، كأنه ساعة مكسورة مهما هززناها ، فإنها لا تدق ولا تتحرك عقاربها . وهناك قلب يهزه الحب فيتفتح كأنه وردة وتسقط منه ورقة صغيرة مكتوب عليها : كامل العدد .. وهناك قلب لا يكاد الحب يهزه حتى يدق ويصرخ ويقول : يانصيب. سحب الليلة آخر ورقة .. ونحن نعلم أن هذه الأوراق لا أول لها ولا آخر.. وهناك قلب لا يفتح إذا اهتز ، ولا ينفتح مهما حركناه . فلهذا القلب مفتاح ، وهذا المفتاح ضائع ، ومن يجده فله الحلاوة ، وهذه الحلاوة هى فتح هذا القلب والإقامة فيه .. وهناك أناس يفضلون أقصر الطرق ، إنهم لا يبحثون عن المفاتيح ، إنهم « يفسخون » هذه القلوب ، ويفتحونها بالقوة ، وتنفتح القلوب ولكن بعد أن تتحطم ..

فكل إنسان معرض للحب ، فى ماضيه أو فى حاضره أو فى المستقبل لا بد أن تهزه الريح .

وقد تهزه الريح ، وتحدث صفيراً وغناء ، وإذا الحب يرتفع بصفيره وغنائه إلى السماء ، يتحول إلى طائر يعلو ، حتى لا تراه العيون ، وحتى يرى الدنيا كلها تحت رجليه صغيرة لا تساوى شيئاً . ولكن الذى يساوى عنده كل شيء هو حبيبته ، هو الريح التى هزته .. هو الأصابع الناعمة التى أيقظته من غفلته ..

وقد تهزه الريح فتحرك معدته ، والمعدة عندما تتحرك ، فإن الريق يجري والعيون تلمع والشهية تنفتح ، وإذا هذا الحب يتلمظ وإذا هو حيوان مفترس .. إنه جائع .. إنه يريد أن يسد معدته .. إن معدته لا تسكت .. إنها تقوم بمظاهرة فى بطنه ، إنه يسمع الهتافات فى أمعائه ، ويسمع المتظاهرين وهم يتسلقون رقبته إلى رأسه ، إنهم يضربون رأسه بقوة .. لا بد أن يعطيها الخبز ، فإن الخبز ، هو الذى أشعل الثورة الفرنسية .. إن الريح قد قامت بدور « المسحراتى » وعليه أن يتناول سحوره وينام ..

وهناك أناس تهزهم الريح ، ويحسون كأن زلزالا قد وقع وأن الأرض ستنشق حالا ، وأنها ستبتلع كل من عليها من أناس وحيوان ونبات .. وأن القيامة ستقوم ، وأن هذه الزلزلة هى غضب من الله .. ولا يملك الإنسان إلا أن يبتلع لسانه فلا ينطق ، وإلا أن يضع يده على قلبه فلا ينبض . فالاهتزاز ذبذبة ، والذبذبة تردد والتردد وسوسة ، الوسوسة من فعل الشيطان .. والعياذ بالله ، فهم يطلبون من الله الثبات والصمود فى وجه الريح ..

وهناك من يشعرون بالريح . فلا يفزعون وإنما يفرحون .. ويحس

الواحد منهم كأنه فى زورق .. والزورق تحركه الرياح .. فينشر شراعه الأبيض ، ويجلس فى مؤخرة الزورق ويتطلع إلى الشراع الذى ملأته الريح .. إن الريح تهزه وتدفعه إلى الأمام .. وهو فى زورقه يمد يده إلى الماء وينعم بنعومة الأمواج ، ويتلفت إلى الشاطىء وإلى خضرة الشجر والعشب ، ويشعر أن رحلة البحر مملة وطويلة وبليدة لولا هذه الرياح ولولا أن هذه الرياح قد هزت الشراع .

هذه هى الألوان الأربعة من الحب .. أما اللون الخامس فهو يجمع هذه الألوان الأربعة بدرجات متفاوتة إنه الحب الواقعى وهو كوكتيل منها جميعاً . وكوكتيل كلمة معناها فى الإنجليزية : ذيل الديك . وذيل الديك ملون وتختلط ألوانه بعضها مع بعض . وفى الحب الواقعى تختلط هذه الألوان . ونحن الذين نتولى خلطها .. نحن الذين نضيف الخيال إلى الواقع ، والجسد إلى الروح ثم نوازن بينها جميعاً ..

ويجب ألا ننسى أنه من الصعب جداً على الإنسان أن يكون محباً ، وأن يكون فى نفس الوقت موزوناً أو معقولاً . فالذى يحب هو الذى يبالغ فى كل شىء ، يبالغ فى ثقته بنفسه ويبالغ فى مخاوفه ، ويبالغ فى غيرته ويبالغ فى الدور الذى يقاوم به . والذى يبالغ ، ليس موزوناً ولا معقولاً .

ولذلك فالإنسان الموزون أو المعقول هو الذى لا يبالغ فى كل عناصر الحب .. لا يبالغ فى الخيال ولا يبالغ فى الحقيقة . والذى يجمع بين الماء والنار ، بين اللذة والألم ، بين الحب والصداقة . وأن يكون وسطاً .. وأصعب الأمور الوسط وأصعب أنواع المشى ، ما كان على الحبل والتوسط فى الأمور ، كالشمس على الحبل ..

ولكى يكون الإنسان واقعياً فى حبه يجب أن يعرف أولا إن كان

هو يحب فعلاً أو أن هذا مجرد اهتزاز .. وقــد يشعر الإنسان باهتزاز ويتوهم أن أحداً يدق على بابه ، ويتجه إلى الباب فلا يجد أحداً . وإنما هي إحدى الجارات تدق « كفته » مثلاً .. فإذا عرف أنه يحب فعليه أن يعرف هل الفتاة التي يحبها ، تبادله هذا الحب .. ثم أي نوع من الحب هذا وعليه بعد هذا ان يقارن بين تجاربه وتجاربها .. وهل هو تقدم عليها في تجاربه أو أنه تجاوز المرحلة العاطفية التي هي فيها أو أنه ما يزال وراءها .

المهم أن يلتقي بها ، المهم أن يعرف الحل الوسط بين حبه وبين حبها ..

فمعظم حالات الفشل في الحب والزواج سببها أن أحد المحبين لم يفهم الآخر ، ولم يعرف طبيعته ، على الرغم من أن كلا منهما يحب الآخر . في هذه الحالة تتسع المسافة بينهما وتصبح كالشقة الحرام بين العرب واليهود وتصبح كلها حقولا للألغام .

أذكر أنني كنت أزور مستشفى الأمراض العقلية مع بعض أصدقائي من الأطباء ومررنا في أحد العنابر على فتاة جميلة جداً . ليس فيها عيب واحد . لا في شكلها عامة ولا في ملامحها ولا في قوامها ولا عينيها ولا صوتها . والله هذا صحيح . ودهشت جدا من وجودها هناك . مع أن خارج المستشفى عشرات بل مئات يجب أن يكن جميعاً بدلا منها . فقال لي أحد الأطباء : لقد تزوجت شابا غنياً . ولكنه كان بارداً جامداً بلا تجارب . أما هي فكانت فتاة مثقفة تقرأ وتكتب . ولها طموح ، وكانت تتخيل مواقف مسرحية مع بعض الناس وتروى ذلك لزوجها لتداعبه . ولكنه لم يصدق ذلك أبدا واتهمها بالخيانة . وحاولت أن تقنعه بأنها فتاة حساسة خيالية . بل وذهبت إلى أبعد من

ذلك فطلبت الاستعانة بأحد الأطباء .. وثار عليها الزوج وهددها بالقتل .. وكانت الصدمة التى نقلتها إلى هذا المكان ..

والإنسان عندما لا يجد من يفهمه ، عندما يجد من يظلمه ويقسو عليه .. فإنه يتحول إلى إنسان آخر . فإذا كان الظالم هو الإنسان الذى يحبه ويتمناه ويتلهف عليه ، كان الموقف أصعب ، وكانت الثورة والتمرد والكفر .. وكان العرب قديماً يقولون : إن رجلاً صنع لنفسه صنماً من الحلوى ، وكان يعبده ويصلى له ليلاً ونهاراً ويطلب من الصنم أن يرزقه بالطعام والشراب والمال والبنين .. ولكن هذا الرجل العربى أصيب بالجوع الشديد ، ولم يجد ما يأكله ولم يجد أحداً يتصدق عليه . فهجم على الصنم وأكله !

والذى يفتقد الرحمة والعدل فإنه يثور على كل شىء مهما كان مقدسا ، يثور على حبيبه ويكفر به ، ويقضى عليه وعلى حبه ..

وقصة الملك سليمان والفتاة الفقيرة شالوميث . فهذا الملك لديه فى قصره مئات النساء من كل لون وطول وعرض وقبيلة . وفى يوم رأى هذه الراعية شالوميث وطلب من الحراس أن يسحبوها بالقوة إلى قصره وأن يغسلوها ويلقوا بملابسها البالية .. وأن يضعوا العطور فى قدميها والحرير على جسدها ، والذهب فى عنقها وأن يأتوا بها .. ورأت الفتاة الملك سليمان وراحت تبكى على حبيبها الراعى المسكين الذى تحبه ، رأت الحراس حول الملك سليمان فجعلت تندم على الأيام التى كانت فيها الذئاب تهاجم أغنامها .. كانت تنظر إلى الحرير عند قدميها ، وتبكى على الأيام التى نامت فيها على الصخور إلى جوار حبيبها . كانت تسد أنفها لعطور الملك ، وتحلم بعرق حبيبها الراعى الأسود .. إن كل إنسان يستطيع أن يجعل حبيبته هكذا ، تراه وتبكى على غيره ،

تنام إلى جواره ، وتحلم بالنوم على الأرض إلى جوار إنسان آخر إن هذه الفتاة شالوميث قد أصبحت دموعها وآهاتها نشيداً رائعاً خالداً فى (الكتاب المقدس) اسمه : نشيد الأنشاد ..

إن الملك سليمان لم يفهم أى نوع من النساء هذه ، لم يفهم قلبها ، لم يراع حبها . لقد ظن أن قوته أقوى من ضعفها ، وأن ذهبه أغلى من وفائها . وأن حاشيته أحب إليها من أغنامها ..

ومات الملك، وبقيت شالوميث رمزاً لثورة فتاة عزلاء، على عرش ملك عظيم .. وكل إنسان يصبح (شالوميث) عندما لا يفهمه أحد ، عندما لا يدرك أحد حقيقته .. ولو ركع الملك سليمان عند قدميها ، وألقى بتاجه وراء ظهره ، وأطلق نساءه جميعاً وأبقاها هى وحدها .. لو فعل الملك سليمان ذلك ، كان يحبها فعلا ، فربما تغير قلب شالوميث ولكنه لم يفعل .. وظلت شالوميث هى الملكة ، أما الملك سليمان فهو الراعى المسكين ..

وقصة روكسانا أيضاً ..

فعندما كان الإسكندر الأكبر يزحف بجيوشه المنتصرة إلى الشرق دخل بها بلاد الفرس .. وجعل يقتل ويذبح ويستولى على الأموال ويجمع الأسرى من كل مكان .. وقعت عيناه على فتـــاة ، اسمها « روكسانا » طلب إليها أن تركع ففعلت . طلب إليها أن تقبل الأرض عند قدميه ، ففعلت. طلب إليها أن تزوره ليلا ، ففعلت . فثار الإسكندر عليها قائلاً : لماذا لا تعارضين ؟ لماذا لا تقولين لا ؟ إنك تملكين قوة أعظم منى ؟ إنك جميلة وشابة . وقالت الفتاة : ومن قال لك إننى لم أعارضك.. إننى لا أحبك !

وثار الإسكندر .. ولكنه عاد إلى الإرض .. يقبلها ويركع عند

قدميها ويعطيها قلبه . فأعطته قلبها . وأحبها وأحبته وتزوجته ! ولما سئل الإسكندر كيف حدث هذا الزواج قال : فى لحظة نسيت أننى عظيم وأننى ملك وأننى أقوى منها . ونسيت أنها أسيرة وأنها ملك يدى .

هذه هى اللحظة التى يجب أن يشعر بها كل إنسان ولو مرة واحدة فى حياة قلبه .. فى هذه اللحظة يلتقى فى منتصف الطريق مع الفتاة التى يحبها .. فيكون حبا بلا وهم ولا خوف ولا مبالغة .. حبا ملوناً ، فيه الخيال والحقيقة ، فيه الروح والجسد .. فيه كل ألوان الطيف ، حبا يشبه قوس قزح وقد تحول إلى تاج يستقر على قلبين اثنين يحس كل منهما الآخر .

ويحدث كثيراً جداً أن تتهم الفتاة حبيبها بأنه « بارد » أو « جامد » أو (واقعى أكثر من اللازم) . وقد تكون الفتاة على حق . وقد يكون هو على حق أيضاً . والحل لهذا الإشكال أن يبذل أحدهما مجهوداً فى الالتقاء بالآخر فى منتصف الطريق . فالحب طفل صغير لا يكبر إلا بصعوبة جداً . وهو لذلك فى حاجة إلى عناية دائمة ، وتربية مستمرة ..

والمرأة تفضل الحب القليل الذى يدوم ، على الحب الكثير الذى لا يدوم . وهى تقول دائماً مع الأغنية الإيطالية المعروفة : حبنى قليلاً ولكن طويلاً !

ومن السهل أن تقفل عينيك وتحلم ، ومن السهل أن تفتح عينيك وتتلمس الدنيا بيديك .. ولكن من الصعب أن تضع عيناً فى الجنة وأخرى فى النار ، وأن تحب بحساب ، وأن تضع على قلبك مظلة واقية من المطر ، وفى رأسك سلكاً مانعاً للصواعق . هذا هو الحب الواقعى . ولا يستطيعه إلا الإنسان الذى له تجارب والذى فيه مرونة ، والذى تهزه

الريح فلا يقاوم ولا ينكسر ولا تطيح به فى السماء ، ولا تدفنه فى الأرض ..

سيصبح حب الناس واقعياً عندما يرددون عبارة الأديب العظيم أوسكار وايلد : إنما تعجبنى المرأة التى لها ماض ، والشاب الذى له مستقبل !

الحب الواقعي أيضا

هناك قصة صينية تقول : فى قديم الزمان كان لأحد العمد ثلاث بنات . والبنات تزوجن من ثلاثة رجال . أحدهم موظف والثانى ضابط والثالث فلاح . وفى أحد الأعياد ذهب الثلاثة لزيارة العمدة . والتقوا على باب العمدة . واختلفوا أيهم يدخل أولا . واقترح الموظف أن ينظم كل منهم قصيدة . ويكون البيت الأول فى وصف غطاء الرأس الذى يضعه ، والثانى فى وصف مزاياه هو ، والثالث فى كيفية الوصول إلى بيت العمدة .

أما الموظف فقال : غطاء رأسى قبعة مستديرة ، وقد قضيت عشر سنوات فى القراءة ، وأربعة من الرجال حملوني على أعناقهم وأتوا بى . . كأننى أحد الآلهة !

وقال الضابط : قبعتى من حديد رهيب ، وورائى مئات المعارك الحربية ، وقد جئت إلى هنا على ظهر حصان جميل كان ينطلق كأننى أعظم الآلهة ! .

وقال الفلاح : قبعتى من القش الجاف ، وتاريخى سلسلة من الشقاء والكفاح ، وجئت إلى هنا سيراً على قدمى ، وقد تركت ورائى اثنين من الآلهة ..

وغضب الموظف والضابط من كلام الفلاح وأذنوا له بالدخول بعد أن تفوق عليهما . ولكن عندما جلسوا إلى الطعام اقترح الضابط أن يدخلوا فى مباراة أخرى ..

فقال الضابط : كل الرؤوس تنحنى لى . وكل السهام تنكسر عند قدمى . إذا طلبت إلى الجنود أن يموتوا تسابقوا إلى الموت بالألوف .

وقال الموظف : أنا صاحب المركز والقوة . إننى سيد بين الناس . سأكون غنيا . ينساب المال بين أصابعى .. وينساب منها .

وقال الفلاح : عندى ثور ومحراث . ولولاهما ما كان زرع ولا طعام . فلولاى ما عاش واحد منكما !

وضاق الضابط والموظف ، وراحا يفكران فى شيء آخر لمضايقة هذا الفلاح والتغلب عليه .. ولكن فى هذه الأثناء انطلقت صرخات فى البيت . فقد اندلعت النيران وتعالى دخانها ، ووقف الضابط والموظف حائرين وصرخ الموظف قائلا : أيها الخدم ألقوا الماء على النيران . وقال الضابط : أيها الجنود إلى الأمام . اذهبوا إلى النيران واقطعوا ألسنتها !

أما الفلاح فطلب إليهما أن يسكتا ثم قال : أيها السادة أفسحوا الطريق لسيد الموقف .

ودهب يطفىء النيران بيديه !

انتهت القصة .

ولو كان عندى ابنة وتقدم لى هؤلاء الثلاثة لكانت ابنتى من نصيب

هذا الفلاح . ولن أفرض الفلاح على ابنتى ولكنى سأمسك ابنتى وأقول لها : اسمعى يا ابنتى أنا أكبر منك سنا وأنا أعرف الكثير عن حياة الناس. وأنا صديق لك . وأحب سعادتك وراحتك وأحب أن تبقى هذه السعادة.. هذا الفلاح يعتمد على نفسه ، وهو يعرف قدرته ، ولا يبالغ فيها . وهو رجل واقعى . إنه لا يدعى القوة ولا يدعى العظمة . إنه يفهم نفسه . والرجل الناجح والذى ينجح هو الذى يفهم نفسه بوضوح وبلا مغالطة . ومعظم المصائب فى الحياة الزوجية سببها أن الزوج أو الزوجة لا يعرف قدر نفسه . إنه يبالغ فى قيمته ، إنه يبالغ فى أهميته وحده .. فأنصحك يا ابنتى أن تتزوجى هذا الرجل . فهو رجل وهو واقعى وهو بسيط ، والبسيط السهل هو الذى يبقى .. تزوجيه فهذه نصيحة أبيك . والرأى لك على كل حال !

وأنا هنا عندما أتحدث عن الواقعية فى الحب ، أتحدث عن الزواج . وسبب ذلك أن الحب الواقعى هو الذى ينتهى بالزواج عادة . فكل من الطرفين يعرف السبب الحقيقى لهذه العلاقة ، ويقدرها ويزنها ويحسها ويعلم أن النتيجة هى الزواج . ولا زواج بغير حب . فالحب هو العنصر الأساسى ، الضرورى فى كل زواج . فالحب هو وحده الذى يجعل للحياة الزوجية طعما باقيا ، يجعل له حلاوة على اللسان ، وعطرا ثابتا فى الأنف ، ولحنا ناعما فى الأذن .. الحب هو وحده الذى يجعل متاعب الحياة تصغر وتتضاءل وتتبخر كالندى عند طلوع الشمس . والحب هو الشمس الذى يبقى نورها لا ينطفىء . واللذة الحسية هى الحرائق التى تكون لها دخان والدخان يشمه كل الناس ، وتتوهج الحرائق وتحرق وتخرب ولكنها تزول لا تبقى . وإنما الذى يبقى بعدها هو التراب الأسود . فالحب هو الذى يبقى .. الحب هو الخيط الذى يمسك حبات الحياة : ولولا هذا الخيط لانفرطت وتفرقت هنا وهناك ..

والحب الواقعى يتكون من عدة عناصر هامة جدا . وكثير من الناس يشعرون بها ولا يعرفون أسماءها ..

وهذه العناصر هى : أولا : الفهم السليم لما يشعر به الإنسان . هل هذا الذى أشعر به حب ، أو حالة اشتباه فى حب ؟ هل هذه الظروف التى تم فيها الحب ظروف عادية أو غير عادية ؟ هل هذا الحب نتيجة غيرة زائفة ، كالحب بين التلامذة .. إنه حب تخلقه المنافسات الصغيرة بين الطلبة والطالبات . هل هو حب نتيجة خوف ؟ والحب الذى يلده الخوف تقتله الطمأنينة ، فعشرات الممرضات قد تزوجن من المرضى ولم ينجح هذا الزواج الا نادرا . فالمريض قد رأى فتاة بيضاء فى ملابس بيضاء كأنها ملاك بين السحاب ... ومد يده ، ومد قلبه .. ثم مد نفسه كلها . وتزوجها وهذا الحب قد ولد فى الخوف . فلما خرج من المستشفى واطمأن وأحس أنه لم يعد مريضا وأنه لم يعد فى حاجة الى ممرضة .. تركها ... وعشرات من المضيفات قد تزوجن من الركاب . فالراكب فى الطائرة خائف مرتجف ، يريد أن يتعلق بخيط من خيوط الحياة ، ويجد المضيفة لطيفة شجاعة تبتسم دائما ، ويجدها تسعفه بالماء والطعام وحبوب النوم . ويمد يده ولا يزال يمدها ويمدها حتى يبلغها ويناها ويتزوجها . وعندما يهبط إلى الأرض وتطمئن نفسه وتستقر قدمه وجسمه.. وينظر إليها فيجدها شيئا آخر ، فيتركها .. فالحب الذى يتولد فى الهواء تقتله الأرض !

وثانيا : الإيمان بالتغير . فالذى يحب حبا واقعيا هو الذى يعرف أن كل شيء يتغير . أن كل شيء ينمو ويكبر . فالحب طفل صغير ناعم حلو . كلامه جميل وحركاته سعيدة .. ولكن هذا الطفل عندما يكبر وتظهر له أسنان يصاب بأمراض الأطفال ، فإنه يكون مصدر شقاء وتعاسة . والإنسان الواقعى هو الذى يعلم هذا مقدما ويعد العدة لاستقبال

كل تغيير والترحيب به ، فهو يعلم أن الحب سيصاب بفتور ، وأن الحياة الزوجية سينطفىء اللمعان فيها ، وتبلى فساتينها الجديدة ، وأن حياته ستتحول من الفيلم السينماسكوب الملون إلى فيلم عادى ملون ثم إلى فيلم بلا ألوان .. ثم يتحول الفيلم إلى برامج إذاعية نسمعها ولا نراها .. ولكن الرجل الواقعى المجرب هو الذى يستطيع أن يحول البرامج إلى فيلم سينماسكوب ملون .. وهذا يحتاج إلى مجهود كبير منه .. ومنها .. أى من الحبيبة أيضا .

ثالثا : الاحترام . ففى الحياة الزوجية أو فى الحياة العاطفية الواقعية كثير من الملل ، والملل يدفعنا إلى الهرب أو العدوان . فالذى يمل إنسانا يهرب منه ، أو يثور عليه ويقسو فى ثورته فإذا تصورنا أن هذا الملل يصيب الزوج والزوجة ، وأن هذه الثورة تجتاح الزوج والزوجة وأنهما مرتبطان برباط قوى هو الحب ، أحسسنا بأن الموقف صعب . وأن الموقف متفجر وأن الزوج يجب أن يكون أخصائيا فى تفجير هذه القنابل دون أن يصاب أحد بأضرار .. دون أن يصاب هو أو تصاب زوجته وأولاده بأية خسائر ولو طفيفة .. ولا شىء يقضى على هذه المتفجرات إلا الاحترام المتبادل بين الزوجين . فالزوج الذى يحترم تطور زوجته وتغيرها ويحترم ضعفها ويحترم متاعبها هو الذى يفلح دائما فى أن ينحنى للعاصفة حتى تمر ، إن الاحترام هو «طوق النجاة» الذى يعلقه الزوج فى عنقه وعنق زوجته ، لكى ينجوا من الغرق .

والاحترام فى الحياة الزوجية يشبه تماما الأوكسجين فى الهواء .. فلولا الأوكسجين ما احترق عود كبريت واحد فى أى مكان فى العالم .. وإذا انعدم الأوكسجين أظلمت الدنيا كلها .. وأظلمت الشمس أيضا .. والاحترام هو العدو الحقيقى للظلام والسحب السوداء التى تتسلل إلى

الحياة الزوجية . والاحترام هو المصيدة التى لا تخطىء أبدا فى اصطياد فئران الشتاء والظلام فى حياة كل زوجين .

والاحترام والاهتمام توأمان ، إنهما طرفان لخيط واحد ، وفى هذا الخيط كل حبات الحياة الزوجية . فإذا انعقد طرف هذا الخيط أصبحت الحياة متماسكة . أما إذا كانت الحياة بلا احترام ولا اهتمام ، أما إذا كانت تقوم على الاحتقار وعدم المبالاة أو عدم الاهتمام أصبحت الحياة مستحيلة فالاختصار والمبالاة هما كطرفى المقص لا يجتمعان إلا ليفترقا .. فالمقص إذا اجتمع طرفاه ، كان التمزيق والتفريق والحياة الزوجية التقاء واتفاق .. وعناق وقبلات ودفء وطمأنينة لقلبين كبيرين وقلوب أخرى صغيرة ..

والحياة الزوجية الناجحة أساسها الثقة بالنفس .. والاعتماد عليها ، بلا مبالغة ولا مغالطة تماما كهذا الفلاح الصينى الذى لا يملك إلا محراثا وإلا ثورا .. وإلا فهما حسيا واضحا لكل ما يريد ! .

لعبة غريبة

الزواج علاقة معقدة جدا ، بين رجل وامرأة ، والذى ينظر إليها من الخارج يجدها بسيطة وسهلة جدا . يرى أن شابا ضاحكا فى ذراعه فتاة ضاحكة ، يتقدمان صفا طويلا من الناس السعداء . وبعد لحظات يختفى العروسان . وكلنا نعرف أين ذهبا ولماذا .. والذى يرى أيضا الطيار الذى أطلق القنبلة الذرية يجد أن الأمر بسيط جدا وسهل جدا ، يرى طائرة تقطع المحيط من أمريكا إلى اليابان وترتفع عاليا ، ونرى أن هذا الطيار ينظر إلى الأرض اليابانية ثم يضغط على زر صغير جدا ويعود إلى أمريكا . وعلى الأرض تندفع نيران لم تعرفها الإنسانية ويموت مئات الألوف فى ثانية واحدة . بسيطة جدا وسهلة جدا . وفى استطاعة أى إنسان أن يعملها .

فمن السهل أن يتزوج أى إنسان ، ومن الصعب أن يحتفظ بحياته الزوجية ، ومن الصعب جدا أن يكون هو سعيدا ، ومن الصعب جدا جدا أن يكون سعيدا وتكون زوجته كذلك !

فالحياة الزوجية هى فرن له درجات حرارة عالية ، وهذه الحرارة تلوى كل شيء ، وتبخر كل شيء . وكثير من الأحلام والآمال «تشيط» من شدة الحرارة وتتلخبط لأن الزواج قد انشغل عنها بأشياء أخرى .

والحياة الزوجية تتطلب من الزوج أن يكون طاهيا وخابزا وزوجا وأبا ماهرا دائما وفى وقت واحد وفى كل وقت . مع أن الزوج لا يعرف الزوجة ولم يسبق له أن شاركها طويلا فى طعامها وشرابها ونومها وأولادها ومتاعبها . وهذه «المشاركة الطويلة» هى التى تغير لون كل شيء وطعمه ، ومعناه ، وهى التى تجعل الزمن بطيئا كأنه يمشى فى الوحل ، وتجعله سريعا كأنه ينزلق على الرخام .

ومطلوب من الزوج أن يذوق الطعام ، ويعرف إن كان ينقصه الملح أو السكر ، وأن يتولى ذلك بنفسه دائما كل يوم . ويجب أن يعجب هذا الطعام زوجته دائما ، وإلا اتهمته الزوجة بتلك التهمة الخالدة ، بأنه تغير بسرعة ، وأنه لم يعد يستطيع النظر إليها أو الجلوس إلى جوارها ، أو حتى يطيق أن يلمس يدها ، ولم يعد يطلب منها كما كان يفعل فى شهر العسل أن تمشى أمامه وتروح وتجيء ليرى فستانها الجديد . وهى تعرف وهو يعرف أنه ليس الفستان الذى يعجبه ولكن خصرها وأردافها .. كل ذلك تقوله الزوجة لأن الزوج نسى أن يضع بعض الملح أو السكر .. أو لأن الزوج نسى شيئا صغيرا جدا . فالزوجة أو المرأة عادت تتذكر الشيء الصغير ، وتنسى الشيء الكبير . والرجل ينسى الصغير ، ولا يذكر إلا ما هو كبير . فإذا اشترى الرجل فستانا لزوجته بمائة جنيه من أحسن محلات القاهرة . وقدم لها الفستان بكل تواضع واحترام وأضاف إلى هذه الهدية قبلة فى كتف الزوجة أو على خدها ، أو فى عنقها .. ونظرت الزوجة إلى الفستان مرة ومرتين . وفجأة تنقض الزوجة كما ينقض الصقر على عصفور صغير فتجد بقعة صغيرة جدا فى حجم رأس الدبوس ،

فإن هذه البقعة تشغلها عن الفستان وعن الزوج وعن الهدية وعن المناسبة وعن كيف حصل الزوج على الفلوس وكيف اشتراه . كل ذلك تنساه الزوجة ، ولا تذكر إلا البقعة ، وتتسع البقعة وتتسع أيضا ، حتى تشمل الفستان كله . وبعد ذلك يصبح الفستان وكأنه فوطة المطبخ لا تستطيع أن تلبسه ، ويصبح الزوج «غلطانا» لأنه اشترى هذا الفستان دون أن تكون هى معه ، مع أن الزوج أراد أن يفاجىء الزوجة بهذه الهدية وتنسى الزوجة هذه المفاجأة مع أنها منذ أيام أو أسابيع كانت تتهمه بضعف الذاكرة وأنه ينسى أعياد ميلادها وزواجها وزفافها وخطوبتها واليوم الذى رأى وجهها فيه .. وأنه ينسى المفاجآت السعيدة التى يقوم بها دائما !

هكذا .. إنها علاقة معقدة بين اثنين مختلفين تماما .. إن الزواج رحلة طويلة .. رحلة يستخدم فيها القطار والباخرة والطائرة والأحلام ، وكثير من الناس يخطئون فيركبون القطار وهم يعبرون المحيط فيغرقون ، وبعضهم يحاول المستحيلات لكى تطير الباخرة إلى ما وراء السحاب .. والزواج رحلة يختلف فيها التوقيت من بلد إلى بلد إلى بلد ، ومن عاطفة إلى عاطفة ومن يوم إلى يوم .. فالزوج عليه أن يراعى فروق التوقيت .. فإذا كان فى «لندن» يجب أن يقدم ساعته ساعتين . وإذا كان فى «نيودلهى» يجب أن يؤخرها ساعتين . ولندن ونيودلهى هما الزوجة . ومهمة الزوج أن يضبط ساعته وعواطفه على الزوجة ، أن يتقدم ويتأخر من أجلها .. او بعبارة أخرى يجب أن ينظم خطوته معها . فإذا كانت الزوجة ترقص تانجو ، فلا يجب أن يرقص الزوج رومبا .. وإذا كانت الزوجة نائمة مرهقة وتفضل الهدوء والتأمل ، فليس على الزوج أن يرقص روك أندرول .. يجب أن ينظم خطوته ولهفته وعواطفه كلها مع الزوجة دائما ..

وإلا كان الزواج معناه الارتباط بمقتضى وثيقة الزواج ، والانفصال بمقتضى العواطف ..

فالزوجة ، كانت قبل الزواج موظفا بمكافأة ، أما بعد الزواج فهى موظف له درجة ، ويجب أن تتقاضى علاوات كل عام ، بل كل شهر ، بل كل يوم .. وأن تكون هذه العلاوات من القبلات والاهتمام والحنان ، وإلا كان الزوج أنانيا ، وكان بليدا لا يفكر إلا فى نفسه ، وإلا فى أن يكون أنيقا أمام الناس ، لطيفا مع كل امرأة أخرى .. أما هى فلا ترى إلا تكشيرة وجهه ولا تشم إلا رائحة عرقه ، ولا تسمع إلا شخيره ولا تحس إلا بأنه لوح من الثلج فى عز الشتاء !

والزواج هو مباراة .. فى كرة القدم أو كرة اليد أو كرة الماء .. هذه المباراة يشترك فيها الزوج والزوجة معا . يوميا . ولكنها مباراة غريبة جدا . لأن الزوج والزوجة يجب أن يلعباها وأن يكسباها أيضا . ويجب أن تنتهى المباراة بأن يقف الواحد منهما ويمد يده للآخر وينحنى أمامه قائلا : أشكرك يا كابتن لقد كنت رائعا !

ولو انهزم الزوج أمام الزوجة . لغضبت فهى تحب اللاعب القوى الذى لا يقهره أحد . وهى تحب أن يقهرها زوجها ، لأنها تجد لذة فى أن تنهزم أمام الرجل الذى تحبه . وتجد لذة فى الإحساس بالنصر ، بنصر الرجل الذى تحبه . ولكنه إذا انهزم ، حتى لو كان ذلك من أجلها ، فهى ترى أن هذه رقة لا لزوم لها ، ومجاملة لا ضرورة لها ، ولا بد أن الزوج لم يكن متحمسا للعب معها . ولو كانت هى فلانة أو علانة لكان لعبه بنفس مفتوحة وراح وجاء كالأسد فى الملعب .

وإذا هزمها الزوج فى الملعب . فإنها تغضب أيضا فهى تعرف أنه قوى وأنه قادر على أن يهزمها ويمسح بها الأرض ولكنها كانت تفضل

أن يكون زوجها له روح رياضية ، فيتسامح وينتظرها صابرا حتى تغلبه ، وحتى تظهر قوتها على الأقل . ولكنه لا يجب أن تكون زوجته قوية ، إنه يريدها ضعيفة ، جزمة قديمة يلبسها عندما يريد ، وينزعها من قدمه عندما يريد ، وفى عبارة واحدة : لقد غضبت الزوجة لأن زوجها قد انتصر عليها انتصارا ساحقا ..

أرأيت أن العلاقة بين الزوج والزوجة صعبة ؟

أرأيت أن الزوجة تفرح وتغضب إذا كان زوجها قويا ؟ وإذا كان زوجها ضعيفا وكانت هى أقوى ، فإنها تفرح لأنه يجاملها وتغضب لأنه لا يلعب بنفس مفتوحة !.

والحياة الزوجية هى عبارة عن شركة من نوع غريب أيضا . فنحن نعرف أن بعض الممثلين يدخل فى شركة سينمائية لإنتاج فيلم من الأفلام ولا يدفع مليما واحدا . وإنما يقول : سأدخل بالمجهود الذى أبذله فى التمثيل فقط . ومعنى ذلك أن هذه شركة يدخل فيها الممثل دون أن يدفع شيئا وكذلك الحياة الزوجية شركة غريبة . يدفع فيها الرجل رأس المال ، أما الزوجة فتدخل فيها بالمجهود ، تدخل فيها بحلاوة قوامها وكلامها وطعامها وأحلامها وأوهامها .

وفى أول اجتماع لمجلس إدارة هذه الشركة ، نجد أن شهر العسل ينتهى بأن تصبح الزوجة هى صاحبة البيت وكل ما فى البيت ، وصاحبة المال ، ولها حق فى أموال مقدما وأموال مؤخرا ولها نفقة إذا انفصلت عن الزوج ويصبح الزوج هو الشريك بالمجهود فقط .

أما هى فصاحبة المال ، وأما هو فصاحب المجهود .

* * *

ولا تخفى الزوجة بعد ذلك عن زوجها أنها كانت مغشوشة وأنها

كانت مخدوعة، وأن الزواج علقة، وأن الزواج كشجرة المشمش . ظاهره حلو طرى وداخله جاف مر ، وأن زوج فلانة أحسن منه ، وأن زوج علانة أجمل وأكرم . وأن كل أزواج الأخريات أحسن من زوجها . أما هى فلا عيب فيها ، وكل العيوب فى الزوج فقط . وتصبح هذه النغمة هى العلامة المميزة لكل حياتها الزوجية ، أو الماركة المسجلة لهذا البيت كله .

وهناك مثل يقول : زوج غيرى ، أحسن من زوجى ، ولكن فستانى أحسن من أى فستان . ومعنى ذلك أنها هى لا عيب فيها . أما الذى كله عيب فهو الزوج . لماذا ؟ !

أعتقد أن السبب هو أن الزوجة تقف متفرجة فى هذه المباراة ، متفرجة لا تتحمس وإنما متفرجة شامتة . مهمتها أن تحصى أخطاء الزوج وترويها لأقاربها وصديقاتها .. مهمتها أن تفضح الزوج ، مع أنه زوجها وأبو أولادها . فالزوجة بدلا من أن تكون فى أرض الملعب ، تروح وتجىء وتجمع الكور وتصوبها هنا وهناك ، فإنها تنتقل إلى صفوف المتفرجين وتقول لهم : «انظروا ... دا حتى رجليه ناشفه .. وشعره أكرت.. هوا .. أنا كنت اتعميت .. والله ما كنت أعرف أن دى نهايتى .. يا أختى بلا نيلة !»

ويدخل الحياة الزوجية شىء مخيف جدا اسمه الملل .. والملل هدوء فارغ أو فراغ بليد ، ولا وسيلة إلى مقاومته إلا بنوم النهار أو بأحلام النهار ، أو بأن يسند الإنسان ظهره إلى الحائط ، ويحملق فى لا شىء .. ويحس الإنسان أن كل شىء غبى . وأن حياته كالساعة الفارغة التى تحتاج إلى أن تملأها ، فتملؤها بالقراءة والكتابة وكثرة الأكل وكثرة الشراب ، والهرب .. والملل إفلاس فى كل شىء جديد .. فالإنسان يعانى الصمت

الذى يلغى وظيفة اللسان ، والهدوء الذى يوجع الآذان ، والقرف الذى يميت كل وظائف الحياة ..

والحياة الزوجية كالبسكليت التى ندفعها بأرجلنا إلى الأمام .. فإذا لم نحرك أرجلنا ، فإنها لا تنتقل وهى لا تحرك برجل واحدة ولكن برجلين ، وقلبين ، لأنها ليست ملكا لواحد ، وإنما لاثنين ، اشتركا فيها برأسى مال وبمجهودين ، وفازا فى المباراة معا !

هارب من الأيام

لم أسأل صديقي هذا عن حاله ولا ماله ، ولا عن أبيه ولا عن أمه .. وإنما هو الذى فاجأني بعبارة غريبة وقال : يا أخي البنت دى غلبتني . جعلت منى قطة تمشي جنب الحيط . والله غلب حمارى .

وكان لا بد أن أسأله عن «البنت دى» ولم ينتظر طبعا أن أسأله وإنما مضى يقول : أنت تعرفها .. يا سيدى أحببتها . وهي أحبتني أيضا . ولكن يا أخي لا نتفق على شيء أبدا .. إذا قالت : الشرق .. وقفت وقلت : الغرب .. إذا قلت لها : هيا بنا إلى السينما .. قالت : إننى مريضة وسأبقى فى البيت ..

وقال : وفى يوم بل في أيام طويلة جدا قررت أن أعرف إن كانت تحبنى أو لا تحبنى . وسألتها : اسمعى يا بنت الحلال . أنا أريد أن أعرف بصراحة . هل هذا الكلام الذى تقولينه كذب أو صدق . أنا قلت رأيى فى خلال خمس سنوات أو ست سنوات إننى أحبك . ولم أتردد فى أن أقول هذه الكلمة على فمى وقلبي وحياتى .. ونومى ويقظتى

وبدموع الحزن وبدموع الفرح .. بكل ما أملك من تعبير قلت لك : إننى أحبك .. ومضت بيننا حوادث ومصائب ولا ذنب لك فيها جميعا. وكانت هذه المصائب مزلزلة لى ولك . ومع ذلك كنت كالغريق الذى اختفى رأسه تحت الماء ولكنه رفع يديه ولم يطلب من أحد أن ينقذه حتى أنت .. وإنما علق فى يديه ورقة مكتوبا عليها : إننى أحبك .. وأنا لم أندم على شىء مما قلته لك ، ولا فعلته لك ، إن كنت قد فعلت شيئا . فالذى يحب لا يذكر شيئا مما فعل . إنه يقول ويفعل دون وعى منه ، إنه يتنفس والإنسان لا يستطيع عد أنفاسه ولا يدرى بها دائما .. وأريد أن أعرف ماذا تخفينه وراء وجهك الباسم دائما ، أو الذى جمد على الابتسام ، أو الذى مات عليه الابتسام .

وقلت : ولكن ما الذى جعلك تطلب منها هذا أخيرا .. ألست تعرفها منذ البداية ؟ هل هذا التغير فى سلوكها جديد عليك ؟ ألم يحدث أنكما تشاجرتما ، ألم يحدث أن هددتك بالفراق ؟ هل طلبت إليك أن تتخلى عنها ؟ هل طلبت إليك أن تتركها وسبيلها ؟

قال منفعلا : أنتظر يا سيدى . صبرك . سأقول لك كل شىء . لقد طلبت منى أشياء غريبة جدا .

طلبت منى أن أتركها نهائيا . لماذا ؟ لأنها تحبنى ولان حبها لى يعذبها . إنها تريد أن تهجرنى لأن حبى يثقل عليها ، وهى تريد أن تستريح من هذا الحب ومن صاحب هذا الحب . هل يحدث هذا فى الدنيا ؟ هل أصدق أن هذه الفتاة تحبنى . أريد أن أعرف منك الفتوى . ومع ذلك لم أناقشها . وإنما قلت إنها انفعالات وثورات عابرة . وأكثر من ذلك فقد أقفلت التليفون فى وجهى عشرات المرات . وأكثر من هذا . لقد حدث أن كانت تركب الى جوارى . هل تعرف ماذا فعلت ؟ طلبت

منى في قلب ميدان التحرير أن أفتح باب السيارة لأنها تريد أن تنزل .. وفعلت ذلك عشرات المرات . وجعلتنى أضحوكة لكل السيارات التى ورائى وأمامى .. هل تصدق أن هذه فتاة تحبنى ؟ هل تصدق أن هذا هو الحب؟ وإذا لم يكن هذا كراهية وسخطا وحرصا على أن تسخر منى وتجعلنى مهزأة للناس ، فأى شىء إذن هذا ؟ ومع ذلك أغمضت عينى على هذا الشوك وجعلت أبكى وحدى ، وأحبس دموعى حتى أصبح هذا الشوك حيا فى عينى .. ولم أعد يا سيدى أستطيع آن أفتح عينى فيها . إنه الشوك الذى ملأ عينى ، وانتقل إلى قلبى وإلى حياتى كلها .. ولكن هل اكتفت هى بهذا القدر ؟ أبدا ! لقد طلبت إلى فى يوم أن أقابلها . وكانت لهجتها مخيفة وقابلتها . لم أنطق بكلمة فأنا أتوقع هبوب العواصف. وعندنا فى الصعيد عندما تهب العواصف فإنها ترمينا بالعقارب والثعابين . وكانت عواصف صعيدية فعلا .. لقد صرخت فى وجهى وألقت ببعض الهدايا المتواضعة جدا التى قدمتها لها .. ألقت بها فى الشارع .. والسيارة تنطلق . وأعلنت بصوت صريح لا أنساه .. أبدا .. إنه يرن فى أذنى وهى تقول : أكرهك .. أكرهك من صميم قلبى .. أكرهك ..

ورأيت الكراهية فى عينيها .. رأيت معنى كلامها كله .. فى وجهها فى صوتها وفى باب السيارة الذى انفتح وأقفل فى وجهى أمام كل الناس.. هل تريد أمثلة أخرى على هذا النعيم الذى أعيش فيه .. ألم يكن ضروريا أن أسألها بصراحة ما الذى جعلها تتغير هكذا !؟ كان لا بد أن أسألها . وسألتها ..

ثم سكت طويلا والحيرة على وجهه وأشعل سيجارة وقال : والله يا أخى كرهت الحياة وكرهت الدنيا وكرهت الصدق وكرهت الإخلاص والوفاء .. كرهت كل شىء جميل . كلما سمعت كلمات الحب والعطف

والقلب والصفاء ، فإن شعر رأسي يقف .. ولاأدرى كيف أكون شريرا ، كيف أكذب على كل امرأة ، كيف أنتقم من الفتيات البريئات. كيف أنتقم لنفسى من هذه الفتاة ومن كل فتاة ليتنى فعلت ككثير من الشبان . اختصرت الطريق وعرفت فتيات الليل ، وعرفت السفالة والانحطاط ، ليتنى فعلت ولكن لم أستطع . إن أحدا لا يصدق أبدا أنى طيب وأنى مستقيم وأنى لا أكذب. لا أحد ، حتى هذه الفتاة التى أحببتها ست سنوات يوما يوما ، وليلة ليلة .. لقد شهرت إفلاسى . لم أعد أملك شيئا . إن قلبي أصبح كالبنك الذى سطا عليه اللصوص . لقد حطموا خزائنه ونوافذه وأبوابه .. وتركوه بنكا ولكن بلا رصيد .. أعود فأقول لك . إنى سألتها : هل تحبيننى .

فقالت نعم .

قلت : إذن ما الذى غيرك هكذا ؟ ما الذى حدث ؟ لماذا تنتقمين منى ، كما لو كنت عدوا لك ؟ لماذا ؟

وأجابت : أنت تعرف !

وتطلع ناحيتى من جديد وسألته : ما هو السبب ؟ لا بد أن لديها أسبابا معقولة ؟ إنى أرى أنها تحبك . وأنت تحبها . ولكن لكل واحد منكما طريقته فى الحب .. أنت تحبها عابدا مصليا ، وهى تحبك ثائرة قاسية .. فما هو السبب ؟

قال : والله هذا كلام عيال .. وشغل عيال فى عيال .. وأنا لا أدرى ما الذى أوقعنى بين هذه الشباك الناعمة الكاوية ..

قلت : ما هى أشغال العيال هذه ؟ هل طلبت إليك أن ترقص معها وأنت لا تعرف الرقص ؟ هل طلبت إليك أن تخرج بالقميص والبنطلون وأنت حريص على أن تخرج بالجاكتة والكرافتة ؟ هل طلبت إليك أن

تنام تحت نافذتها طول الليل لتراك عندما تنام وعندما تقوم ؟ هل طلبت إليك أن تحلق شاربك وتضع البريانتين فى شعرك ؟ ماذا طلبت منك ؟

قال ، وكأننى عرفت بعض ما فى نفسه : كل هذا الذى قلته أنت ، قد طلبته منى . وأنا الآن فى الخامسة والثلاثين من عمرى وهى فى العشرين من عمرها . إنها شابة صغيرة حلوة وأنا رجل لم أعد شابا . ولا أستطيع أن أتعلم الرقص الآن ، ولا أستطيع أن أهز وسطى الغليظ الذى امتلأ من كثرة القعود ، ولا أستطيع أن أنزل إلى الشارع ببنطلون وقميص . فأنا رجل صعيدى . ولو رآنى أبى لمات لساعته . ولا أستطيع أن أزورها كل يوم .. كل يوم .. ولا أستطيع أن أصبر على النكت التى تقولها عنى أمام صديقاتها .. لا أستطيع .. إننى إذا سرت إلى جوارها ظن الناس أننى أبوها .. طبعا أنت ترى أننى تغيرت .. لقد حلقت شاربى وسويت شعرى ، ووضعت منديلا أحمر وكرافتة زرقاء .. إننى بغبغان أمامك .. لكى ترضى عنى . ولكن يا أخى أنا لا أفهم كم ساعة تتكلم ؟ كم ساعة بالعشر ساعات ! عشر ساعات .. لا أكل ولا شرب ولا نوم .. هل فكرت فى أى شىء تتكلم .. تتكلم عن الحب والبعد وعن الحنين وعن أيام الخطوبة وأيام الزواج وعن شهر العسل .. وعن الليلة الأولى .. ولون السرير ولون الستائر والضيوف وعن أولادنا .. واسم الولد الأول .. واسم البنت الأولى .. وهل أنا أحب البنات أو أحب البنين .. وآه يا وليلى وسواد ليلى إذا حدث تثاؤب فى التليفون .. الله أكبر .. يرتفع صراخها إلى السماء وتلعننى وتعلن الأيام التى أوقعتها فى هذا الحيوان .. كل يوم نتكلم عن الليلة الأولى .. وعن الليلة الثلاثين .. وكل يوم تبكى فى التليفون .. يا أخى قلبى انكسر .. وأعصابى انهارت .. ودموعى لم تجف وإذا قلت لها : متى سنتزوج .. صرخت كأننى عطست فى وجهها أو كأننى أوقعت على ملابسها زجاجة حبر .. وقالت : يا حيوان .. لماذا

توقظنى من أحلامى .. لماذا تسقطنى من السماء إلى الأرض فأرى وجهك الكريه ..

وسألته : كل يوم هذا الكلام .. كل يوم هذه الأحلام ؟ أو بعض الأيام ؟

قال : كثيرا من الأيام .

قلت : ومنذ متى بدأت السهرات التليفونية هذه ؟

قال : منذ عام كامل . ولكن هذا العام مضى وكأنه عشرات الأعوام. إذا دخلت البيت يحدث الآتى : أدخل غرفتى وأقفلها بالمفتاح وأمسك سماعة التلفون وأنام فى الفراش .. وبين الحين والحين يدق الباب أبى .. ولكن عندما لا يجد صوتا يرد عليه .. ينصرف . وأخيرا هل فكرت متى أتحدث إليها .. أتحدث إليها بعد منتصف الليل .. من الساعة الثانية عشرة صباحا حتى الساعة الحادية عشرة من نفس اليوم .. لم تكن ترانى.. لم تعد ترى وجهى أو تجلس إلى جوارى .. وإنما كل شىء فى التلفون .. فهل أستطيع أن أمضى هكذا نائما حالما واهما .. ماذا أفعل لفتاة أحبها وتقول إنها تحبنى ولا تريد أن تتزوجنى ..

قلت : هل تعرف قصة النسر والقرد ؟

فظهر الغضب على وجهه ، وأدرك أننى سأضحك أو سأطلق نكتة.. ثم قال : إيه بقى ؟

قلت : إنها قصة تحدث كل يوم فى أواسط أفريقيا .. فالنسر ينقض على القرد ويختطفه ثم يطير به إلى أعالى الفضاء .. وتدور معركة بين القرد والنسر .. والنسر يضربه بمنقاره ولكن القرد يضغط على عنق النسر بيديه وأسنانه وتنتهى المعركة بأن يموت النسر . ويظل القرد حيا ولكن فى السماء .. ويسقط القرد بعدها ميتا .. وتنتهى هذه المعركة العالية بموت

الاثنين معا . هذا يحدث كل يوم ، ولا يستغرق إلا ساعة أو ساعتين لا عشر ساعات ..

وضحكت ولكن لم يضحك صديقي وقال : مش فاهم حاجة ؟ يعني عاوز تقول إيه ؟

قلت : ستنتهي المعركة بينكما على هذا النحو : واحد منكما سيظل هكذا حالما غارقا .. حتى يضيق الآخر به وتنقطع هذه العلاقة .. فتتحطم أعصابكما معا ..

قال : برضة .. مش فاهم !

قلت : اسمع .. هذه الفتاة لا تحبك وإنما هى تحب أحلامها وأوهامها .. وهى تستطيع أن تحلم وتتوهم وتعيش هكذا مع أى إنسان آخر .. فيا أيها القرد اهرب بجلدك .. لا حياة لك معا .. أنا أعتقد أنها تتسلى معك .. وتستطيع أن تجد من هم أكثر صبرا وأقل «صعيدية» منك.. اهرب منها .. اهرب من أوهامها .. اهرب من الليل الطويل الذى تغطى به نهارك .. أنت لست صوتا فقط ، وحياتك ليست تليفونا وحسب .. أبدا .. اهرب منها .. وحتى إذا تزوجتها فالتلفون فى دمها .. ولا شىء يدعو إلى هرب الفتاة الحالمة ، أكثر من الحياة الزوجية . إنها تهرب من الواقع الذى لا تحبه ، إلى أحلامها وأوهامها السعيدة .. إن أهم قطعة فى جهاز هذه الزوجة هو التلفون ..

ولم يعجبه كلامى ولا سلامى .. وخرج من مكتبى أكثر غضبا وأكثر يأسا .. وعند نزوله من مكتبى ترك لى خطابا قال فيه : جئت لأخبرك أننى تزوجت هذه الفتاة . وأننى طلقتها بعد ستة شهور .. وقد جئت أنشد وساطتك بينى وبينها .. ولكنك لم تتركنى أكمل قصتى .. وأعتقد أن القصة قد كملت.. فلا حاجة إلى وساطتك .. فقد عدلت نهائيا.

المرأة عندما تشك

إذا «شككت» المرأة فى حبيبها أو فى زوجها فإن هذا الشك لا يقف عند حد ، ويمنحها الله خيالا ، «منطلقا» وتصبح عندها حكايات ، وهذه الحكايات لها ذيول ، وتروح تجمع القديم والجديد ، وما حدث منذ ساعات وما حدث منذ سنوات ، وتضع تهمة إلى جانب تهمة وتلقى بها جميعا فى وجه هذا الرجل ، ثم تحكم عليه حكما قاسيا هو تجريده من شرف المحب !

وتصرخ هى وتقول : أنت خائن ! أنت لا تستأهل حبى لك .. أنا أعرفك . لقد سمعت الناس يقولون عنك كذا وكذا ولم أكن أصدقهم ، والآن فقط صدقتهم ، وعرفت أننى مغفلة ، لأننى أحب رجلا كاذبا .. أنا عرفتك !

وكثير من الرجال يفاجأون بهذه الاتهامات ويجف ريقهم ، وترتعد أصابعهم ، ويتلمسون العون والمساعدة فلا يجدونها وينظرون إلى السماء

فيجدونها بعيدة . ويرفع الواحد منهم يديه يدق أبواب الله ويقول : أين رحمتك يا رب ؟ ماذا صنعت أنا .. أنا برىء ! .

هذا يحدث كل يوم فى الزمالك بالقاهرة وفى الحسينية بالمنصورة وفى أصغر قرى الصعيد ، ويحدث من فتاة تحمل شهادة الميلاد ، ومن فتاة تحمل شهادة الليسانس من قسم الفلسفة بأية جامعة مصرية !

* * *

.. أعرف صديقا طيب القلب ، ولا أظن امرأة فى العالم تطمع فى رجل أكثر طيبة وحبا لها منه .. وكان لا يخفى على زوجته شيئا ، وكانت هى لا تخفى عنه شيئا . إذا رأى قطا فى الطريق وصفه لها . وصف عينيه ولونه وذيله ورأسه ، وكانت هى تروى له كل يوم قصة المنديل الذى وقع من شباك الجيران والخلاف الذى دار بين الأطفال والأمهات !... وحياتهما كلها بهذه التفاهة ، وكلما كان حديث الزوجين تافها ، كانا سعيدين ..

وفى ذات أسبوع فوجىء صديقى بأن زوجته تتردد عليه فى مكتبه لأسباب غريبة ، لأن ضرسها يوجعها ، أو أن هناك وخزا فى جنبها الأيسر ، أو أن رجلها اليمنى ترتعد أو أن الجزمة فيها مسمار . ويطلب إليها زوجها أن تذهب للدكتور فترفض ويدهش لماذا تجىء إليه فى المكتب ، على غير عادتها ، فتروى له قصصا وهمية وتقول إنها خائفة من الموت ، وإنها تخشى أن يجىء إليها الموت وحدها .. وينزعج الزوج ويقول : قولى كلاما آخر .. أعوذ بالله .

وأخذ الشك يتحرك فى جوانب الرجل وجمع شجاعته وقال : إن فى الأمر شيئا .

— أبدا ... لا شىء !

وراحت السيدة تبكى بكاء شديدا ، ومدت يدها إلى حقيبتها وأخرجت منديلا على جانب منه بقعة حمراء باهتة وصرخت : هل تستطيع أن تقول لى ما هذا ؟ أحمر شفايف يا أستاذ .. من أين ؟!

وذهل صديقى وامتدت يده إلى المكتب أمامه وقدم لها القلم الأحمر الذى يكتب به منذ أكثر من ساعة والذى فرغ منه الحبر أكثر من مرة وهى جالسة ..

إنه أحمر ، ولكن بدون شفايف !

* * *

مرة فى الصباح ومرة فى المساء ، وحين لا يكون معها يطلبها فى التلفون ويقول : أنا هنا ومعى فلان سيكلمك !

ويعطى سماعة التلفون لهذا الفلان أو ذاك العلان فيطمئن قلبها ، إنه فعلا فى المكان الذى حدده لها .. وكانت هى الأخرى تفعل مثله تماما ، إذا انتقلت من بيت خالتها إلى بيت عمتها ، أو عند الحلاق أو عند الخياطة أو عند بائعة الورد .

إنه حب حقيقى ، سينتهى إلى زواج حقيقى ، لا أحد يشك فى ذلك ، لا هى ولا هو ..

وفى يوم من الأيام دعى الاثنان إلى حفلة ساهرة راقصة ، وجاءت إلى هذه الحفلة مضطربة لأن عقدها الجديد قد ضاع منها وأنها اقترضت عقد أختها .. وراح يداعبها ، فنسيت مأساة العقد وراحا يتنقلان بين المدعوين وتمتد أيديهما لمصافحة هذا وذاك والموسيقى تدق والأرجل تتحرك وتدخل فتاة سمراء طويلة شعرها أسود .. ونظر إليها صديقى ونظرت هى إليه وقالت : كان عقدى يشبه عقدها ! انظر !

ومال على أذنها يقول : اسمعى ..

ولم تنتظره حتى يكمل عبارته وانطلقت إلى خارج البيت تحمل حقيبتها وفراءها وتصرخ قائلة : أنت تعرفها .. أنت تعرف هذه الفتاة ياكذاب وتدعى أنك لا تعرفها .

وراح صاحبي يجرى وراءها ويقول :ـ والله لا أعرفها ولا أعرف اسمها .. هذه زميلة لى فى المكتب ! والخمر هى التى جعلتنى أخفى هذه الحقيقة .. أو هذه الكذبة البسيطة ..

وكانت هذه الزميلة فى المكتب قصيرة القامة حمراء العينين ، لا تساوى مليما ممسوحا ، وقد تعود أن يناديها باسمها ولكن الخمر هى التى جعلت اسمها يقفز إلى لسانه كما يقفز قشر اللب !

ولكن المرأة عندما تغار فإنها لا تفرق بين زميلة وزميل .. بين قطة وكلب وكتاب يقرؤه ! !

* * *

وهذه القصة الأخيرة سمعتها من زوجة بعد أن طلقها زوجها .. إنها الآن فى الخمسين من عمرها .. قالت : فى يوم كنت أنظر من النافذة بعد نزوله من البيت فوجدت سيدة تمد يدها إليه وتسلم عليه وينطلقان .. رأيت ذلك أربعة أيام متوالية . وكدت أجن . ورحت أسأل نفسى : هذا الرجل الطيب ؟ وفى هذه السن ويعمل هذا كله بالقرب من البيت ؟ هذا شيء غريب ! وقررت أن أمنعه من مقابلة هذه السيدة الشقراء ، بكل الطرق مهما كلفنى الأمر . وفى صباح اليوم التالى سألنى عن القميص ، فقلت له : الغسالة قد أخذت كل القمصان والجوارب . هل تعرف ماذا حدث ؟ إنه قرر أن ينزل إلى السيدة بالبيجاما والروب والشبشب ! ولما سألته قال : سأخبرك فيما بعد . فقلت له : لا داعى

لذلك . فأنا أعرف كل شيء . لقد رأيتك ! كنت أظنك عاقلا فإذا بى أراك طائشا فارغ العين لا تخجل من زوجتك وبناتك وأولادك ! ولكن زوجى لم ينطق وإنما نزل لمقابلة هذه السيدة ورأيتهما ينطلقان إلى حيث لا أعلم وحزمت متاعى وسافرت إلى المنصورة إلى بيت أبى. وبعد أسبوع عرفت حقيقة هذه القصة الغريبة .. لقد كانت هذه السيدة زوجة صديق له مريض بمستشفى الحميات . وليس له أحد فى مصر غير زوجته وغير زوجى . وأنا سيدة «موسوسة» أخاف أن أسمع عن أى إنسان مريض حتى ولو كان فى المنصورة .. وخشى زوجى أن يخبرنى بذلك .. لقد صدقته ولكن قلبي ظل يهتز بعيدا عنه ، حتى انفصلت منه بالطلاق .. !

هذا «الشك» حيوان صغير يولد فى لحظة ويكبر فيملأ القلب ويمسك المعدة ويسد النفس ويطلق اللسان ، ويجعل المرأة تفقد معظم حواسها .. وكل عقلها !

ويكون الرجل هو الضحية ..

أما الحب فقد عجنه وخبزه الشك .. واحترمه فى النهاية .. !

السعادة تسكن الفنادق

تلقيت خطابا من سيدة عجوز بمدينة فيينا تذكرنى فيه بنفسها وأولادها وأحفادها وحجرتى التى كنت أقيم فيها والشاى الأسود الذى كنت أطلبه دائما والزبدة التى كنت آكلها ليلا ونهارا .. إنها صاحبة لوكاندة صغيرة متواضعة وفى شارع الإمبراطورة «ماريا تريزه» وهو أطول شوارع المدينة إذ يبلغ خمسة كيلو مترات . !

قرات خطابها عدة مرات . إن هذا خطها المرتعش .. كتبته بعد أن جلست على مقعدها الخشبى ووضعت منظارها الغليظ وجعلت تسعل عشرين مرة وتتذكر النكت والأغانى المصرية التى كنت أغنيها لها .. وهى تضحك ولا تدرى مما أقول شيئا .. وأحسست وأنا أقرأ خطابها أننى أطير فى عوالم غريبة .. أو أننى أشهد فيلما سينمائيا صامتا أحيانا وناطقا وملونا و بارزا أحيانا أخرى ..

تذكرت أجمل وأسعد وأهدأ لحظات حياتى .. لقد كانت جميعا فى اللوكاندات .. فاللوكاندات هى أجمل شىء فى الدنيا .. إننى لا أكاد

أدخل واحدة منها حتى يدق قلبي وتنطلق أفكارى وتتخلى عنى جميعا ، كأنها حمام يفر منى عائدا إلى أبراجه .. وإذا كل فكرة تعتصم بحجرة من الحجرات ثم ترتمى على السرير وتسحب الغطاء فوقها وتستغرق فى نوم عميق . وأصبح أنا بلا أفكار وبلا قلب وبلا عقل .. أصبح هادئا خاليا .. فى إجازة من كل شيء من كل فكر ومن كل إنسان ومن كل قيد ومن كل عقل ومن كل قلب .. فالسعادة هى أن تكون خاليا من كل هؤلاء .. خاليا .. كأنك لا شيء !

* * *

جعلت أتذكر البيوت والفنادق الصغيرة والكبيرة التى نزلت فيها فى أوربا وضحكت من كل شيء .. ضحكت على نفسى .. فأنت عندما تنزل فى فندق لا تملك إلا أن تضحك .. كل شيء يبعث الراحة والهدوء فى نفسك .. كل شيء !

كنت فى مدينة «سالزبورج» بالنمسا أنزل فى بيت سيدة فقيرة . مات زوجها فى الحرب . ولكن هذه السيدة مثل عظيم للكفاح والبطولة .. فهى تقوم بكل شيء شريف من أجل أمها وأم زوجها وأولادها الصغار .. إنها تزرع حديقتها وتبيع الخضراوات .. وأما بيتها فقد امتلأت حجراته القليلة بالأجانب من الصين والسويد والنمسا وإيطاليا ومصر .. دخلت هذا البيت الصغير وألقيت بنفسى متعبا مرهقا على الفراش .. وأحسست أن شيئا صغيرا يلدغنى فى وجهى وفى رجلى .. واكتشفت بدون صعوبة أن هناك براغيث نمسوية .. وكانت مفاجأة عظيمة .. براغيث فى النمسا .. وفى مدينة سالزبورج التى ولد فيها موزارت الموسيقار العبقرى ! ..

وقلت فى نفسى لا بد أن النمسويين يستعينون على السهر بالبراغيث ،

لأن القهوة غالية الثمن .. وفكرت فعلا أن أحمل حقائبي وأترك هذا البيت الذى تسكنه البراغيث ... وأضأت الغرفة ووجدت لوحة على الحائط تقول : «إن السعادة ليست فى أن تكون مستريحا فى نومك أو فى طعامك . ولكن فى احساسك بالراحة ..»

ولكن أين هذا الإحساس يا ست هانم ...

تذكرت هذا وضحكت فقد أصبحت براغيث النمسا تجرى فيها دماء مصرية !

وتذكرت إننى قررت أن أحتفل بعيد ميلادى ١٨ أغسطس .. لا أدرى لماذا قررت ذلك مع أننى لم أفعل شيئا مثل هذا من قبل ! ولا أرى له سببا أو مبررا .. وكان ذلك فى مدينة فيينا ١٩٥٠ . وخرجت من لوكندة السيدة العجوز التى أرسلت هذا الخطاب.. وصدرى مرتفع وأنا أطل على الأعوام الأربعة والعشرين التى قضيتها من عمرى.. ودخلت أحد المطاعم فى ميدان الأوبرا.. وجلست إلى المائدة وأشرت إلى الجرسون فانحنى وكان سعيدا ضاحكا . كأنه يعلم بعيد ميلادى .. وطلبت طعاما وشرابا . وبعد لحظات حضر بعض أصدقائى .. وتجاورت المقاعد والمناضد ، وتوردت الخدود وتناثرت الابتسامات .. وكان عيدا حقيقيا .. وفوجئنا جميعا بان الأمطار قد هبطت بصورة مفاجئة لا مثيل لها .. وأطفئت أنوار المدينة كلها .. وتوقفت وسائل المواصلات .. وكانت الساعة الثانية صباحا .. وكان ذلك فى أول ليلة أقضيها فى عاصمة النمسا .. وتقدمت من أحد رجال البوليس أخبره أن بيتى قريب وأن ملابسى خفيفة وأن جسمى يرتجف كله وأننى لا أستطيع البقاء هنا .. فخلع الرجل معطفه الثقيل ثم حملنى فى سيارة البوليس إلى الفندق .. وجدت العجوز فى انتظارى حزينة .. فقد نفذت الأمطار من نافذة حجرتى .. ونمت فى

حجرة العجوز . وقبل أن أدخل الفراش .. أحضرت لى السيدة العجوز الطيبة هديتها وهدايا أحفادها الصغار . وضحكت بعد أن أغرقتنى دموع السماء فى فيينا ونمت فى فراشى هادئا حالما أتطلع إلى صبح عام جديد بعد أن ذهب العام القديم بهمومى ومرارتى وحافظة نقودى وساعة يدى !

ولكنى ضحكت .

وتذكرت الليلة الحالمة التى قضيناها فى مدينة «رابالو» بإيطاليا وهى أجمل مدينة صغيرة فى العالم .. إنها بالقرب من مدينة جنوه .. إن شاطئها الصغير ينحنى كأنه ذراعان تحتضنان البحر .. لقد استدرج هذا الشاطئ أمواج البحر ، وأنهك قواها ، فإذا هى ضعيفة مستسلمة .. زار هذه المدينة معظم شعراء أوربا وفلاسفتها الحالمين .. زارها الشاعر الإنجليزى شيلى ، ثم غرق بعد زيارتها .. وزارها الشاعر بيرون وقتل بعدها فى حرب اليونان ، وزارها الفيلسوف الألمانى نيتشه وأصيب بالجنون .. وزارها الشاعر الإيطالى ليبوردى وقرر أن يطلق حبيبته .. إنها تجربة عنيفة فى حياة الحالمين جميعا ..

ولا يمضى يوم واحد فى هذه المدينة دون أن تسقط الأمطار بعنف.. وعندما تسقط الأمطار تنطفئ أنوار المدينة ، والفندق الذى أنزل به وهو أغلى فندق نزلت به فى حياتى كلها .. فقد كنت أدفع ثلاثة جنيهات فى اليوم .. وقضينا ليلة كاملة فى ضوء الشموع الإيطالية الحالمة المرتجفة .. كانت ليلة لا يمكن أن أصفها أبدا . وقد حاولت أن أصفها أكثر من مرة فلم أفلح .. إنها لا تزال فى نفسى . ولن أتمكن من وصفها إلا بعد أن تبعد عنى آثارها .. لكى أراها من بعيد .. هل تستطيع أن تتصور عطورا مضيئة ؟ هل تستطيع أن تتصور ضحكات عاطرة .. هل تعرف كيف يمتزج الضوء بالهمس بالعطر بالفتنة بالخوف بالأمل بالنبيذ

بالموج ؟.. كل هذا كنت أحس به ولا أعرف من أين يصدر ومن أين يجيء .! كل ذلك يتزاحم على نفسى على قلبي على عقلى على وجودى كله .. !

لم يوقظنى من هذا الحلم شيء .. لا الرعد ولا البرق ، ولا الرياح التى تكاد تحطم الفندق .. ولكن همسات الجرسون يقول فى أذنى : سأضيف على الحساب عشرين جنيها !

لقد فتح هذا الرجل عينى بقسوة . فتحهما بسكين ، ولكننى أطبقت عينى ، وانفجرت شفتاى .. وضحكت !

* *

وفى مدينة ميونخ بألمانيا كنت أنزل بفندق بالقرب من كارلسبلاتس أى ميدان الإمبراطور كارل . وكان يقيم معى فى غرفتى شاب مصرى يدرس الآن فى إنجلترا . ولم نكن نتنزه معا أو نتعشى معا .. وإنما كنا نلتقى فى الصباح وحسب . وفى يوم أفهمنى هذا الزميل أن حجرتنا ضيقة وأنه يحسن بنا أن نغيرها . ووافقت ولا أدرى هل ذهب إلى مدير الفندق ليغيرها أم أنه اكتفى بهذه الملاحظة . وفى يوم كان يقام مهرجان كبير بالمدينة .. وسهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل .. كل شيء فى ميونخ يضحك ويغنى بصوت غليظ .. والأكواب مملوءة بالبيرة الشقراء والسمراء ، والأفواه مليئة بالسجق الألمانى الذى فشلت فى أن أتذوقه أو أحبه .. أو حتى أنظر إليه .

وفى آخر الليل عدت إلى الفندق . وأشار لى الجرسون أن حجرتنا قد تغيرت وأنها الحجرة رقم ٦ فى الدور الرابع .. وذهبت إلى حجرة جميلة مرتبة منظمة .. وتمددت على الفراش كى أستريح قليلا قبل أن أنزع ملابسى وأنام .. وفى الصباح سمعت جرس التلفون وسمعت صاحب

الفندق يروى لى النكتة الآتية .. وهى أننى أخطأت فبدلا من أن أذهب إلى الغرفة رقم ٦ بالدور الرابع ذهبت إلى الغرفة رقم ٤ بالدور السادس .. وأن هذه الغرفة كانت لأحد الأطباء الإنجليز . وأن هذا الطبيب وجدنى نائما فلم يشأ أن يوقظنى ونام فى غرفتى مع زميلى المصرى .. وأنه يحيينى ويطلب منى أن أدفع الفرق .. فهو قد استأجر غرفته بجنيهين أما غرفتى فإنها بجنيه واحد !

وأمضيت يوما كاملا وأنا أروى للناس كيف حدث هذا «الفصل» وهم يضحكون وأنا أضحك .. إنهم يعيشون فى الفنادق .

ويجب أن يعيش الإنسان ولو يوما واحد ، كل شهر ، أو كل سنة فى فندق.. فأنت فى الفندق لا ترى من الناس إلا من تريد ولا تسمع إلا ما تريد ولا تأكل إلا ما تريد.. ولا تعيش إلا كما تشاء.. إنك حر.. إنك الحرية نفسها .

* * *

والعالم الذى نعيش فيه هو فندق كبير .. وكلنا نزلاء وكلنا مسافرون وكل شىء سنتركه وراءنا. كما أترك السرير والفراش والمقعد والمرآة فى كل فندق أنزل به .. ولا أحد يملك شيئا ، ولن يملك شيئا ، كل هذا ينقل من يد إلى يد ومن رجل إلى رجل .. ولن يبقى فى يد أحد شىء ولن يبقى فى رجله شىء .. كلنا ضيوف وكلنا عابرون : فاجعل رحلتك فى هذا العالم خفيفة واندفع إلى الأمام بقوة الضحك ولو يوما واحدا فى كل شهر أو فى كل عام .. أضحك أنت.. فليتنى أستطيع ! .

زجاجة عطر ..

ألم يحدث لك أن تذكرت فجأة أشياء قد وقعت منذ وقت طويل ، ثم حاولت أن تجد سببا لتذكرك هذه الأشياء ، فلم تفلح ؟ أنا حدث لى ذلك .. فقد أحسست بأجسام غريبة طافية على سطح ذاكرتى ، فلم أتبينها أول الأمر . ورحت أقترب منها شيئا فشيئا ، ولم أكد ألمسها حتى انفجرت كالألغام وانطلقت منها هذه النوادر الثلاث !

كان ذلك منذ ١٥ عاما . وكنت تلميذا فى مدرسة دمنهور الثانوية . وكانت المسافة بين المدرسة والبيت عشرة كيلومترات .. أو على الأقل كنت أحس أنها كذلك فقد كنت أمشيها على رجلى معظم الوقت .. والآن عرفت إنها ثلاثة كيلو مترات فقط .. وفى أحد أيام الامتحانات فتشت فى جيبى عن أجرة الأتوبيس فلم أجدها ، فلا بد أن أسير على قدمى .. وظللت أجرى وألهث حتى بلغت المدرسة مرهقا مكدودا .. ولما قربت من المدرسة أخذت أمشى على مهل ، كأن بيتنا على مدى عشرين مترا من المدرسة .. ولكن قواى خانتنى ، ولم أفلح فى أن

أستر تعبي عن عيون الطلبة .. وكلهم وجوه نضرة ضاحكة ، وكلهم واقفون أمام المدرسة كما لو كانوا أمام إحدى دور السينما .. وعندما رآني الطلبة راحوا يتغامزون ويقولون : يا أخي حتموت نفسك .. كفاية مذاكرة .. كل ده علشان إيه .. يعني البكالوريا .!

وأدخل صالة الامتحانات مريضا متعبا .. وأنا أتمنى أن أنام .. فالنوم يريحني من الأسئلة الصعبة ، ومن الطلبة ومن تعب المشوار .. وعندما أمسكت ورقة الأسئلة في يدي ، أحسست بإغماء شديد ، وأخذت الدموع تنزل من عيني ومن أنفي ومن أذني .. وأحسست أنني غريق في بحر من المياه الساخنة .. وبكيت وبكيت كما لم أفعل في حياتي قط .. وكنت أحس زملائي يقولون للمدرسين : إنه أحسن تلميذ في المدرسة .. إنه الأول .. ولكنه يذاكر كثيرا !

وتزاحم المدرسون حولي ، وجاء الدكتور وسألني : مالك يا شاطر .. لماذا تبكي ؟

وأشرت إلى ورقة الأسئلة .. وكان امتحان مادة الرسم .. وكان السؤال الأول هو : ارسم زجاجة عطر صغيرة وبجوارها علبة بودرة !

وكنت لم أر زجاجة عطر أو علبة بودرة في حياتي كلها .. لم أر زجاجة عطر أبدا ، لا في بيتنا ولا في أي بيت آخر .. ولم يكد المدرسون يسمعون ذلك حتى أخذوا يضحكون ، ولكن الدكتور قال بصوت لا أنساه :

– يا أخي ده سؤال بايخ ومدرس سخيف ..!

وضحك المدرسون في صوت لا أنساه أيضا ، فقال بعضهم : يعني عاوز السؤال يقول له أرسم قزازة جاز أو قزازة زيت ؟!

وبعد لحظات عاد الدكتور وتهامس مع المدرسين ، وأخرج من

يده زجاجة صغيرة وقال : هذه زجاجة عطر .. أما علبة البودرة فارسم واحدة كهذه .. ولكن اجعلها مستديرة ..

ثم رفع زجاجة العطر وأدناها من أنفى .. إن رائحة الزجاجة لم أنسها حتى هذه اللحظة .. وكلما تذكرت رائحتها ، تذكرت الامتحان وضحك المدرسين وهمس الطلبة وصوت الدكتور وارتفاع الدمع إلى عينى ، ومعدتى إلى شفتى ...!

* * *

مرة أخرى ..!

كان ذلك فى مطار «أورلى» بباريس وجلست فى المطعم الصغير ، ورحت أرقب الشاشة الفضية لجهاز تليفزيون ينقل مباراة فى كرة القدم .. وكانت هذه أول مرة أرى فيها التلفزيون ، وبعد المباراة ظهرت المذيعة الجميلة وقد وضعت ذراعيها خلف ظهرها ، وقالت : إننى أخفى عنكم الشيء الوحيد الذى تجدونه فى كل مكان .. فى كل محل .. فى كل آجزاخانة .. فى كل فستان .. وراء كل أذن .. فى كل صدر .. ما هو ..؟ إنه عطر «مس ديور»..!

وكان هذا العطر جديدا فى ذلك الوقت .. وجعلت أتلفت إلى يسارى أبحث عن هذا العطر فلم أجد إلا جرسونا هائلا يلبس ملابس رجال السلك السياسى ويحنى هامته ويقول لى : أنا تحت أمرك ..

يا نهار أبيض .. إن الذى يملك قرشا يملك رقاب العباد .. وتقدمت إلى البائعة الجميلة ورحت أتفرج على الزجاجات . وكان عطر «مس ديور» الذائع الصيت .. وتقدمت البائعة وراحت تروى لى كيف أن عدد الزجاجات التى بيعت فى فرنسا وحدها قد بلغ مليون زجاجة فى شهر واحد .. ولم تكمل كلمتها حتى دق جرس التلفون ورفعت السماعة

وأخذت أتطلع إلى الزجاجات .. وسمعت الميكرفون يعلن عن قيام الطائرة إلى لندن فى مدى عشر دقائق وتذكرت أن حقائبي على الباب ، وأنني يجب أن أذهب إلى الجمرك ، وأن أتحدث فى التليفون أبلغ تحياتى لبعض الأصدقاء الذين لم يتمكنوا من توديعي .. كل ذلك دار برأسى ، وتذكرت فى لحظة خاطفة زجاجة العطر القديمة .. فسقطت الزجاجة من يدى إلى الأرض التى لا ترحم .. وتحطمت . وفقدت النطق والحركة ولم أدر ماذا أصنع .. وأعرب الجرسون الضخم عن أسفه مبتسما ، وأما البائعة فقد وضعت يدها على سماعة التلفون وقالت : أنا جايه حالا !

ولم أعرف ثمن الزجاجة .. ولو عرفت ثمنها ، فلن أستطيع أن أدفعه لأن باريس قد جردتنى من كل ما أملك وباريس تجرد الإنسان من كل شيء من أمواله وأخلاقه وصبره !

وتقدمت البائعة الجميلة وطيبت خاطرى قائلة : إن هذه الزجاجة مجرد أعلان وتساوى عشرة قروش !

ولم يكن معى مليم واحد من أية عملة فى العالم .. فمددت يدى إلى جيبي وأخرجت قلم الحبر الجاف وأعطيته لها .. فرفضت ، ولكن أنا أصررت على ذلك ..

وحمدت الله على السلامة .. ! وفى الطائرة جلست أفكر فى هذه الكارثة العطرة .. ومددت يـــدى إلى جيبي أخرج القلم .. فوجدت القلم الجاف .. واكتشفت أننى اعطيتها قلما آخر ثمنه خمسة جنيهات !

ومرة ثالثة :

وكان ذلك على ظهر الباخرة «أسبيريا» ورحلة البحر جميلة مريحة .. والسفر بالبحر تاج على رؤوس المسافرين لا يعرفه إلا الذين لم يبرحوا

القاهرة فى الصيف .. واكتفوا بالتصييف على بلاج روض الفرج ومنيل الروضة ..

وكنا فى الطريق بين البندقية ومدينة بارى عائدين إلى الإسكندرية .. الليلة مقمرة ، والنبيذ جميل والفيلم الموجود فى سينما المركب بايخ جدا .. ولكن المسافر يضحك دائما لسبب ولغير سبب .. وكانت هناك مباراة لاختيار ملكة جمال المركب ... وصفقنا جميعا لفتاة يونانية لها ضب ولكن ابتسامتها حلوة جدا ... وكان يشاطرنى فى حجرتى رجل يونانى فلم ينس هذه المجاملة اللطيفة .

وقررنا السهر حتى الفجر ، لنرى الشمس وهى تولد على صدور الأمواج والضباب الذى يبكى على الأعواد الحديدية .

وبعد الفجر بقليل شربنا القهوة ووقفنا على ظهر المركب .. واستعد الركاب جميعا لينزلوا فى مدينة «بارى» التى حطمها الحلفاء أثناء الحرب الأخيرة ، وما تزال بها آثار الغارات الجوية .. وفى الطريق إلى سوق المدينة رأيت صديقى اليونانى حزيناً على غير عادته ..

فسألته : مالك ؟ إيه الحكاية ؟

فقال : إيه رأيك فى الدنيا ؟

قلت : الدنيا حلوه !

– ولكن إذا خاب ظنك فيها أكثر من مرة فماذا تصنع ؟

– لا غرابة فى ذلك . فقد خاب أملى كثيرا ، حتى تعودت خيبة الأمل فى كل من أثق فيه .. ولكن الحياة مع ذلك حلوة !

– ولكن ماذا يصنع الإنسان فى ظروف كهذه ؟

– مش فاهم حاجة ؟

– يعني لو فرض أنك كنت تثق في إنسان وبعد ذلك اكتشفت أنه حاجة ثانية خالص !

– يا أخي هذا يحدث كل يوم .. الصديق يصير عدوا والعدو يتحول صديقا .. كل يوم .

– ولكن الإنسان يظهر أنه قادر على إخفاء عواطفه .. وهنا المشكلة !

– إيه الحكاية .. أنت النهارده بقيت فيلسوف !

– والله مش قادر أوضح لك !

لا بد إذن أن هناك مأساة جعلت من هذا الرجل الذي يبيع الخمور في بور سعيد فيلسوفا في إيطاليا . إيه الحكاية .. إن صاحبنا هذا ضعيف النظر جدا ، ولكنه مع ذلك لا يلبس المنظار إلا قليلا ، كان المنظار الغليظ يجعل شكله قبيحا .. ويظهر ، والله أعلم ، أنه أخطأ في وضع بعض ملابسه في إحدى حقائبي بدلا من أن يضعها في حقيبته هو .. لقد وضع بيجامة وفيها علبة حلاقة حقيرة جدا وبها قطعة صابون قديمة جدا .. وعلبة مقفلة عرفت فيما بعد أن بها زجاجة عطر من السيدة حرمه إلى السيدة حماتها .. كل ذلك قد وجده في حقيبتي .. فكانت هذه الفلسفة !

وكانت الشظية الثالثة التي انطلقت من هذا اللغم الذي كان طافيا على ذاكرتي في اليومين الماضيين !

حدثني عن شبابك

حدث هذا منذ خمسين عاما .. ذهب اثنان من علماء الآثار إلى أقاصي إيطاليا يبحثان عن التماثيل الرومانية القديمة . وكان أحدهما ألمانيا والآخر إنجليزيا .. وكانا صديقين .. ولكن يبدو أن هذه الصداقة ليست إلا قشرة لامعة فقط إذا ضغط عليها واحد منهما أصبحت باهتة أو سقطت بين يديه .

وقد حاول أحدهما ذلك . وكانت النتيجة مروعة ..

ففي يوم جلس الرجلان على صخرة كبيرة وراحا يتأملان البحر وأمواجه والهواء والضياء المتكسرة بعيدا بعيدا .. وفجأة التفت العالم الألماني وقال لزميله : إنك لم تحدثني عن شبابك ولا كيف اشتغلت بالآثار ، مع أنني حدثتك عن كل شيء .. رويت لك قصة أبي وأخوتي وأسرتي كلها . ولم أترك شيئا في حياتي لم أروه لك . وأنت ماذا وراء صمتك هذا ؟ أنا أعتقد أن هناك قصة غريبة .. وقد سمعت عنك وأنا في لندن أنك تحرص على أن تكون حياتك الخاصة سرا من الأسرار .

ونظر إليه العالم الإنجليزى وقال : هذا صحيح . ولكن ليس فى استطاعة أى إنسان مهما أخفى حياته ، أن يخفيها كاملة فلا بد أن يعرف الناس عنه وعن حياته شيئا .. لا بد .. وأنا الآخر لى حياة .. ولكنها حياة حزينة ..

وأخذ الألمانى يعتدل فى جلسته ويقول له : ألم تحبب امرأة قط ؟ ألم تتطلع إلى امرأة وقلت فى نفسك إن هذه المرأة لى .. ولا بد أن أتزوجها ألم تعجبك امرأة ؟

فضحك الإنجليزى وهو يلعب بأصابعه فى لحيته الصغيرة ثم قال : طبعا أعجبتنى فتاة ولا بد أنك رأيتها .. إنها تعمل فى المتحف البريطانى فى لندن ..

وسكت الرجل الآخر طويلا .. ولو كانت أضواء قوية لظهر الشحوب على وجهه وظهرت حركاته العصبية .. ولكن هذه الانفعالات كلها قد تولى إخفاءها ظلام الليل ، وهذه الحركات العصبية قد بددها النسيم البارد الذى ينفذ إلى الجسم فيشيع فيه الرجفة والقشعريرة .. واقترب منه الألمانى وقال له : أريد أن أعرف هذه القصة .. ما قصتك مع هذه الفتاة .. هل تقصد الفتاة « ماريانا » ؟

فأجاب الإنجليزي قائلاً : نعم . هى ولا أحد سواها .. فالفتاة جميلة ، كما تعرف . ومثقفة وكلامها ممتع وصوتها رائع ومهتمة بالتاريخ والآثار .

وسأله الألمانى : ماذا كان بينكما ؟

فأجاب : ماذا كان بيننا ؟ لا شىء . كنت أذهب كل يوم إلى المتحف وأراها من بعيد . وأحسب كل حركاتها . وقد عرفت عن وجهها كل شىء . وعن طعامها وشرابها وملابسها .. إننى أحفظها كما لو

كانت قصيدة جميلة . ولاحظت أنها تذهب إلى المتحف وتظل تكتب وتكتب كأن الدنيا ليس فيها شيء إلا القراءة والكتابة .. ولكنني لم أصدق أبدا أن مثل هذه الفتاة حياتها هكذا قراءة وكتابة وحضور منظم إلى المتحف .. دون أن يكون في حياتها شيء أو يكون في حياتها أحد .. ولكنني لم أصل إلى نتيجة .. وإنما ظللت هكذا أفكر فيها من بعيد .. ولم أحاول أن أسأل أحدا عنها .. فقد خشيت أن أسمع من الناس شيئا آخر غير الذي أعرفه .. خفت أن يصيبني كلام الناس بصدمة في أحلامي وخيالي وإعجابي .. وكلام الناس أكثره مبالغات ترضي حقدهم وحسدهم وكذبهم .. ولم أعرف اسمها إلا بعد شهرين من تطلعي إليها وتأملي لها .. بعد شهرين هل تتصور هذا ..

وسكت الإنجليزي طويلا .. وعاد يقول : لا أدري ما الذي جعلني أقول هذا كله .. إن قلبي ليمزقه الأسى على هذه الفتاة ..

وسأله الألماني : هل تركتها ؟ هل كان في نيتك حقا أن تتزوجها ؟

وضحك الإنجليزي مرة أخرى وقال : إن قلبي يمزقه الأسى لأنها صدقت كل ما قلت لها .. كنت أروي لها الشعر والقصص وأعرض عليها لوحاتي وأحدثها عن أمي وأبي وأخترع لها القصص والرحلات الوهمية .. وكانت تصدق هذا كله .. وأذكر أنني أخطأت في حكاية من الحكايات .. وقلت لها إنني أكذب عليك .. فامتقع وجهها ولم تتصور أبداً أنني أكذب عليها .. مسكينة هذه الفتاة .. مسكينة .

وزحف الألماني إلى جوار زميله الإنجليزي وقال : هل وعدتها بالزواج؟

فقال زميله : لم أعدها . ولكنها تخيلت أنني سأتزوجها . تخيلت أنني سأهرب بها إلى آخر الكرة الأرضية .. ولكن إحساسي طول الوقت هو أنها لا تحبني حبا كاملا .. إحساسي أنها كانت تعاني مشاكل

عاطفية أخرى .. أنها مرتبطة بإنسان آخر وأنها لا تدرى كيف تفلت منه.. فقد لاحظت عليها هذا الاضطراب وهذا القلق .. ولم أحاول أن أسألها فهذا الأمر لا يعنيني في شيء .. ولم أحاول أن أزورها في بيتها .. لم أحاول أن أعرف من هو أبوها ولا من هي أمها .. فلا أريد أن أزداد ارتباطا بها أمام أناس آخرين .. إنني أومن بهذه العلاقات البعيدة .. أحب أن تكون العلاقة التي تربطني بالناس ضعيفة واهية .. يسهل قطعها في الوقت المناسب .. وكذلك كانت علاقتي بهذه الفتاة ..

واعتدل الإنجليزى في جلسته وهو يروى هذه القصة وتساءل قائلا : وأنت ما الذى يهمك من هذه الفتاة .

فقال الألمانى : لا يهمني شيء .. إنما أردت أن أغير الحديث عن الأحجار والصخور التي أكلت عيوننا وشبابنا وحياتنا ولا تزال كما هي .. إننا هنا نعيش أحجارا تسعى فوق أحجار وجثثا حية تبحث عن جثث ميتة .. لا نرى الحاضر ، وإنما نفتش عن الماضى في الأرض وتحت الأرض .. نعيش بين القبور ، وكل شيء حى لا يهمنا ولا يثيرنا . وإنما يحركنا الموت ، وتسعدنا التوابيت .. هذه هي حياتنا .. فأردت أن أغير الكلام عنها .. أردت أن أبحث عن خيوط بهيجة مشرقة في نسيج حياتنا الحاضرة .. فكانت قصتك هذه ..

ثم انتفض واقفا وقال : الآن هيا بنا لكى أريك المغارة النادرة التي اكتشفتها .. وهناك سأحدثك أنا عن شبابى .. ولا بد للإنسان من قصة واحدة على الأقل في شبابه ..

وسار الرجلان جنبا إلى جنب .. وأخذ القمر يتعلق في السماء .. عاليا عن الأرض .. وكان وراء الرجلين يسير ظلان باهتان .. وكان أحد الظلين طويلا عصبيا نحيلا ، وكان الآخر قصيرا منتفخا يترنح في مشيته.

ولما بلغا مدخل المغارة .. وقف الألمانى وأخرج من جيبه خيطا وأعطاه لزميله وقال له : امسك طرف الخيط واتبعنى .. فإن المغارة طويلة .. والظلام كثيف وإياك أن ترفع قامتك ففى أعلى المغارة أحجار ناتئة .

وأمسك العالم الألمانى شمعة كبيرة وتقدم يشق طريقه فى بحر من الظلام يتلاطم ظلالا على جوانب الكهف .. وأخذ الألمانى يتوغل فى الكهف .. ويسأل صديقه الإنجليزى : لماذا لا تكمل قصة الفتاة «ماريانا» ؟

فقال له الإنجليزى : يا أخى دعنا من هذه القصة الآن .. إننى أهنئك على هذا الكشف العظيم .. إن كل شيء هنا نادر الوجود.. لقد أحدثت ثورة .. الألوان جميلة .. والتماثيل سليمة والسرداب دقيق .. أنا أهنئك ..

ويعود الألمانى يقول له ، وقد أصبح بعيدا لا يراه زميله : هل تعرف ما الذى كانت تعمله ماريانا فى المتحف البريطانى ؟

فقال الإنجليزى بأعلى صوته : لا أعرف .

وعاد الألمانى ، وقد جاء صوته هامسا وله صدى هائل : إنها كانت تنقل بعض المخطوطات لخطيبها .. هل تعرف من هو خطيبها ؟

وقال الإنجليزى : لا أعرفه ..

وقال الألمانى : إننى هذا الخطيب والآن سأطفىء الشمعة .. وتستطيع أنت أن ترجع من حيث أتيت أيها العالم الكذاب .. أيها الرجل المخادع .. لقد غررت بالفتاة وأفسدت حياتى كلها .. لقد كنت أحبها..وكانت تحبنى..إلى أن ظهرت أنت.. فخربت ما بينى وبينها.. الآن تستطيع أن تخرج ..

وبعد لحظات سمع الألمانى صراخا مكتوما فى قلب المغارة .. لقد سقط زميله الإنجليزى فى بئر عميقة ..

* * *

وبعد أيام نشرت الصحف أن عالما اكتشف مغارة نادرة .. وأن هذه المغارة قد احتفظت بكل طابعها الرومانى . وأن العالم الشاب لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره .. وأنه قد عكف على دراستها عشرة أعوام وكانت تعاونه فى مهمته العلمية الكبرى خطيبته ماريانا الموظفة بالمتحف البريطانى .. وقد عثر العالم الألمانى فى قلب المغارة على جثة عالم إنجليزى آخر سبقه إلى اكتشافه شاءت حماسته العلمية أن يدخل المغارة بلا مصباح ، فتردى فى إحدى آبارها العميقة .. ولما طلبت إيطاليا أن تحتفل بالعالم الألمانى رفض لأن ذكرى صديقه الأليمة ، لا تفارق مخيلته . كما أن العالم الألمانى لم يقبل الألقاب العلمية التى منحتها الجامعات له ، وإنما اكتفى بتعليق شارة الحزن على وفاة صديقه العالم الإنجليزى .

وبعد أيام نشرت الصحف أن العالم الالمانى قد سافر هو وعروسه ماريانا إلى أمريكا الجنوبية .. وأنه قرر اعتزال العمل فى الآثار القديمة..

وبعد سنوات عرف الناس كلهم أن هذا العالم الألمانى قد مرض وانهارت صحته الجسمية والعقلية .. وأنه ذهب إلى هذه المغارة .. ودخلها بلا ضياء وألقى بنفسه فى البئر التى مات فيها صديقه .. من قبل .

أما زوجته فهى التى نشرت هذه القصة وهى التى تذهب إلى المقابر تبكى شباب رجلين فى آن واحد !

عن الزوجات سألوني

طلبت مني إحدى مجلات الجامعة أن أجيب على عدة أسئلة تتعلق بالزوجة والحياة الزوجية ومشاكل المتزوجين . ولم أفهم لماذا سئلت أنا . مع أنني لست متزوجا ، ولم «يصبني» هذا الشرف بعد . ربما لأنني على البر . والمثل يقول : اللى على البر شاطر ، ولكن هناك مثل بلدى آخر يقول : ولا يقع إلا الشاطر !.

هل هو سوء ظن .. هل هو حسن ظن من هذه المجلة الجامعية ؟ لا أدرى .

ولكن سأجيب على أى حال وبدون أى حرج وبصراحة . وكلمة الحق لم تترك لى صديقا واحدا !

السؤال الأول : ما هى الزوجة المثالية فى نظرك ؟

الجواب : إنه لا يوجد شيء مثالى في هذا العالم كله . لا يوجد شيء واحد يتفق عليه كل الناس . لا يوجد رجل واحد تتفق عليه كل

النساء ولا امرأة واحدة يتفق عليها كل الرجال . ولا يوجد زوج واحد يصلح لكل النساء ، ولا زوجة واحدة تصلح لكل الرجال .

وكل رجل يعجبه نوع معين من النساء ، فهناك من تعجبه المرأة البدينة ، ومن تعجبه المرأة الرفيعة ، ومن يموت فى الطويلة ومن يزحف على رجليه وراء القصيرة ، ومن تسكره السمراء ، ومن تدوخه الشقراء . والعيون السوداء والعيون الزرقاء ، والشفاه الغليظة والصدر البارز والساقان والذراعان وأصابع اليدين ، بل وأصابع الرجلين والصوت الجميل والرفيع أو المبحوح .. كل هذه صفات جميلة ويختلف الناس فى تقديرها . ولا توجد امرأة تجمع كل الصفات ولا يوجد رجل يجمع كل المزايا .

ورجل الدين يحب المرأة التى تشنق نفسها بمسبحة طويلة .. فتنهض على قدميها إذا دخل البيت ، وترفع يديها إلى السماء إذا خرج من البيت . وبين الحين والحين تقبل يديه قائلة : ادع لى يا سيدنا الشيخ !

ويدعو لها سيدنا الشيخ !

والمحامى يحتاج إلى الزوجة التى تجعل له البيت محكمة تطلب له بالبراءة فى كل تصرفاته .. تحكم له بالبراءة بلا مرافعة ولا شهود ولا أدلة فإذا عاد إلى البيت بعد أنصاف الليالى متعبا مخمورا تحركت الزوجة فى فراشها وقالت ورأسها تحت اللحاف : براءة !

والمدرس ، وهو أتعس خلق الله ، يحب الزوجة التى لا تسأله ولا توجع رأسه . . إنه يريد امرأة لا تضايقه كالتلاميذ ، ولا تناقشه كحضرة الناظر ولا تعد له الأغلاط كحضرة المفتش ، ولا تنساه كوزارة التربية والتعليم .. بل تنفض الطباشير عن صدره ، وتغسل الحبر من أصابعه . وتتركه ينام حتى الصباح . أما الأولاد فلهم رب اسمه الكريم !

والطبيب وزوجة الطبيب . امرأة يجب ألا تغار أبدا . يجب أن تكون من حديد . إذا دق جرس التلفون في البيت وكان المتحدث سيدة . وضحك الدكتور وقال لها : أنا سأجيء حالا !.. كان على الزوجة أن تبلع ريقها وأن تبلع لسانها أيضا وأن تنام بصوت مرتفع . وإذا أقفل الطبيب الحجرة ومعه سيدة تنزع ملابسها ، وكانت جميلة ، فالأعصاب يجب أن تكون من حديد — أعصاب الزوجة !

وزوجة الصحفي أشقى الزوجات .. اللهم لا تحكم علينا . ولا تحكم كذلك على القراء . فلا يتزوج واحد منهم فتاة صحفية ولا تتزوج واحدة منهن فتى صحفيا ، حياة بلا مواعيد ولا نظام ، كل ساعة فيها عمل وكل عمل فيه انتظار ، حياته ورق ، ودمه حبر ، وصباحه ظهر وظهره ليل ، وليله ينتهي بعد شروق الشمس !

وهنالك زوجات يردن الرجل الذي يقف على شاربه الصقر وزوجة تحب الحفلات والرقص وتحب الصلاة على النبي وتحب النوم ونوم المؤمن عبادة !

وكل إنسان عندما يتزوج يظن أنه سيكون أسعد الناس ، لأن كل الشروط التي يطلبها قد وجدها . وبعد شهر العسل يجيء شهر النحل . يكتشف الزوج أنها (فرقت بنط) واحد كل يوم يزداد عدد الأبناط حتى يحس آخر الأمر أنها (فرقت) جدا !

والسؤال الثاني : هل تعترف المرأة لزوجها بماضيها أو تكتم هذا الماضي ؟

وأنا أريد أن أفهم السؤال مرة أخرى : هل معناه إذا كان للمرأة ماض ، أي لو عرفت رجالا قبل أن تتزوج من زوجها هذا ، هل تعترف له أو تسكت وتضع مأجورا على هذا الخبر . والجواب على ذلك :

أن الزوجة مسؤولة أولا وأخيرا عن كل شيء تقوله أو تفعله . فإذا كانت ترى أن زوجها رجل واسع الأفق وأن حديثها عن ماضيها لن يضايقه ، فلا مانع ، وإذا كانت ترى أن اعترافها هذا معناه ، أنها تريد أن تقول لزوجها بشكل غير مباشر إنه أحسن من كل الذين عرفتهم . وإن ربنا قد عوض صبرها ، وجبر بخاطرها ، فهذا كلام فيه مدح وفيه إعجاب بزوجها وهذا يرضى الكثيرين من الأزواج . فالرأى لها على أي حال !

وإذا كانت ترى أن زوجها رجل ضيق الأفق ، وأنه يغضب ويغار إذا عرف أن زوجته كانت تعرف أناسا قبله ، فلا داعى أبدا لأن تخبره بشيء . لأن مثل هذا الرجل إذا عرف أنها خرجت إلى السينما مع «حسن» وذهبت إلى المطعم مع « مرقص » وشربت الشاي مع « كوهين » فإنه لن ينام ولن يستريح ، بل سيحس دائما أنه واحد من أربعة رجال يعيشون معا في بيت واحد مع هذه الزوجة . إنهم يشاركونه في طعامه وشرابه ونومه بل وزوجته !

فإياك يا سيدتى أن تعترفى لمثل هذا الرجل المتأخر عن الحضارة عشرين قرنا من الزمان !

ولكننى أتطلع إلى ذلك اليوم الذي لا يسأل فيه الرجل زوجته عن ماضيها والذي يحس أن هذا ليس من حقه ، وما دامت هي لم تسأله عن ماضيه فكيف يسألها هو عن ماضيها . كيف يسمح لنفسه أن يتهمها وأن يحاكمها وهي لم تتهمه ولم تحاكمه . كيف يفرض عليها نفسه وشخصيته وهي لم تكن قد عرفته بعد . إن الآية القرآنية التي تقول : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » لهي من أعظم الآيات . فالله لا يعذب قوما لأنهم عصوا دينا لم يعرفوه ولم يروا نبيه . إنهم قبل نزول الدين وقبل مجىء النبي . فكيف يعذبهم ؟!

وعندما تتساوى المرأة والرجل ، وعندما يقفان جنبا إلى جنب فى كل شيء ، ويعملان معا صديقين وحبيبين وزوجين ، ويتعاونان فى أسرة واحدة ، وتكون لهما نفس الحقوق وعليهما نفس الواجبات ، حينئذ لن يسألها الرجل ماذا فعلت قبل أن تعرفه ، ولن تسأله هى ماذا فعل قبل أن يعرفها . فكل منهما حر . والحر هو الذى يستطيع أن يخطىء . أما الذى لا يستطيع أن يخطىء فهو العبد الذليل ، الذى يسير على خطوط مرسومة وليس فى وسعه أن يحيد عنها . إن الحرية هى حرية الخطأ والمجتمع المتحضر هو الذى يغفر للخاطئين . فإذا سقط أحد أبنائه أو بناته امتدت عشرات الأيدى لتأخذ بيد من سقط ومن أخطأ . والذى لا يخطىء لا يتعلم . والذى لا يغفر الخطأ ليس إنسانا !

وكان الأديب أوسكار وايلد يقول : أحب المرأة التى لها ماض ، وأحب الرجل الذى له مستقبل !

ثم السؤال الثالث : لماذا يمتنع كثيرون من الأدباء والصحفيين عن الزواج ؟

والجواب : إننى لا أعرف عددا كبيرا من الأدباء او الصحفيين قد امتنعوا من الزواج . ولا أعرف ما هى السن التى إذا بلغها الإنسان يقال له : إنه أضرب أو امتنع عن الزواج . وإذا كان هناك صحفيون قد امتنعوا عن الزواج فكلهم مسحوب من لسانه ولا بد أنه قد كتب فى هذا الموضوع ،وكذلك فعل الأدباء طبعا . فالعقاد ذكر أسباب امتناعه عن الزواج وكامل الشناوى شرح وجهة نظره وفكرى أباظه كذلك ، ولكن هناك كثيرون من المضربين تزوجوا . فتزوج توفيق الحكيم وتزوج محمد التابعى ..

وقد تكون هنالك أسباب خاصة منعتهم من الزواج فى أوائل حياتهم.

وقد كتبوا عنها جميعا . والنهاية السعيدة هى أنهم تزوجوا وكلمة «السعيدة» هذه من عندى . فالله أعلم !

وأما امتناع الناس العاديين عن الزواج فهى لأسباب اقتصادية مادية ، كأن يكون للإنسان دخل صغير ولا يكفيه هو إلا بالقوة . ونحن جميعا من أبناء الطبقة الوسطى . وأحسننا حظا هو الذى لا يعول أحدا . فأبوه فى غنى عنه . أو أبوه وأمه قد توفيا وليس له أخوة ينفق عليهم. وإذا كان دخله ضئيلا فكيف يتزوج، وهل تقبله ؟ وهل تقبل هذا الدخل الصغير . والبيوت كلها فتحات تتسرب إليها الأموال فلا يبقى شيء ، لا يبقى إلا الصبر على المكاره . ولكن عندما تصبح الفتاة موظفة عاملة فإنها عندما تتزوج ستعين زوجها على حياته . والعبء الذى يتعب منه واحد ، لا يتعب منه اثنان !

وهناك سبب آخر . فقد يكون الشاب قادرا ماليا واجتماعيا ولكن وسائل الاختلاط معدومة أو قليلة ، ولهذا يصعب عليه أن يختار ست الحسن والجمال . فتكون النتيجة أن ينتظرها تحت عمود النور فإذا تعب من الانتظار ذهب إلى السيدة والدته يطلب منها أن تخطب له بنت عمه أو بنت خاله ، وكل شيء قسمة ونصيب والدم يحن . إلى آخر هذه الأمثال البلدية التى تدل على عجز الحيلة والتوكل على الله ! ولكن عندما يكون الاختلاط فى كل مكان .. فى الشارع والمطعم والحدائق ودور اللهو سيكون مجال الاختيار كبيرا للفتى والفتاة . ولن يختار أحد زوجته وهو مغمض العينين ، بل سيختارها مفتوح العينين والقلب .

ولا تظن أن الذى يمتنع عن الزواج أو يضرب عن الزواج يكره المرأة .. أبدا . إنه يحبها أكثر من أى رجل آخر ، بل هو ضعيف أمامها أكثر من أى رجل آخر . إنه يخاف أن يعذبها معه ، يخاف أن يصيبها بخيبة أمل . إنه قد عرف الكثيرات من النساء . فلم يعد لديه شيء جديد .

فقد ذاق كل فم ، وتمرغ على كل صدر ، وشرب من كل عرق ، وملأ أنفه من كل عطر .. فإذا تزوج امرأة فإنه لا يستطيع أن يكون جديدا معها في كل شيء. لأنه لا شيء جديد لديه. إنها تفكر في القبلة خائفة أما هو فلا . هي تفكر في الكلمة الملفوفة بالخجل . أما هو فلا. لقد جرب كل شيء ، وتعب من كل شيء ، إنه لا يستطيع أن يحلق معها في خيالها البكر ، لأنه هو لم يعد بكرا !

إنه كالذبابة التي تسقط في وعاء من العسل . إنها تحب العسل وتبحث عنه ولكن إذا سقطت فيه ، تعلق العسل بأرجلها وجناحيها . فالعسل يريد أن يقضي عليها . ولكنها تحبه وتريد أن تتركه لتعود إليه . أما إذا تمسك بها العسل فهذا هو الموت ، وهذا هو السجن وهذا هو القبر . إنه قبر من عسل .. والزوجية قبر من عسل لكل أعداء المرأة !.

بطنه فيها عفاريت

هل تتصور عفريتا يتمدد على ساقى فتاة جميلة ليلا ونهارا وعلى حافة بئر ؟ هل تتصور هذا العفريت ينام مفتوح العينين ويتقلب ويتثاءب ، فلا تدرى الفتاة هل هو يتثاءب لينام ، أم هو يتثاءب ليصحو .. إنها تخاف إذا تحرك ، وتخاف إذا سكت .. وتخاف إذا تحركت هى وتخاف إذا اسكتت .. تخاف منه وتخاف من البئر ..

ثم تصور هذا العفريت وقد انتقل من ساقيها إلى معدتها أو إلى قلبها أو إلى أمعائها .. وراح يتقلب ويتثاءب ويمدد رجليه فى صدرها ، ويضع رأسه فى قلبها ، وأظافره فى عينيها ، وأنيابه فى أرجلها ..

إنه عفريت يستطيع أن يضع رأسه ورجليه كيف شاء ومتى شاء وأين شاء .. تصور هذه الفتاة المسكينة لا تعرف متى يصحو ، ولا متى ينام .. ولا متى يثور ، ولا متى يسكن .. فهو إذا صحا صرخت وإذا نام بكت .. وإذا جاع صرخت وإذا شبع بكت .. إنها تحس به ولا تراه ، وتلمسه ولا تدرى أين هو .. إنه يملأ بطنها وقلبها ورأسها ...

إنه يشرب من دمها إذا لم يجد ماء ، ويأكل معدتها إذا لم يجد طعاما ، ويمتص رئتيها إذا لم يجد هواء ..

ثم تصور مرة أخرى أن هذا الذى أقول كله صحيح ، وأن هذه هي مأساة شاب زارنى منذ يومين . لقد كان تلميذى فى الجامعة .. إنه شاب وسيم أنيق .. كله حيوية .. إنه يقبل على الحياة والحياة تقبل عليه .. كأنهما عروسان فى شهر العسل .. إنه شاب كالورد فى نضرته وزهوه ونعامه .. وكالورد فى شوكه أيضا .. ولكن الشوك الذى يحسه هذا الشاب تحت الجلد ، وتحت اللحم ..

إنه يشكو مرضا لا يعرفه أحد ، لا يعرف أحد من أين جاء ، ولا من هو أبوه ولا أخوته ، ولا موطنه ولا اسمه ولا جسمه . إنه يشكو من «القولون» والقولون هذا من أسرة الأمعاء ، إنه من أعيان هذا الأسرة .. إنه غليظ ضخم كأنه عمدة من العمد .. والأمعاء ، الأمعاء هى حارات ضيقة ملتوية مظلمة أقامت فى جوانبها شعيرات كأنها الأعشاب فى القرى المصرية .. وهذا المرض ينطبق فى هذه الحوارى ، فإذا الزوابع تحطم الأبواب والنوافذ وتقتلع الأشجار ، وتحرق الأعشاب !.. ثم إذا هذا العفريت يعتدى على الآمنين من سكان الحارة .. فيضرب المارة بالسكاكين فى بطونهم ، أو يدق المسامير فى رؤوسهم ، أو يضع إبرا من النار فى عيونهم .... ما الذى أغضبه ؟ لا أحد يدرى ... أهو كنهر النيل الذى كان يثور ، يغرق البيوت ، لأنه شاب مراهق لا يسكن إلا إذا زفت إليه عروس ؟ أم أنها روح طاهرة حبست فى هذا الجسد وتحطمه لتخرج منه ؟ لا أحد يدرى !

هذه هى أحشاء هذا الشاب المسكين ، هذه هى أمعاؤه .. إنها مجموعة من الحبال الناعمة الملساء .. تنام فوقها المعدة ، كما ينام عصفور

صغير فى عش من أوراق الشجر .. ولكن لا تلبث الحياة أن تدب فى هذه الحبال ، كما دبت فى حبال موسى عليه السلام ، وتصبح حيات لها عضلات .. فتسعى فى جسمه يمينا وشمالا ، وتزحف على الساقين ، وتضغط على القلب ، وتلدغ المعدة ثم تلتف حولها كأنها فأر صغير .. وفى حركاتها وسكناتها صراخ ودموع وأرق .. أما الصراخ فهو هناك فوق ، فى الفم ، وأما الدموع والأرق فهما هناك فوق ، فى عينى هذا الشاب !

لقد ذهب إلى الأطباء .. واحدا واحدا .. قالوا له إنه من تسوس الأسنان .. وقالوا له من قرحة فى المعدة .. وقالوا الدم .. وقالوا البول .. الأملاح والسكر .. والمعادن والنوم فى العراء ، والنوم تحت الغطاء .. والحب والكره ، وقالوا له هذا وهم .. وقالوا له : الأعمار بيد الله ..!

ذهب إلى الأطباء وظن أن الأمر سهل هين .. وأن الطبيب سيلقى بخيط طويل فى فمه ثم يبتلع الخيط ويصل إلى معدته ، فلا يلبث الخيط أن يلتف حول ذلك «القولون» ويخرجه ... وحينئذ يستريح .. تماما كما يحدث عندما تسقط السدادة فى زجاجة كبيرة . ولكن كيف يلتف خيط من القطن حول حبل من النار ..

وكانوا يقولون له الإمساك .. إنه يحس تصلبا فى أحد جانبيه .. تارة الأيمن .. وتارة الأيسر .. كان هذا المرض يبنى قبرا من الحجارة .. كان يحفر بئرا لا يلبث أن يلقى به فى أعماقها .. وإن هذا العفريت سيسحبه إلى الداخل .. يسحب رأسه إلى فمه . وفمه إلى عنقه ، وعنقه إلى معدته ، ومعدته إلى أمعائه .. كأنه يقلب جوربا طويلا !

وكان الأطباء يكتبون الروشتات ويلقون بها فى يديه كأنها طلبات مقدمة إلى هذا العفريت .. ولكن العفريت كالساكن القديم لا يترك

البيت إلا إذا انهدم عليه .. أو كأن هذه الروشتات خطابات كالتى كتبها عمر بن الخطاب وألقاها فى النيل .. ولكن النيل ابتلع الخطابات وراح يجرى نحو مصبه ... وكأن هذا العفريت لا يقرأ هذه الخطابات ويدعى الجهل بالقراءة والكتابة ..!

ونقلوا الشاب إلى عشرات المستشفيات الخاصة والعامة وسلطوا عليه الأضواء ، فلم يروا المرض ، ولكن المرض رآهم .. راحوا يرسمون له خط السير إلى خارج الجسم .. ولكن المرض ظل ساكنا قابعا فى الحارات الضيقة المظلمة من البطن ..لقد فعل كما فعلنا مع أهل المريخ من خمسين عاما .. فقد أعلن العلماء أن المريخ سيكون قريبا من الأرض ، وأن المسافة لا تزيد عن ٩٠ مليونا من الأميال. فقام العلماء ورسموا فى الصحراوات ، مربعات ودوائر .. لماذا ؟ لكى يراها أهل المريخ ، فإذا رأوها أيقنوا أننا نعرف الهندسة ونعرف كيف نرسم ، وأننا شعوب متحضرة .. والله أعلم إذا كان أهل المريخ قد رأوا هذه الدوائر ، أو لم يروها .. ولكن المؤكد هو أنهم لم يردوا علينا ، ولم ينزلوا إلى أرضنا ، ولم يتركوا كوكبهم البعيد إلى أرضنا القريبة .. وكذلك فعل هذا العفريت : فهم ما كتبه الأطباء ، وحنى رأسه لعلمنا الغزير ، وطبنا الخطير .. وظل صامتا كأن شيئا لم يحدث..

ولم يدر الشاب من ذلك شيئا ، وإنما ظل كرة يلعب بها اليأس والأمل .. أما الأمل فكان يجعل من هذه الروشتات ريشا يطير به فوق الأطباء وفوق الناس جميعا .. وأما اليأس فكان ينسج منها كفنا تحت الأقدام ، أقدام الأطباء ، وفوق الناس جميعا.. ثم اقتنع أخيرا أنه يحمل كفنه ونعشه معا .. إنه كالمؤمن الذى يحمل «سجادة» معه ينشرها على الأرض ليصلى لله ، فى أى مكان .. وحمل الشاب ملابس الموت .. فى السينما وفى المطعم وفى الجامعة.. ثم قرر أن يموت بيده لا بيد

الأطباء .. أن يموت وهو يأكل وهو يضحك وهو يرقص .. إنه يشمت بالموت ، لأن الموت يكره الشجعان ، ولا يحب إلا الجبناء

وتعلم الشاب أن الماء الساخن يوقظ أحشاءه .. وأن الماء البارد يجمد أحشاءه .. وأن الجوع يريح أحشاءه ، ولكن يصيبه بالصداع ، وأن الطعام ينفخ القولون ويملأه بالبخار وأن المغص يدفعه إلى الأمـــام ، إلى الأرض يتلوى كأنه ثعبان كبير .. ثم يلقى به إلى الأرض ، كما يلقى العفريت بالفتاة إلى البئر !

وأدرك أنه يواجه طاغية يأمر ويجب أن يطاع ، ولكنه حاول أن يفهم هذا الطاغية فلم يفلح .. إنه أمام طاغية مدلل .. يشخط فتتوقف المعدة عن الحركة ، وتجعل الطعام على هيئة كرة تضربها إلى الحلق ، ويدفع بها الحلق إلى الفم .. إلى الأرض !

وعرف أن هذا الشيطان يحب الفرح والمرح .. فكان يتردد على دور السينما وعلى الملاهى .. ولكنه اكتشف أن الضحك يوقظه من نومه ، فإذا صحا الشيطان فالويل لأهل الحى جميعا .. الويل للامعاء والمعدة والقلب .. الويل للشاب من أظافره إلى شعر رأسه. وعرف أيضا أن الحزن هو أحسن سلاح ، فأغمض جفنيه عن الدنيا كلها ، وأغمض العفريت جفنيه ونام فى أحشائه .. كأنه طفل صغير فى بطن رجل ، ولكنه عرف أن الحزن الشديد يصيبه بضيق فى التنفس فلا يلبث أن يمزق البطن وينفخه ويبحث عن نافذة تطل على العالم .. إنه يكاد يختنق . .

ولكن الشاب لم يعرف بعد كيف يقف على الخيط الرفيع بين الحزن والفرح .. كيف يحتفظ بتوازنه هكذا والحرب دائرة فى بطنه ليلا ونهارا .. كيف لا يسقط فى عالم الدموع أو فى عالم الضحك؟ .. قال له أناس إن هذا المرض كالوطواط لا يخلع أظافره من اللحم إلا إذا دقت الطبول ..

وأقام الأفراح والليالى الملاح .. وازداد عدد الخفافيش لأنها تحب الموسيقى.. وقالوا له إن هذا المرض كالجبال لا تفتتها إلا قطرات المطر، فراح يبكى شبابه الغض وأمله وأمل أمه وأبيه وأخوته .. ولكن قلب العفريت رق لحاله ، فلم يطاوعه أن يتركه وظل جاثما على صدره .

لقد زارنى منذ يومين .. وراح يروى لى عذابه.. وكيف أن جسمه أصبح مقرا لعصابة من المهربين.. إنهم يهربون دمه ولحمه ونومه وفكره يوما بعد يوم .. إنه يحس النقص ولكنه لا يعرف كيف يلقى القبض على اللصوص .. لقد عجز الأطباء ، فكيف لا يعجز هو .. واستأذن منى وخرج لأن العفريت يتثاءب فى أحشائه .. فقد حان موعد يقظته .. وموعد إلقاء المريض فى البئر !

* * *

وبعد عام جاءني ولم يفتح فمه بكلمة ..

ولم اسأله . ونظرت إلى دبلة ذهبية في اصبعه . وعرفت أنه لا داعى لأن يشكو فقد أصيب بكل الأمراض الأخرى :

لقد تزوج !

مشاكل السرير ..

هل تعرف كم ساعة تنام طول عمرك ؟

لا تتعب نفسك فقد حسبها العلماء والأطباء واتفقوا على أن الإنسان ينام ثلث عمره. هل تعرف كم كتابا ألفه العلماء والأطباء عن النوم الذى يحتل عشرين عاما من عمر الرجل الذى يموت فى الستين؟ تستطيع أن تمر على المكاتب فى أى وقت من الأوقات، وأرجو أن تبعث لى بأسماء الكتب التى صدرت عن النوم فى مصر أو فى أي بلد فى العالم. أما مصر فقد صدر فيها كتابان فى مائة عام عن النوم عند الأطفال وعند المجانين .. أما الناس العاديون مثلنا فلم يتعرض لهم أحد.. إلا إذا عدنا أطفالا أو أصبحنا مجانين . !

وكل حالة من حالات الإنسان لها أدب ولها فن ولها علم.. فالطعام فن والسير فى الطريق فن ، والسير فى الصفوف له قواعد .. واستقبال الناس فن يتعلمونه فى سويسرة .. وهل النوم فن؟ اثنان من علماء النوم أو شعراء النوم فى أمريكا يقولان إنه فن. أحدهما رجل والآخر امرأة ..

وما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما.. أما الشيطان فهو أنت أيها القارىء . لا أقول فى مصر ولكن فى أمريكا . فإن هذا الكتاب قد اشتراه أكثر من خمسة ملايين من الرجال والنساء . . وقد وقع هذا الكتاب فى يدى ، أو أنا الذى أوقعت فى يدى هذا الكتاب . لقد شغلنى عن كل شىء .. واسترحت به من كل الكتب التى أدمنها .. كتب الفلسفة وعلم النفس والأدب والتاريخ القديم والحديث والمذاهب السياسية والاقتصادية ، ومن الأسماء التى التصقت بلسانى وأذنى كأنها مسامير أو كأنها أشواك أو كأنها خطايا تعلقت بضميرى . .

الكتاب اسمه «آداب السرير» والمؤلفان من أخف الناس دما وألطفهم روحا . تقرأ الكتاب فلا تكف عن الضحك . أما أنا فكنت مشغولا دائما بطريقتهما فى الكتابة ،كنت كمن ينظر إلى سيدة وهى تعمل بالإبرة .. كنت أصفق لخفة يدها ، وبراعتها.. ثم أترك الكتاب وأحاول تقليدها بين الحين والحين .. وكثيرا ما فشلت ، ولكننى لن أتوقف عن المحاولة . !

يقول الكتاب فى فصل واحد من فصوله العديدة : ماذا تصنع إذا كانت زوجتك من السيدات اللاتى يسهرن خارج البيت؟ طبعاً تذهب إلى الفراش مبكرا وتحاول أن تضيع الوقت فى القراءة ، وأن تطفىء النور. من حين لآخر حتى لا تضاعف نفقات البيت.ولا تغضب لأن زوجتك تسهر خارج البيت ففى ذلك راحة لك. إذا لم تصدقنى فانظر إلى صور أجدادى وأجدادك . ألا تراهم «مكشرين»؟ ألا ترى وجوههم عليها غضب الله ؟ لماذا؟ أنا أقول لك السبب .. إنهم لا يفارقون بعضهم البعض لا ليلا ولا نهارا.. فهم يجتمعون حول المائدة فى الليل ويتحدثون فى سيرة الناس .. هذه سرقت وهذه خانت وهذه قالت وهذا كذاب

وذاك منافق .. حتى يجىء موعد النوم أى حتى الساعة التاسعة والنصف!
وينامو ا !.

اترك زوجتك تخرج إلى الشارع ، اشتر راحتك بأى ثمن !

وزوجتك الحديثة مشغولة طبعا بالجمعيات التى تعقد يوم السبت صباحا ويوم الأحد مساء ، ويوم الإثنين فى القناطر ، ويوم الثلاثاء فى الإسكندرية .. الحمدلله ، إنها تركت لك القاهرة..افتح الراديو واصنع لنفسك فنجانا من الشاى وضع فى الفنجان ثلاث قطع ، لا قطعتين ، كما تضع لك زوجتك.. ويوم الأربعاء أمها مريضة ويوم الخميس أنت مريض ويوم الجمعة هى مريضة.. لقد تعبت .. هذه هى أحسن فرصة تترك لها البيت !

ولا شىء يقف ضد الرجل وإلى جوار المرأة إلا العلم والمخترعات الحديثة .. تسألنى كيف ذلك؟ أقول لك إن أم الزعيم الأمريكى لنكولن كانت تغسل ملابس ابنها وأولادها ، وتذهب إلى الحديقة تجمع البطاطس وتسلقها ، وإذا رفض أولادها أن يأكلوها ، كانت هى تأكلها .. وتطعم الخنازير ، وتجمع الزهور ، وتذهب إلى مكتب البريد .. ثم لا تنام إلا إذا نام أولادها جميعا .

أما اليوم فكل شىء يجىء إلى زوجتك فى البيت .. كل شى قد أصبح له جهاز يطبخه ويقدمه ، البريد يجىء بالطائرة إلى باب البيت ، وغدا تلقى الطائرات بالخطابات فوق أسطح المنازل ، وقد يخطىء ساعى البريد وهو فى الطائرة فيلقى بنفسه فوق رأس ابنتك الجميلة ، هذه أجمل تحية لابنتك وأكبر مصيبة لك !

أنت الآن نائم فى الفراش.. وأحسست أن مفتاحا يتحرك فى الباب الخارجى .. إنها زوجتك . هل نسيت أنها تسهر إلى ساعة متأخرة خارج

البيت . ماذا عساك أن تصنع ؟ أما الحكماء فيقولون : يجب أن تخرج رأسك من تحت اللحاف وتقول : أنت يا روحى ! أما هى طبعا فلا ترد عليك ويقول الحكماء أيضا يجب أن تخرج رأسك مرة أخرى وتقول : من هذا الرجل السعيد الذى كان يراقصك الليلة !

إياك أن تنسى هذا كله وإلا كنت رجلا رجعيا ، فيجب أن تكون شجاعا صابرا حتّى النهاية .

وزوجتك طبعا لا تخبرك بشيء مما فعلت .. فإن هذه أمور خاصة تعنيها هى . وكل إنسان مستقل فى أفكاره وتصرفاته .. لا تنسى أنك لست رجعيا .

ولكى تؤكد لزوجتك أنك نائم وأنك مستريح إلى مجيئها فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ، يمكنك أن تحدث صوتا صغيرا بأنفك .. مرة أو مرتين لا أكثر ، وإلا كان صوتك مزعجا لزوجتك ولكلبها الصغير النائم تحت السرير ! لا تنس أن الكلاب نومها خفيف !

أما زوجتك فستقوم بنزع ملابسها الرقيقة قطعة قطعة وفى هدوء حتّى لا تزعجك .. وتتجه إلى السرير وتدخل تحت الفراش وتجعل وجهها ألى الناحية الأخرى حتّى لا تضايقك رائحة الخمر . وزوجتك لن تنسى إبدا أن تقول لك : حبيبى .. قم واقفل باب الجراج !

وفى هذه اللحظة يجب أن تنهض فورا كأنك كنت تنتظر هذه اللحظة طول الليل ، لتظهر لزوجتك مبلغ رداءة الين الذى تشربه كل ليلة .. إنه يقضى على النوم أولا بأول !

وإذا رجعت من الجراج ووجدت زوجتك نائمة ففى وسعك أن توقظ الكلب الصغير وأن تنام إلى جواره !

هناك مشاكل أخرى تتعلق ببعض العادات التى تؤدى إلى الخلاف

بينك وبين زوجتك .. إذا كانت زوجتك تقرأ قبل أن تنام .. فما هو موقفك ؟ هل تقرأ أنت الآخر ؟ أم تتركها وتنام !. تستطيع أن تنام . فإذا كان الضوء منعكسا على عينك ففى وسعك أن تلبس قناعا أسود .. وهذا القناع مفيد وخاصة إذا دخل أحد اللصوص المقنعين بيتك . فعندما يراك يدرك أن زميلا له فى المهنة قد سبقه إلى بيتك .. !

وهناك مشكلة أخرى .. هى مشكلة فتح النوافذ ليلا .. إذا كنت تحب أن تنام والنوافذ مفتوحة ، وكانت زوجتك تكره ذلك .. الذنب ذنبك . لماذا لم تسأل زوجتك قبل الزواج عن مثل هذه المشاكل الحيوية . افتح النافذة واقفز منها إلى الشارع واترك لزوجتك مهمة إقفالها بعد ذلك !

ثم هل أنت «تشخر» بالليل وأنت نائم .. إن هذا الصوت يتحدى العلم والعلماء . لقد فرضت كل الدول عقوبات صارمة على كل أجهزة التنبيه فى الشوارع وفى الميادين وفى كل عواصم العالم .. أما أصوات الرجال وهم نائمون فلا علاج لها .. أنا أنصحك بأن تشترى «الحاما» كذلك الذى يوضع فى أفواه الخيول والبقر وبعض الكلاب .. إنه مفيد جدا ، وخاصة عندما تضيق بزوجتك أو تضيق هى بك ففى وسعك أن تتخلص منها فورا ، بدلا من أن تنزل إلى الشارع وتبحث عن آجزاخانة تشترى منها سما لاثنين !

وهناك طرق سريعة جدا ومفعولها أكيد للطلاق من زوجتك ..

أولا : أن تطارد كل ليلة ذبابة دخلت حجرتك .. وتظل تجرى وراءها من حجرة إلى حجرة وتصطدم بالمقاعد والأطباق وتحطمها جميعا .. كل ليلة .. وستستريح فى اليوم السابع ! لقد جربت هذه الطريقة ، لم أسترح منذ اليوم الأول من اتباعها لأننى لم أتزوج بعد !

ثانيا : ناقش زوجتك دائما فى الفلوس التى تكسبها بالمليم وتنفقها زوجتك بالجنيه .. التى تجمعها من تحت الأقدام ، وتبددها زوجتك على شعرها وشفتيها وخديها .. كلمها عن العرق والدموع ، افتح نفسها للنوم والحديث بهذه السيرة العطرة كل الذين ساروا على هذه القاعدة يعملون «مرضعات» لأولادهم وبناتهم . أما زوجاتهم فقد تزوجن رجالا آخرين !

ثالثا : تستطيع أن تنقل البلاج إلى السرير ، وذلك بأن تكون بارد القدمين دائما .. فلا تكاد قدمك تلمس رجل زوجتك حتى تقفز إلى السقف .. فانظر إليها وحاول أن تضرب زوجتك ضربة قوية ، فربما اصطدمت بالنجفة المعلقة فى السقف ، فيكون موتها انتحارا . وتصبح خاليا من المسئولية !

رابعاً: أما أنت أيتها الزوجة فعليك بالدبابيس الحادة..ضعيها فى ملابسك وفى شعرك وتذكرى أيام الزواج الأولى ولا تكفى عن احتضان زوجك .. حتى يسيل دمه .. إنهم يفعلون كذلك فى بلاد ماوماو.أما الأعمار فهى بيد الله !

خامساً : لا تستخدمى أى معجون للأسنان. كونى طبيعية كما كانت أمنا حواء .. واذهبى إلى الفراش دون أن تتناولى غداءك...فإن الرجال يحبون رائحة الفم الذى لم يفتح منذ سنوات.. وإياك أن تطبقى فمك.. اهمسى في فم زوجك .. فإن أنفاسك الرقيقة هى وحدها التى تعجل بنهايته .. وتجعل يده تمتد إلى التليفون ويقول بصوت الغريق: الحقنى يا سيادة المأذون !

سادساً : إذا كانت زوجتك عصبية. فكل السيدات العصبيات يفرحن إذا امتلأت حجرة النوم بكل الأدوات الحادة كالسكاكين والملاعق

والشوك .. والأحذية الجديدة .. ويستحسن أن تكتفى بالأحذية.أقصد أحذيتك أنت لا أحذية زوجتك.فإن أحذية السيدات لا تجرح ولا تسيل دماً .. لا تقاوم زوجتك وهى تضربك. فإن المقاومة تزيد من حرارتها.. فتنهال عليك وتضربك ، وتستمر فى ضربها لك حتى بعد أن تموت ..

وأنا أنصحك إذا قررت أن تموت بيد زوجتك أو برجلها،فأحسن مكان لك هو السرير..إنه الذى يولد فيه الإنسان،ويتزوج فيه الإنسان.. أقصد يموت فيه !

على الرمل تحت القمر

عند نهاية الشاطىء فى الإسكندرية..عند نهاية كل شيء نهاية الضوء .. ونهاية الليل.. ونهاية المدينة.. فى منطقة لا أعرف اسمها ولا مكانها ... ولا أعرف كيف انتقلت إليها.. كل شيء هادىء . الليل والبحر والسماء..إلا جماعة من الشبان والشابات مدوا ارجلهم إلى البحر.. وكان البحر وديعا كأنه طفل،له أصابع بيضاء ناعمة تدغدغ أقدام الشبان فيضحكون ويغنون..وتدغدغ أقدام الشابات فيترامين من الإرهاق على الشاطىء المبلل .

وحول هؤلاء الشبان والشابات وقفت زجاجات البيرة سوداء كريهة حاسدة حاقدة كأنها بوليس الآداب ..

وأخذ الشبان والشابات يتمرغون على الرمل يمينا وشمالا.. كأنهم جثث رماها البحر، أو طيور مهاجرة سقطت فى آخر الرحلة.. أو غرقى نجوا من سفينة مجهولة.. أو كأنهم أمواج تحولت إلى لحم ودم وصراخ..أو كأنهم حبال غليظة أمسكها الليل وراح يفتلها اثنين اثنين .

ليس عندهم ما يقولون.. سكتوا واستمعوا إلى البحر..سكتوا وفتحوا عيونهم على القمر ..

لا يستطيع أحد فى هذا الجو الساحر أنيقول كلاما عاديا. يجب أن يقول شعرا .. لا يستطيع إنسان أنيدندن بأى صوت.. ولكن يجب أن يكون عبد الوهاب أو أم كلثوم ..

وفجأة انتفض واحد من الشبان وقال: اسمعوا يا جماعة..يجب أن نتكلم وإلا غلبنا النوم.. يجب أن يروى كل واحد منا تاريخ حياته..أنا سأبدأ .. اسمعوا .. كلكم.. اجلسوا .. قم .. قومى.. أنا ولدت فى إحدى قرى مديرية الدقهلية.. قرية غريبة الاسم.. أبى فقير وأمى فقيرة .. وتنقلت من مكان إلى مكان.. كنت كالحجر المتحرك. والمثل يقول: الحجر المتحرك لا ينمو عليه العشب..ولم ينبت فى حياتى عشب الصداقة والمحبة والرقة مع الناس أو بينهم..لقد كانت الدنيا فيلما طويلا ساكنا، أما الذى يتحرك فهو أنا.. تصور دارا للسينما لا تتحرك فيها الشاشة وإنما الذى يتحرك هو الجمهور..هذا سر عذابى كله .. إننى لم أتعود السكون لم أتعود الهدوء.. لم أذق طعم الصداقة، لم أذق طعم الحب .. إننى كرجل يضع فى فمه طعاما فلا يمضغه ، ثم يبلعه بلا مضغ.. كل شيء أبلعه بسرعة بلا لذة، بلا متعة.. الأيام تمر فلا أحس بها.. الناس أراهم ولا أعرف كيف أصادقهم..إن بينى وبين الناس حائطا كبيرا.. لم أفلح أبدا فى أن أتسلق هذا الحائط.. لا طعم للشيء عندى.. كأننى ألبس قفازا فى أصابعى فلا أحس بها، بل ألبس قفازا على شفتى وعلى لسانى وعلى قلبى..وعلى عقلى هو الآخر فلم أعد أفهم شيئا مما حولى.. إن بينى وبين العالم كله قفازا كبيرا.. أنا ألبسه أو العالم كله يلبسه.. ألست مسكينا.. يا جماعة.. والله مسكين ومعذب.. حتى الدموع أفتش عنها فلا أجدها.. إننى سأغسل وجهى بالبيرة .. لعل عينى تسكران..

تسكران .. فتبكيا.. أريد أن أبكي.. إن الإنسان هو الذى يبكى!

وألقى بنفسه على الرمل ودفن وجهه فى الرمل.. واستغرق فى النوم.

واعتدل شاب آخر فى جلسته وقال: ليس لحياتى تاريخ.. وليست لها أية قيمة.. ما معنى أن يولد الإنسان ويكتب اسمه فى دفتر المواليد.. ويدخل الجامعة ويخرج منها.. ما هو العمل المنظم فى حياتى..إننى لا أساوى شيئا..لست كالجنيه الذى يساوى مائة قرش.. ولست كالأقة التى تساوى ٤٠٠ درهم .. ولست كالمتر الذى يساوى ١٠٠ سنتيمتر.. أنا لست جنيها ولا مترا ولا أقة أنا شىء تافه بلا وزن ولا ثمن ولا طول ولا عرض ولكن مع ذلك أنا كل شىء عند أمى. أنا بالنسبة لها كل الجنيهات التى فى العالم.. إن أمى لا يعنيها أن أكون تلميذا ناجحا ولا أن أكون محاميا مفلحاً، ولا زوجا صالحا.. شىء واحد يهم أمى هو أن أكون فى صحة جيدة.. أن يزيد وزنى.. أن أنام نوما عميقا..أن تكون ملابسى نظيفة..أنا بالنسبة لأمى فرخة أو ديك تخرجه من القفص كل يوم وتضع حبات الذرة فى منقاره وتغسل ريشه، وتنفض التراب عن قدميه.. وأنا فى نظرها أحسن ديك فى العالم.. بل أنا الديك الوحيد فى العالم..وأنا بينى وبين نفسى أرى أننى لست شيئا من هذا كله..ولا شىء فى الدنيا يعذبنى إلا هذه المسألة..وكثيرا ما دعوت أصدقائى وصديقاتى إلى البيت لتعرف أمى أن هناك أناسا أحسن منى وأجمل أصلح وأغنى منى..وأن الدنيا كلها لا تحس بى..وأننى لو مت فستعيش الإنسانية ويزداد عددها يوما بعد يوم .. وستطلع الشمس وتغرب .. وستعيش أمى بعد موتى..أنا أريد منكم أن تعاونونى على إقناع هذه السيدة الطيبة.. إننى أعرف أن الخمر قد لعبت برأسى ولكن أنا أشعر أن كلامى هذا معقول.. أستحلفكم أيها الأصدقاء أن تبعثوا أمى من قبرها.. فإننى أراها تتعذب ..وأنا أتعذب لعذابها.. هل عرفتم الآن لماذا أبكى دائما؟ هل عرفتم الآن لماذا لم أتزوج

ابنة عمى .. لأنها تشبه أمى تماما..هل عرفتم لماذا لم أتزوج ابنة خالى وهى تكبرنى بخمس سنوات وتحبنى..لأننى أحسست أنها كأمى .. وأنا أكره هذا الإحساس..أكره هذا الإحساس من أمى ومن كل امرأة أخرى..

ثم مد يده إلى زجاجة سوداء منفوخة كأنها أحد أغنياء الحرب..وألقى بها فى البحر..وكان الهواء يعترض طريقها وكانت تصرخ كأنها طفل سقط من بلكونة عالية ..

وفوجىء الشبان والشابات بفتاة شقراء طويلة..وقفت وقالت وهى تلوح بيديها كأنها تخطب فى ميدان كبير : إن حياتى من نار..إننى أحرص على هذه النار..إننى أكره أبى وأحب أمى..أكره أبى لأنه تزوج من امرأة أخرى غير أمى..وأكرهه لأنه يخون أمى ويخون زوجته الثانية.. ولأنه يلعب الورق ولأنه يعربد ويملأ أنفه بدخان الحشيش.ولكن أبى رجل وسيم وجميل وغنى.وأكرهه لأنه يسمع بأخبارى على الشاطىء وتحت الشاطىء وفى البحر . وفى أعماق القوارب الصغيرة..فيضحك ولا يحزن من أجلى.. إننى كرة نفخها أبى.. ثم ضربها بقدمه وتركها لكل قدم وكل يد..إن بصمات الناس جميعا قد التصقت بجلدى..إننى لا أعرف أحدا منهم . إننى أكره أبى لأنه لا يشعر بوجودى..إننى أكرهه لأنه يعتبرنى ميتة .. وهو سعيد لأننى ميتة وأحب أمى لأنها حزينة من أجلى..لأنها تبكى على ابنتها .. إننى أفضل الجنازة التى تسير فيها أمى.. أفضل الملابس التى تضعها أمى على سريرى كأنها كفن.. وكأن سريرى نعش..أفضل ذلك على إهمال أبى.. إن أبى مهمل سعيد، وأمى حزينة..وأنا غارقة فى حزن سعيد،وأمل بائس.. وأب مخمور وأم واعية،وأب يبكى من النشوة، وأم تذوب من الحزن.. هذه حياتى . النهار كأبى، والليل كأمى..هذه حياتى هنا .. على الرمـل .. وتحت القمر . وتحت الشمس .. وتحت الظل ..

الويل لكم جميعا.. لقد نمتم كلكم..قوموا .. قم .. قومى وأنت قومى ..

* * *

ولا أدرى كيف طلع عليهم النهار..ولكن ماء البحر انتقل إلى شفتى .. وكان ملحا مرا.. وسواد الزجاجات انتقل إلى نفسى.. فكانت حزينة.. وذرات الرمل انتقلت إلى عينى فكانت جافة حارقة.. واستدرجنى الشاطئ إلى الأرض ورمانى فى سيارة كومة من القماش المبلل.. لم يشعر بالرمل ولم ير القمر !

وهذه قصة حياتى التى لم يسمعها واحد من هؤلاء السكارى ..

حياة بلا خوف

هل عندك الشجاعة لتواجه نفسك؟ هل تستطيع أن تفتح نفسك كما تفتح يدك وتقرأ خطوط حياتك؟ هل تستطيع أن تقول لنفسك بصوت مرتفع : إننى مخطىء فى هذا وذاك؟ هل تستطيع أن تقول لنفسك: لا بد أن أغير خط سيرى ولا بد أن اتجه وجهة أخرى؟ هل تستطيع أن تواجه نفسك كما يواجه الصديق صديقه ؟ هل تستطيع محاسبة نفسك دون أن تنقلب عدوا لنفسك؟ هل تعرف ما الذى يخيفك، فإذا عرفته قضيت عليه، دون أن تصاب أنت بخسائر؟هل تستطيع أن تمسك مخاوفك ثم «تعدمها» كما يعدمون القنابل فى أماكن خالية من الناس، حتى إذا انفجرت لم تصب أحدا بسوء ؟

أسئلة سهلة ولكن الإجابة عليها صعبة، ومع صعوبتها يمكن التغلب عليها بشىء واحد هو : الشجاعة .. ولا شىء غير الشجاعة !

فهناك كثيرون من الناس لديهم القوة الجسمية لديهم عضلات وسيقان وأسنان وأظافر وأصوات غليظة وشوارب ضخمة طويلة..ولكن عندما

يجلس الواحد منهم مع نفسه ويحس أنه وحده، بعيدا عن الناس، فإنه يسد أذنيه حتى لا يسمع صوته الداخلى، ويسد أنفه حتى لا يشم مخاوفه. فيغرق نفسه فى الشراب أو فى اللعب أو الكلام.. أو فى النوم. إنه يخاف من مواجهة نفسه .. وفى هذا اللحظة تختفى أظـافره وتتلاشى عضلاته وتنكمش قوته .. فإذا هو إنسان جبان !

إننا نحتاج إلى شجاعتنا الجسمية مرات قليلة جدا فى حياتنا، وذلك عندما يهددنا خطر غير متوقع. ولكن شجاعتنا النفسية هى التى نحتاج إليها كثيرا ، بل نحتاج إليها دائما !

هل تعرف كيف يصيدون التمساح ؟ إنه حيوان يعيش فى الماء وله جلد لا ينفذ منه الرصاص بل إذا أصابته رصاصة فى جلده ارتدت كأنها قطعة حجر ضربت فى حائط.. والتمساح يدافع عن نفسه بذيله. فهو يستطيع أن يحطم به زورقا صغيرا... ولكن الصيادين يذهبون إليه ويقلبونه على ظهره فيصبح بطنه عاريا، وهو مغطى بجلد ناعم ضعيف، وحينئذ تنطلق فيه سهام الصيادين ورماحهم فيموت كأى حيوان ضعيف !

والمخاوف كالتمساح، إذا أردت أن تقتلها بدت لك هائلة جبارة، ولكنها قوية كالتماسيح ، وضعيفة كالتماسيح أيضا !

هل تعرف كيف يصبح الثعبان ضعيفا بلا خطر.. إن الصيادين يقدمون له خيطا رفيعا أو شعرة من ذيل الحصان فيمسكها الثعبان بفمه وفى هذه اللحظة يجذبها الصياد فتتحطم أسنانه كلها.. فاذا هو حيوان صغير ضعيف .. والمخاوف كالثعبان مروعة ولكنها ضعيفة كذلك !

* * *

كنت أعرف لاعبا رياضيا مشهورا، ولا يزال مشهورا، حتى اليوم .. إنه قوة وشباب وصحة وشجاعة. لا يخاف أحدا، ولكن يخاف منه الكثيرون.

يأكل زوجا من الفراخ وعدة أطباق من الخضراوات والسلاطات ولكنه يخاف من الصراصير. ولا يكاد يرى صرصورا حتى يجرى ويترك ما فى يده أو فى رجله .. كأن الصرصور أسد أو نمر.. وكان الناس يظنون أنه يمزح، فليس معقولا أن بطلا جبارا يجرى من هذه الحشرة الحقيرة. ولكن هذه هى الحقيقة وكان يخجل من هذه الحقيقة ويحاول أن يعللها ويدافع عن هذا الخوف. ولما ضاق صدره ذهب إلى أحد الأطباء النفسيين فإذا الطبيب يكتشف أن هذا البطل عندما كان صغيرا تركته أمه وحده وخرجت لزيارة إحدى جاراتها. وكانت عندهم قطة صغيرة راحت تطارد صرصورا صغيرا حتى أمسكته وأخذت تأكله بجوار الطفل وهو يبكى ويصرخ دون أن تسمعه أمه .

وكبر الطفل وأصبح رجلا . ولكن الصرصور ما يزال يطارده..إنه شجاع جسميا، ولكن هذه الشجاعة الجسمية لم تنفعه فى مواجهة هذه الصراصير الداخلية التى تتحرك فى رأسه بعيدا عن عضلاته وعن معدته القوية ..

فالمطلوب شجاعة نفسية لا جسدية. شجاعة تقضى على مثل هذه الحشرات .. تقضى عليها من الداخل لا من الخارج !

وفى حياة كل منا حشرة من هذا النوع، نهرب منها، ونخاف ونخجل أن نذكر الحقيقة للناس، ولا نحب أن نعرفها نحن أنفسنا..ولكن عندما نعرف سبب الخوف، تتلاشى هذه الحقيقة.. وحينئذ نصبح شجعانا !

روى لى طبيب نفسانى أن سيدة غنية عرضت عليه طفلا صغيرا، وكان هذا الطفل يخاف من رؤية النار أو المصباح الأحمر أو السيجارة المشتعلة وقالت له إن هذا الطفل يبكى ليلا ونهارا وهى لا تعرف السبب، وأخذ الطبيب يسألها عن حياة الطفل، كيف ينام وكيف يشرب وكيف يأكل . وسألها عن أصدقائه وعن أعدائه وكيف يتنزه ومع من. وعرف

الطبيب أن الطفل يذهب إلى الحديقة فى سيارة فخمة ومع خادمته .

وذهب الطبيب إلى الحديقة فوجدها حديقة جميلة امتلأت بالأطفال والمربيات والأمهات .. ولا عيب فيها . وقرر الطبيب شيئا عن نفسه.. وراح يذهب إلى الحديقة وحده دون أن تراه الخادمة.. وفى يوم لاحظ أن الخادمة تجلس إلى جوار شاب تتحدث إليه وتظل ساعات تضحك معه، وتترك الطفل. وكلما لاحظت أن الطفل قد بعد عنها انطلقت وراءه تضربه وتركله برجلها والطفل يبكى ويصرخ، ثم تضع على وجهها منديلا أحمر وتعوى كالذئاب فيقع الطفل فى الأرض ويجلس إلى جوارها ولا يتركها، وإنما يظل يتطلع إلى الأطفال الآخرين ولا يشترك معهم فى اللعب ..

هذا إذن هو سبب خوفه من اللون الأحمر، لأن الذئاب تختفى وراءه . لقد تركز الخوف فى نفسه وأصبح خوفا من الذئاب التى لم يرها فى حياته ولكن من اللون الأحمر، ومهمة الطبيب هى أن يمزق هذا اللون الأحمر فتظهر الخادمة من ورائه .. إنها الخادمة وليست الذئب.. وحينئذ يتمزق الخوف، وإذا الطفل يضع المنديل الأحمر على وجهه ويخيف أباه وأمه.. إن الطفل يسخر من مخاوفه، إنه يضحك من مخاوفه. وحين نضحك من مخاوفنا فإنها لا تصبح مخاوف، وإنما تصبح فكاهات..إنها الشجاعة التى يتسلمها الأطفال من الأطباء..أما الكبار فيجب أن يعتمدوا على أنفسهم وعلى شجاعتهم !

إنها الشجاعة النفسية ، وليست الشجاعة الجسمية .. إنها الشجاعة التى تجعلك تفتح عينيك على نفسك وتقول : لماذا أخاف من النساء ؟ لماذا لا يحبنى أصدقائى ؟ لماذا لم أنجح فى هذا الأمر ؟ لماذا أحسد الناس ؟ لماذا لا أحب الجلوس إليهم ؟ لماذا أكره أن يسألنى أحد عن نقودى وأين أنفقها ؟ لماذا أعتمد على ما فى جيوب الناس ؟ لماذا أكون

منافقا ؟ لماذا أخاف المنديل الأحمر الذى يوضع على وجه رئيسى؟ هل هذا المنديل يخفى وراءه ذئبا أم أنه لا يخفى شيئا ؟ لمـــاذا أخاف الصراصير وأنا القوى بشخصى ومواهبى وقدرتى على العمل ؟

والأسئلة سهلة ، ولكن الجواب صعب ، وهو ليس مستحيلا . يجب أن تعرف السبب ، ويجب أن تواجه نفسك به ، والطفل الصغير تبعث به أمه إلى الطبيب ، أما الطفل الكبير وهو أنا وأنت ، فنحن نعتمد على تجاربنا وعلى ما نراه فى أنفسنا وفى الناس .. يجب ألا نمد أيدينا لأحد نسأله الشجاعة ، ولكن يجب أن ننفق مما فى جيوبنا نحن .. والحكمة يجب أن تكون هكذا : إذا أنفقت ما فى الجيب ، اختفى ما فى الغيب. وليس فى الغيب إلا المخاوف التى نجبن عن مواجهتها ..

اعرف السبب وواجه نفسك بشجاعة نفسية ، لا تواجه نفسك بشجاعة جسمية فتضرب رأسك فى الحائط ، وتلطم خدودك ، وتبتلع عشرات من أقراص الأسبيرين .. فالحائط لن ينكسر وإنما رأسك، ويدك لن تتعب، وإنما تسيل الدماء من خدودك، والأسبيرين يشفى المخاوف من الصداع ، فتصحو من جديد .. كن صديقا لنفسك لا عدوا .. كن شجاعا وحينئذ تتلاشى الصراصير والقطط وتموت التماسيح وتتحطم أسنان الثعابين .. فالمخاوف كالسمك يظل حيا ما دام فى الماء أما إذا ألقيت له شبكة وأخرجته إلى الضوء ، فإنه يموت !

حريق وطوفان

خلق الله آدم وحواء ومنهما تناسلت البشرية . وأخذ الحب يجمع قلوب الآباء والأمهات والأصدقاء . ودبت الغيرة بين أبناء آدم . وكانت أول جريمة قتل على ظهر الأرض بين أخوين هما قابيل وهابيل .. وكان القاتل شقيق القتيل وكانت الغيرة هى السبب .. كأن الانسانية تقطع يدها اليسرى بيدها اليمنى ..

وذات يوم نزلت الأمطار على الأرض فغرق العالم كله . وأوحى الله إلى نوح عليه السلام أن يصنع سفينة وأن يركب فيها هو وزوجاته أولاده ، والحيوانات والطيور والنباتات .. وبعد سنوات هبطت المياه ، ورست سفينة نوح . ومن زوجات نوح وأولاد نوح تناسلت البشرية من جديد .. ومن الحيوانات والنباتات والطيور ، امتلأت الأرض بالنباتات والحيوانات من جديد .

لقد ولدت الدنيا مرة أخرى بعد الطوفان ..

فالطوفان أولا وبعده الميلاد ! لقد غرقت الدنيا ثم جفت المياه

واخضرت الأرض وامتلأت بالطيور والحيوان والإنسان .

كل ذلك بعد الطوفان !

وقديما احترقت مدينة روما ، لقد أحرقها الإمبراطور نيرون وهو يغنى .. ثم أعيدت مدينة روما العظيمة . واحترقت القاهرة ، وكان احتراقها مقدمة لميلاد قاهرة جديدة وعهد جديد .. فبعد الحريق ميلاد جديد .. وبعد الطوفان ميلاد جديد !

واليوم تغرق شوارع باريس وتغسل بيوتها وقصورها بمياه الأنهار .. وقريبا تنحسر المياه عن باريس الجميلة وتعود الشوارع من جديد خدودا ناعمة تقبلها أقدام الفتيات الجميلات ، ويعود النور ، وتدب الحضارة والحياة ، ويحس الناس أنهم فقدوا الأرض الجافة الثابتة وأنهم حرموا منها يوما وأنهم يجب أن يحرصوا عليها من جديد ، وأنهم سيحبون الحياة التى هددوا بفقدها ، وسيقبلون على الدنيا بروح جديدة نظيفة غسلتها مياه الأمطار ..

وبعد الطوفان توجد باريس جديدة وحب جديد ، وميلاد لحياة جديدة ! إنه الميلاد بعد الطوفان !

وغرقت مدينة قنا .. غرقت بيوتها القديمة ، وانهارت أكواخها البالية ، وتوارت حاراتها المظلمة تحت أمواج السيول . كل هذا الطين والظلام والصراخ قد غرق مع الماء الذى هبط عليها من السماء .. وستجف المياه وبعد هذا الطوفان ستولد «قنا» جديدة .. ستكون هناك شوارع واضحة وحدائق جميلة وبيوت بارزة ، وإحساس بالحياة من جديد .. لقد أحس الناس أنهم فقدوا شيئا ، ثم رد إليهم هذا الشىء من جديد .. وأنهم تخلصوا من أشياء كريهة ، أشياء من المستحيل أن يتخلصوا منها .. إلا بالطوفان !

لقد ولد العالم كله مرة أخرى بعد الطوفان !

أهذا الطوفان شيء كريه ؟ أهذا الطوفان الذى يهدم البيوت القديمة ، ويبلع الظلام والألم ، أهو شيء يجب أن نهرب منه ؟

كيف ولدت أنا وكيف ولدت أنت ؟ لقد سبقنا إلى الدنيا طوفان هائل من دموع الأمم ومن دمائها وبعد هذا الطوفان ولدت أنا وولدت أنت ! إن الطفل كسفينة نوح لا بد أن يسبقه الطوفان ليسبح وبعد ذلك يرسو على أرض جافة لتستمر الحياة من جديد .. لا بد من الطوفان لكى يكون هنالك ميلاد جديد .

* * *

وأنا كلما رأيت بيتا ينهار حسدت البيت المنهار ، وكلما رأيت بيتا يقام حسدت البيت الجديد .. إننى لست حاسداً أحداً ، ولست حاقدا على أحد ، ولكننى .. أريد أن ينتقل بعض هذا الطوفان إلى نفسى .. أريد أن ينتقل إلى قلبى إلى عقلى .. اريد أن ألقى بالبيوت القديمة إلى الماء،أريد أن أغرق الأوهام التى تعيش فى نفسى والتى تعيش فيها نفسى .. أريد أن تذوب دموعى الجافة ، أريدها أن تذوب ، ولكن فى طوفان جديد .. أريد طوفانا لا يترك فى نفسى إلا القليل الذى أنجو به كما نجا نوح عليه السلام ، لتستمر حياتى من جديد .. أريد أن أنزل فى بحر هائل ، وأن يظل رأسى فوق الماء ، لكى أتمكن من السباحة ومن النجاة .. ومن معاودة الغرق من جديد !

أريد أن أفعل كما يفعلون فى بلاد الهند .. فهم هناك ينزلون إلى أنهارهم المقدسة مرة كل عام .. يغتسلون فيها من آلام العام الماضى ، وأقذار الحياة ويتركون كل شيء فى الماء فإذا عادوا إلى الشاطىء كان العالم الجديد قد أشرق على أجسام نظيفة ونفوس نقية .. على استعداد لأن تتسخ من جديد، وأن تهبط النهر المقدس في العالم التالى ، لتغتسل من

جديد .. لا بد من الغرق ، لتكون هناك نجاة ، لا بد من الطوفان لتكون هناك حياة .. وليكون ميلاد ، والميلاد بعد الطوفان !

وعند اليونان القدماء قصة تقول إن أحد الأبطال عندما ولد أمسكته أمه وألقته فى النهر عشر مرات . وتقول القصة إن هذا البطل قد أصبح أقوى رجال اليونان على الإطلاق ، فالسهام والرماح والسيوف لا تنفذ من جلده .. لأنه غرق فى الماء المقدس ولكن يظهر أن الأم عندما كانت تلقى بابنها فى النهر ، لم تكن تتركه أبدا ، وإنما كانت تتشبث بإحدى قدميه .. فلم يبتل المكان الذى كانت تمسكه منه .. فأصبح جسمه كله منيعا لا تنفذ فيه السهام ، إلا هذا المكان الذى كانت تمسك به الأم .. وقد عرف أعدؤه ذلك فصوبوا سهامهم إلى حيث كانت تمسك به الأم : فمات من أول سهم . ولو صوبت ملايين السهام إلى قلبه أو رأسه ما أصابه منها شىء !

فلو كانت أمه قد أغرقته تماما ، لعاش وعاش وتحطمت على أظافره السهام والرماح والسيوف .. والموت نفسه !

وأنت .. ألا تريد أن تعيش ؟ يجب أن تغرق ولو مرة واحدة !

ولكن أين يجب أن تغرق ؟ وأين يجب أن تغرقى ؟

فى شىء واحد .. هو العاطفة الجديدة .. ذلك هو النهر المقدس الذى يجب أن ننزله ولو مرة فى حياتنا .. وليس أقوى من الحب ! فالحب طوفان كطوفان نوح عليه السلام تختفى تحته المياه والغابات والثمار والحيوانات .. والحب هو الألم لأنه لا حب بغير ألم . لأن الحب حنين دائم إلى شىء لا يتحقق دائما . فالحب أن تطلب الكثير ، ولا تفوز إلا بالقليل وإذا فزت بشىء تطلعت إلى أشياء .. فالحب أمامك دائما وأنت لا تدركه .. إنه ماء كله ملح .. كلما شربت منه أحسست بالعطش

ولن ترويك مياه الطوفان ، فالحب هو الحريق الذى تتدفق فيه أنهار من البنزين ، فلا النيران تنطفىء ولا البنزين يجف ، إنه طوفان من النيران !

* * *

لا تخف من الطوفان ، فإن ابن نوح عليه السلام الذى خاف من الطوفان قد أغرقه الطوفان ، وإن أم البطل اليونانى الذى خافت على ابنها من الغرق قد قتلته بخوفها وحرصها ، فهم يغرقون كل عام فى الهند ولا يموتون !

فليس حيا من لم يغرق مرة واحدة ، وليس حيا من لم يحترق مرة واحدة ، والذى يتألم هو الكائن الحى فعلا ، أما الذى لا يتألم فليس حيا ! وأعظم الأحياء من يجعل مسبحته من الدموع ، ومن يجعل دموعه تنزل واحدة واحدة ، مع كل مرة يرتفع فيها قلبه ، إنه الألم الذى خلق الرغبة فى الحياة والمزيد من النور ، والمزيد من الألم أيضا !

يجب أن تغرق مرة واحدة لتولد بعد ذلك ، يجب أن تحترق مرة واحدة لتولد من جديد .. يجب أن تحرص على الطوفان مرة واحدة لتوهب لك الحياة دائما !

قرية وكبارية

كانت مفاجأة عنيفة عندما علمت بمأساة أحد أصدقائى الأجانب.

لم أسمع بمأساته من أحد من أقاربه فإنهم يتسترون عليها ، عملا بالحديث النبوى : إذا بليتم .. فاستتروا .

إن صديقى حى لم يمت ، ولكن يتمنى له أقاربه جميعا أن يموت .

وكل من يراه يقسم أنه مريض ، ولكنه لا يصدق ما يقولون .

كان يعيش وحده ، ولكنه فوجىء فى الأيام الأخيرة ، بعدد كبير من الزائرين يترددون عليه . وكان يتحدث إليهم جميعا بلطف وأدب ويروى لهم أحدث النكت والأخبار . ولكن بعد أن يخرجوا من غرفته يسأل أهله ومن يكون هؤلاء فيقولون له : إنهم أصدقاؤك القدامى .

وكانوا فى الحقيقة جماعة من الأطباء ..

ومن أحد هؤلاء الأطباء استمعت إلى هذه القصة .. فهى تبدأ بطيئة ، كأنها تسير على قدمى طفل رضيع ، ثم بعد ذلك تنطلق بجناحى طائر خائف . والقصة تبدأ بوفاة والد هذا الشاب . وكان إذ ذاك فى

العشرين من عمره، وقد ترك له أبوه أخوة ومائتى فدان وعشرة آلاف جنيه. لقد أصبح بلغة أهل الريف «عميد الأسرة» أو «رشيد العائلة» أو «سيد البيت .. أو السيد المطاع ».. كل هذا وهو فى العشرين !

وأمسك هذا السيد الصغير بزمام أخوته وأمه وأسرته والمستأجرين وأهل القرية . وامتلأت يداه بالمال وبيته بالأصدقاء ، وضاق عنه الليل والنهار . وازداد عدد الذين يركبون فى سيارته «الكاديلاك».. هذا اسم جديد دخل حياته وحياة أسرته وقريته .. ثم انتقل إلى القاهرة ، وبدأ يتغيب عن أسرته أياما ثم شهورا ، ثم أصدر أوامر بانتقال الأسرة كلها إلى القاهرة ..

وأصبحت والدته قريبة من ضريح السيدة زينب ، وأصبح هو قريبا من الكباريهات .. من صناديق الليل .. والليل معناه الخمر والنساء والسهر وأمراض الكبد والمعدة والإمساك وضيق التنفس . ولكن هذه الأمراض لم تنل منه إلا القليل ، أما الكثير فقد كان من نصيب المرأة .. فقد نالت من ماله ومن صحته ومن اسمه واسم العائلة .. لأنه عميد العائلة !

ويقول الطبيب إن هذه هى المرحلة الأولى من مأساته .. إنها مرحلة الطفل الذى أراد أن يكون رجلا فتخيل أن الرجل هو الذى يلبس بنطلونا طويلا وله شارب ومعه مال ويسهر طول الليل ، فما كان منه إلا أن أطال بنطلونه وأطلق شاربه وسهر حتى الصباح .. ثم ظل طفلا !

أما المرحلة الثانية فهى أنه آمن بأنه رجل وأنه قادر على كل شىء .. فلا شىء يقف فى وجهه . والناس جميعا كأخوته فى طاعتهم له ، وكوالدته يجب أن يدللوه مثلها ، وأن الناس كالخدم الذين يعملون عنده .. له أن يأمر ، وعليهم أن يطيعوا .

وحاول أن يسجل أحلامه فراح يكتب مقالات وينظم شعرا واستطاع

أن ينشر بعضها فى الصحف . وكان لها صدى قوى من ضحك الناس . ولكنه آمن أنه أديب ، وقال له أصدقاؤه أين طه حسين منك ، وأين توفيق الحكيم ، بل وأين يذهب العقاد ؟

وصدق هو هذا كله !

وفكر فى أن يهدم هؤلاء جميعا . وحاول أن يهدمهم فى مجالسه وفى محادثاته التليفونية وفى الخطابات التى بعث بها إليهم . وراح يرفع يديه فى الهواء مهددا ، ويدق الأرض برجليه منذرا ، ويمرن لسانه استعدادا لليوم العظيم ..

ولم يأت ذلك اليوم العظيم !

عاد الأصدقاء يقولون له : إن صوتك جميل إذا لعبت الخمر برأسك .. أجمل من صوت عبد الوهاب . أما إذا سقطت على الأرض ونزلت الدموع من عينيك فأنت أروع من فريد الأطرش ..

فأخذ يغنى ويبكى . وحاول أن يسجل هذه الأغانى وهذه الدموع . ولكن الإذاعة المصرية رفضت .. فقرر أن يبيع أرضه جميعا ويذهب إلى إنجلترا ليتعلم الفن الإذاعى ثم ينشىء محطة أهلية .

وانتظر الناس .. وما زالوا ينتظرون !

ثم قال له الأصدقاء المخلصون : إنه لا توجد امرأة تستطيع أن تقاوم سحر عينيك وشبابك ومالك وسلطانك واسمك .. وإن هناك «هلافيت» ركعت المرأة تحت أقدامهم ..

لقد كان «دون جوان» فقيرا .. وكان «كازانوفا» مفلسا .. و«جوليانو» الذى أثار الصحف العالمية فلاحا غبيا .. ولكن المرأة عبدتهم من دون الله. وهناك أميرات معروفات تركن القصور والعروش ، وانطلقن وراء بلطجية آخر الليل ! ولكنك شاب غنى وحر حرية كاملة !

وصدق هذا كله !

ودخل عالم المرأة من جميع أبوابه .. ذهب إلى العائلات .. وتمسكت العائلات بالتقاليد والآداب التى تركها .. ثم راح يدق باب إحدى الفتيات وألح فى الدق وكاد يتحطم هذا الباب .. وفتحت له الفتاة قلبها ووعدته بأن تقبل الزواج منه .. وذهب الفتى إلى أصدقائه يزف لهم هذه البشرى السعيدة وهذا الانتصار الساحق .. وأحس الأصدقاء أن الأوزة التى تبيض لهم ذهبا ستطير من أيديهم .. فاتفقوا على إرسال خطابات لهذه الفتاة بأسماء فتيات أخريات .. وقالوا فى هذه الخطابات إن هــذا الشاب مستهتر وإنه قد وعد عشرات غيرها بالزواج ولكنه تخلى عنهن فى آخر لحظة !

وعدلت الفتاة عن الزواج . وكانت الصدمة الأولى !

وانتقل الفتى إلى صناديق الليل .. وفى صناديق الليل راحة للمعذبين ، وراحة للجيوب المنفوخة .. وكل من فشل فى حبه ، أو فى صداقته له مكان فى قلوب بنات الليل .. فالكباريهات عالم مستقل بتقاليده وعاداته وأصوله ، وله ملوك وله ملكات وله عملة متداولة .. وكل شىء فيه أسرار وفيه ألغاز .. وكل شىء خاطف وكل شىء يظهر بسرعة ويختفى بسرعة .. وفى هذا العالم ظهر هذا الفتى ودارت حوله الأضواء ، ودارت حول الأضواء راقصات وغانيات .. وعرف الحشيش والأفيون والقمار .

وفى صناديق الليل وقفت عينه وقلبه عند فتاة .. وفى لحظة من لحظات ضعفه ، ولحظات قوتها هى وعدها بالزواج وطالت عشرتها له وأحبها حبا حقيقيا ، وكان يحدث أصدقاءه عن كل ما يدور بينهما .. وكان يقول لهم إنها صاحبة أجمل شفتين وأعنف قبلة فى العالم ..

واكتشف أنها تضع أفيونا تحت لسانها .. وكلما قبلها أطلقت ريقها فى فمه فإذا هو مخدر وإذا هو مسحور .. وإذا هو يكتشف بفضل أصدقائه ، أن هذه الفتاة وحدها ودون سائر الفتيات هى التى أصابته بمرض خبيث .. وهذا المرض الخبيث ليس إلا أثرا من آثار خيانتها له ..

* * *

وكانت الصدمة الثانية .. ونهاية المرحلة الثانية التى آمن فيها بأنه رجل وأن البنطلون الطويل والشارب الأسود جواز السفر إلى المريخ والدخول والخروج من قلب أى امرأة .. وراح يضرب رأسه فى الحائط وكان رأسه يرتد إليه ، وفى كل مرة يتحطم برج من أبراج عقله ..

وبدأت المرحلة الثالثة .. وكأنها المرحلة الأخيرة من مراحل سباق السيارات ، كل شىء فيها سريع : كله عرق ودموع ..

لقد دخل بيته وأقفله على نفسه وعلى أهله .. ونزع التليفون من البيت وأنزل الصور المعلقة على الحائط وجمع خطاباته القديمة وأحرقها جميعا واستدعى باشكاتب الدائرة وأملى عليه مائة رسالة إلى أصدقائه وأعدائه من الرجال والنساء وهددهم جميعا بالقتل إذا حاول واحد منهم أن يزوره . ثم أرسل خطابا إلى فتاته الأخيرة وطلب إليها أن تختار السلاح الذى تريد أن تموت به .. فى ظرف عشر سنوات .

ثم أمر بنقل الأثاث الموجود فى البيت والقائه فى الشارع ، وترك غرفة واحدة فى البيت أقفلها على نفسه ليلا ونهارا . وطلب من أهله أن يعطوه ورقة وقلما . وأخذ يكتب أسماء كل الناس الذين عرفهم وجعل يمزق الورقة ويضحك .. وتنزل الدموع من عينيه ومن عينى أمه وأخوته .. ثم أمسك ورقة أخيرة ووضعها على الأرض ووضع القلم بين أصابع إحدى قدميه وأخذ يكتب اسمه هو . وطلب الى الطبيب أن يمزق هذه

الورقة قائلا : أنا أقول إن الناس جميعا مجانين . والناس جميعا يقولون إننى مجنون . ولكن الناس أكثر عددا منى وأقوى منى ، ولذلك لا يصدقنى أحد .. وما دام الناس قد أصبحوا أعدائى ، وأنا مزقت أسماءهم جميعا . فلا حياة لى فى هذا العالم . مزقنى يا دكتور !

وانتهت المرحلة الثالثة من المأساة .. فقد أحس الشاب أن البنطلون والشارب والسهر حتى الصباح لا قيمة لها .. فنزع ملابسه وحلق شاربه ونام ليلا ونهارا .. وارتد طفلا عاريا من كل ثوب وكل عقل هاربا من الناس جميعا وخائفا منهم حاقدا عليهم .. لقد اختفى الرجل ولم يبق إلا الطفل .

وسألت الطبيب : ألا يوجد هناك أمل ؟

فقال : أن يموت !

خطاب من مجهول

أنا لا أذكر السفر إلا تخيلت البـــاخرة والبحر والموانىء والوديان والجبال والموسيقى والفاكهة والوجوه السمراء والأعشاب والغابات لا أكاد أذكر ذلك حتى يطير النوم من عينى .. يطير ولا يعود .. وأحس كأننى أمام برج من الحمام .. فأحاول أن أعيد الحمام إلى البرج .. فأشير بيدى وأضع الحبوب على الأرض ، وأتحايل عليه بالموسيقى وبالطعام وبالاسترضاء ، ولكن النوم لا يجىء . إنها فكرة «السفر» التى تطرد النوم من كل خلية من جسمى !

أذكر أننى عندما كنت فى فيينا تلقيت خطابا من روما يدعونى إلى السفر فورا فى مدى يومين على الأكثر .. وكنت قد قررت أن أبقى أربعة أيام .. فذهبت إلى ترجمان صديق أعرفه منذ سنوات وطلبت إليه أن يرافقنى ليلا ونهارا لأرى معالم المدينة... ففى الصباح كنت أتفرج على تماثيل كبار مؤلفى الموسيقى والبيوت التى نزلوا فيها .. ثم أطراف المدينة ومتاحفها وقصر النبع الجميل .. إنى لم أنم يومين كاملين .. فما دامت

فكرة السفر قد دخلت رأسى ، خرج النوم من عينى !

وقد تعودت أن أنام فى القطارات .. والذين يسافرون يعرفون أن النوم فى القطارات معناه توفير أجرة اللوكاندة .. وحان موعد السفر وحملت حقائبى القليلة . فقد تركت بقية الحقائب فى روما ، ولا بد أنها ضاعت أو سرقت أو حرقت أو لا بد أن القيامة قامت فى روما وحدها ، وأننى مطلوب ليُوقَع على الجزاء والحساب ..

واتجهت نحو العربة التى كتب عليها «فيينا — روما» ووضعت حقائبى فى عربة الدرجة الثالثة الجميلة النظيفة التى تخجل منها عربات تكييف الهواء فى أى قطار مصرى .. ولا مبالغة فيما أقول .. واسندت رأسى إلى الوراء .. وأدركت أن أمامى ٢٧ ساعة يقطعها القطار أو تقطع هى القطار ، ٢٧ ساعة وأنا على هذه الحالة من التعب المميت .. ولم يكد يتحرك القطار حتى أحسست أن عجلاته تسير فوق رأسى .. وأن الساعات الطويلة هذه ستكون أطول ساعات مرت بحياتى ... والزمن يطول ويقصر .. إنه طويل على المتعب على الوحيد ، ولكنه قصير على الهادىء السعيد ..

إذن أمامى ساعات طويلة كلها حديد وضجيج ، يسحق رأسى وقلبى .. ساعات من الزحام والهواء المكتوم قبل أن أبلغ مدينة روما ..

وعاودت إسناد رأسى إلى الوراء .. وأغمضت جفنى على نار تكوى وتلسع .. وكنت أتمنى أن أغمض أذنى عن عجلات القطار وكلام المسافرين .. وأحسست أن جسمى ثقيل وأن رأسى ينكسر ، وأن أعصابى كأسلاك التليفون لها أزيز ورنين .. وأن عينى قد أعلنتا العصيان فلا أستطيع أن أقفلهما عندما أريد ولا أن أفتحهما عندما أشاء .. لقد احتلنى التعب وأخذ يصدر أوامره كما يحلو له .. إن قوات أجنبية تحتل

جسمى ، وإن حالة الطوارىء قد أعلنت .. فلا الدم يتحرك ، ولا النوم يجىء !

وتلفت حولى فوجدت سيدتين .. إحداهما تحمل مجموعة من الصحف والأخرى تحمل مجموعة من الخيوط .. إنهما تقطعان الوقت أسرع مما يقطعه القطار . والإنسان يقطع الوقت بالموسيقى وبالقراءة وبالنوم وبالأكل وبالشراب وبالكلام .. أما أنا فلا أقطع شيئا ، وإنما يقطعنى كل شىء .. يقطعنى الجوع ويقطعنى العطش ويمزقنى التعب ويحطمنى السهر ..

ونظرت أمامى فوجدت سيدتين أخريين إحداهما عكفت على السندوتش والأخرى تتهيأ للنوم .. وإلى جوارهما طفلة فى التاسعة تلاحق بعينيها حركات الجالسين جميعا .. وجوههم جميعا مشرقة كالفاكهة الطازجة ، وعيونهم لامعة كأنها لم تنفتح إلا منذ لحظة .. وكنت لا أعرف كيف أستوى فى مقعدى ..

وكلما تخيلت أن أمامى ٢٧ ساعة .. وأننى فى صندوق مكتوم يتحرك ولا ينفتح ، وأننى لا أستطيع أن أقفز من باب أو من نافذة .. كلما تخيلت ذلك أحسست أننى سأموت قبل أن أبلغ أية محطة تالية !

فأنا كالهنود أجلس على المسامير ، وأبلع النار ، ورأسى ينقطع ولا يطير فى الفضاء .. ولا أستطيع أن أقف ولا أن أقعد ولا أن آكل ولا أن أشرب .. ولا أن أبلل شفتى ولا أن أبلل عينى .. إننى جاف تماما ، لقد جف ريقى وجف رأسى ، وجف المقعد تحتى ، وجفت الأصوات فى أذنى .. إننى كمصاصة القصب !

وجعلت أفكر فى أساطير القدماء .. وكلما فكرت فى شىء أحسست أننى كإنسان عريان يمشى بين أشواك .. أخشى أن أميل يمنة وأخشى

أن أميل يسرة وأخشى أن أقف وأخشى أن أقعد .. الطريق كلّه شائك.. لقد كان القدماء يقولون إن إله النوم واسمه «مورفيوس» له زورق جميل ينتقل به في عيون الناس .. وكان لا يلمس عينا إلا نامت ، ولا يخطر برأس إلا أخذ صاحبه يحلم ، وكان يبكى على خدود الساهرين ، ويصلى للمعذبين .. فأين هو ؟ إنه لا يستطيع أن يصل إلى عينى .. فالنافذة مقفلة والباب كذلك .. والزحام شديد . !

* * *

وحاولت أن أجد وجوها مثلى متعبة مكدودة فلم أجد .. فلا تعب ولا ملل .. بل وجوه شقراء لامعة ، وعيون زرقاء نافذة .. والفتاة الصغيرة لم أكد أنظر إليها حتى نهضت وأعطتنى مجلة كانت قد سقطت منى أو طارت منى كما طار النوم .. فشكرتها وسألتها إن كانت تريد قراءة بعض المجلات التى معى فشكرتنى وقالت ضاحكة : بعد نصف ساعة !

وضحكت ولم أفهم .. والرجل الغريب يضحك كثيرا وليس ضروريا أن يفهم .. يجب أن يضحك الآن ، أما الفهم فبعد ذلك .. وحاولت القراءة فلم استطع . !

وجاء الكمسارى.. وأعطيته تذكرتى .. أما الفتاة فيبدو أنها أضاعت التذكرة .. فدفعت لها فشكرنى الكمسارى أمّا هى فأصرت على أن تدفع فى المحطة التى ستنزل بها ..

وما هى إلا دقائق حتى نهضت السيدة التى تجلس إلى جوارى .. وانتقلت الفتاة إلى جوارى وسألتنى عن المجلات .. وقالت ضاحكة : ألم أقل لك بعد نصف ساعة؟.. ثم أخذت تروى لى قصصا وفكاهات كأننى أعرفها منذ سنوات طويلة .. وكان صوتها اول الأمر يتردد فى رأسى كما لو كان يتردد فى حجرة خالية .. كان مدويا .. وعرفت منها

أنها ستنزل في مدينة بولزانو .. وهى مدينة فى شمال إيطاليا ويسكنها عدد كبير من النمسويين .. وفتحت حقيبتها الصغيرة وأرتنى صور أبيها وأمها وأخيها الذى مات فى الحرب وعمها وخالها ومعظم أفراد الأسرة .. وراحت تروى نوادر المدرسة وتقلد المدرسات والمدرسين .. فهذا المدرس أخنف لأن منظاره كبير ويضغط على أنفه .. وهذا المدرس شفتاه محروقتان من كثرة التدخين ، فكأنه يدخن السيجارة من طرفها المشتعل .. وهذه المدرّسة قصيرة جدا لأنها متواضعة ولا تحب أن تعلو عن سطح الأرض .. وإن ناظرة المدرسة تضع دائما فى مكتبها كوبا من الماء تغمس فيه لسانها لأنه يجف من كثرة الكلام .!

ولا أذكر أننى ضحكت فى حياتى كما ضحكت من كلامها وتمثيلها ومحاكاتها للأصوات وحرصها على أن أنظر إلى شفتيها وعينيها وأنفها وهى تتكلم . وسألتها : ألا يوجد فى أسرتكم أحد يشتغل بالتمثيل أو السينما ؟

فأجابت بأن خالها ممثل معروف وصاحب دور للسينما .. وأن خالتها لها مسرح صغير ولكنها مشهورة .. وسألتنى إذا كنت قد رأيت صورها.. فخجلت أن أقول لا .

ولما قلت لها : إنك ممثلة بارعة .

قالت : إياك أن تقول ذلك أمام أمى .. فإنها تغضب .. أما أبى فأنه يدعوك إلى شرب النبيذ معه . هل فهمت ؟

ونهضت الفتاة فجأة ونظرت من النافذة وقالت : أين نحن ؟ إننا فى أنسبروك .

فقلت : مستحيل !! هذا معناه أننا قطعنا كل هذا الوقت .. كم ساعة .. ست .. سبع ساعات .. مستحيل !

ونهضت أنظر من النافذة .. إنها انسبروك فعلا .. إذن لم يبق للفتاة سيلفيا – وهذا اسمها – إلا بضع ساعات قبل أن تبلغ مدينة بولزانو . إن هذه الصغيرة قادرة على أن تذيب الزمن والملل فى كأس واحدة وتشربهما معا .

ولمحت المطر ينزل غزيرا على زجاج النافذة وتمنيت لو أن لى القدرة على فتح النافذة وإخراج رأسى منها .. إن رأسى كقطعة من الحجر فى صحراء جافة .. إنها تحتاج إلى أمواج من المياه الجليدية .. ولكننى لم أستطع النهوض لأفتح النافذة وإنما بقيت فى مكانى قطعة من الخشب على مقعد من الجلد .

وجعلت أتنقل مع الفتاة فى بيوت أسرتها وأقاربها وشوارع بولزانو ومحال اللعب والحلوى .. وتسألنى ما رأيى فى أبيها وفى أخيها وفى أمها . كل هذا وأنا جالس إلى جوارها فى القطار . إن براعتها تحسدها عليها مئات الفتيات .. ونظرت سيلفيا إلى النافذة مرة أخرى وقالت : أريد عنوانك فى مصر وفى روما . فأنا سأنزل بعد ربع ساعة تقريبا !

لقد وصلنا بولزانو . ونزلت سيلفيا الصغيرة .. ونهضت أنظر إليها من النافذة .. وأخذ المطر يطفئ جلدى الملتهب وكنت أسمع صوت قطراته تجلجل فى أذنى .. ولم أجد أحدا ينتظر الفتاة على الرصيف .. وظلت واقفة تحيينى وتقبلنى فى الهواء .. حتى حجب المطر عنى صورتها وقبلاتها .

* * *

وعدت إلى مكانى لأجد ضيفا جديدا لم يكد يرانى حتى مد علبة السجائر وقال : تفضل يا صديقى !

وشكرته .. ولكنه أصر .. وجعل يحدثنى كما لو كنت أعرفه قبل

ذلك . إنهم الإيطاليون يواجهونك ويملأون رأسك وعينك فى دقائق .. وفتح حقيبته وأخرج زجاجة من النبيذ وبعض الجبن وملأ كوبا وقدمه لى قائلا : ألست إيطاليا من الجنوب ؟ فقلت : أنا مصرى ! فقال : أهلا .. إن لى أقارب يعيشون فى الإسكندرية .. ولكن يبدو عليك التعب .. تناول هذا الكوب .. فإنه يريح الأعصاب ويجلب النوم .. وفى المحطة القادمة نشترى زجاجة أخرى نتقاسمها معا .

ومددت يدى .. وانتقل النبيذ من فمى إلى رأسى .. إلى أذنى .. وتوالت الأكواب .. وأخذ صوت القطار يخفت ، وأخذ الضباب يملأ الحجرة ، وأخذت النار تنتقل إلى رأسى .. ولم أعد أسمع بوضوح .. وفجأة أحسست أن أجفانى تتساقط فوق عينى ، كما تتساقط النوافذ الخشبية من اهتزاز القطار ..

ولا أدرى بعد ذلك أن الضياء يملأ العربة وأن الوجوه التى أراها مختلفة تماما عما رأيت من قبل .. والأصوات ليست صارخة ، وعجلات القطار ليست مزعجة .. والوجوه سمراء ، والعيون عسلية والشعر أسود ، والأجسام طويلة ، والفاكهة فى كل يد وعلى كل خد وفى كل صدر والجبال عالية والوديان خضراء .. إننا فى إيطاليا .. إننا فى قلب الوادى الجميل فى شمال إيطاليا .. لقد انقشع الضباب أمام عينى ، وتوارت الحواجز أمام أذنى .. وانتعش رأسى ، وخف جسمى .. إنه النوم الساحر ، والتعب القاتل . ! !

ونظرت إلى الحاضرين مرة أخرى .. كلهم يبتسم .. فقلت : صباح الخير : فضحكوا لأننا لم نكن فى الصباح فقد تجاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر .. وأشاروا إلى صدرى فوجدت ورقة قد شبكت بدبوس .. ونزعت الدبوس .. انه جارى الإيطالى . قد تركنى نائما وكتب

هذه الرسالة قبل أن ينزل فى ميلانو وهو يقول فيها : اسمى ماريو جاردى – صاحب ورشة ميكانيكية بشارع جاريبا لدى رقم ١٢٧ بميلانو .. أتمنى لك أحلاما سعيدة وزيارة فى العام القادم !

إذن لقد تجاوزنا ميلانو .. فلا بد أننى نمت أكثر من سبع ساعات ولا بد أن المسافرين قد جعلوا يتحدثون عن هذه الورقة ولا بد أن بعضهم أخذ يرثى لحالى .. ولا أدرى ماذا قالوا .. ربما قالوا إنه مهاجر .. أو إنه شاب مكافح أو شاب عابث .. لا أدرى . لقد كنت على أى حال موضوع رثائهم وإشفاقهم أو سخريتهم .. لقد كنت نائما، ولم أملك الدفاع عن نفسى !

لقد نمت تحت ضغط التعب وثقل الزمن ، ورعشة النبيذ وسحر إيطاليا .. وجعلت أنظر من جديد إلى وجوه الحاضرين .. فلا وجوههم حمراء ، ولا عيونهم صغيرة ، ولا أصواتهم صارخة ، ولا عجلات القطار تأكل القضبان .. وإنما الوجوه كلها حيوية ، والعيون كلها سحر ، والقطار ينزلق فى وديان خضراء ، وبين جبال شامخة تسربت ثلوج الخريف المبكر إلى رؤوسها ، كما تسربت الشعرات البيضاء إلى رأسى . إنه خريف الطبيعة وخريف العمر !

* * *

لم تبق أمامى إذن إلا ساعات قليلة لأبلغ روما .. وأرى المفاجأة الكبرى هناك .. ومددت يدى إلى جيبى لأقرأ الخطاب الذى تلقيته هنا فى فيينا .. كدت أسقط فى أرض العربة .. إنه لا يطلب منى أن أسافر إلى روما بل أن أبقى بفيينا يومين آخرين .

لقد وصلت صاحبة الخطاب إلى فيينا عندما وصلت أنا إلى روما .. لقد طار النوم من عينى ، ولم يطر وحده هذه المرة بل طار معه عقلى !

أسئلة جنسية.. وأجوبة خرافية

اذا كان لك ولد صغير وجاء إليك فى دهشته البريئة يسألك : من أين جئت أنا ؟ من أين يا بابا ؟

فماذا تقول له ؟ هل تستطيع أن تقول له الحقيقة ، كل الحقيقة ولا شيء إلا الحقيقة ! وهل تستطيع زوجتك كذلك ؟

ان ٩٠ فى المائة من الأمهات المصريات والآباء المصريين لا يقولون الحقيقة وإنما يتوارون منها خجلا وخوفا ، ويتركون الطفل يشمشم فى الشوارع على «حقيقته». هذه هى المشكلة التى يتستر عليها أبوه وتهرب منها أمه !

والذى يحدث هو أن يدور الحديث التالى بين الطفل وبين أبيه وبين أمه . وعلى هذه الأسئلة والأجوبة يتوقف مصير الطفل ، مصيره مع نفسه ومع الناس ، ويتوقف اتجاهه نحو الجنس الآخر :

يقول الطفل : من أين جئت يا بابا ؟

يجيب الأب : ماذا تقول ؟

– أين كنت يا بابا ؟

– لقد وجدناك فى صندوق صغير عند باب المسجد ... ثم نقلناك إلى البيت .

– ومن الذى وضعنى فى الصندوق ؟

– إنها عصفورة صغيرة !

– ومن أين جاءت العصفورة ؟

– إنها جاءت من السماء

– ولماذا جاءت ؟

– لقد أرسلها الله

– وأختى الصغيرة لماذا تنام مع ماما ؟

– لأن ماما ترضعها .

– وأنا لماذا لا أرضع ؟

– لقد كبرت

– وعندما كنت صغيرا ، هل كنت أرضع ؟

– طبعا .

– وميمى أبن خالتى من أين جاء ؟ إنه يقول إن أمه هى التى ولدته؟ كيف ولدته يا بابا ؟

– كان فى بطنها ثم نزل .

ولكن من الذى أدخله فى بطنها ؟ ولماذا نزل ؟ هل نزل وحده وماذا كان يعمل فى بطنها . وكيف كان يأكل .. وهل أستطيع أن أدخل بطن ماما مرة أخرى ! !

وعشرات من الأسئلة التى يعرفها كل أب وتسمعها كل أم ، ويكذب

الاب ، وتهرب الأم ، ويضيع الطفل بين أب خائف وأم ترتعد .. ويروح يتلقف الإجابة على أسئلته من الشارع ، من هذا البائع أو من هذا البواب أو من هذا الخادم ، أو من الأطفال الذين يكبرونه فى السن .!

ولكن مهما كانت الإجابة .. فإن الدهشة لن تتركه ، والحيرة لن تتخلى عنه .. ويظل يبحث عن هذا السر الذى يحاول أبوه أن يخفيه عنه وتحاول أمه أن تتستر عليه .. ويفتح الطفل عينيه على أمور غريبة .. فأخته الصغيرة تلبس ملابس مختلفة ولا تنام معه فى السرير ، ولا تنزع ملابسها أمامه ، وأبوه وأمه ينامان فى حجرة واحدة وفى سرير واحد ويحرصان على أن يتم ذلك كله فى السر دون أن يعرف الطفل .. أما السبب فى ذلك ، فالطفل يسأل عنه فى الشارع ويجد هناك عشرات الأجوبة !

ويحس الطفل أن أباه يخفى عنه شيئا ، وأنه يضلله ويلقى عليه بمعلومات كاذبة خرافية ، فلا يصدق أباه ولا يحاول أن يكون صديقا له ولا يجالسه ولا يسأله .. ويحس كذلك أن أباه وأمه يتعاونان على بناء حائط أو «ستار حديدى» بينه وبينهما من ناحية ، وبينه وبين كل طفلة أخرى. فيحاول دائما أن يكون بعيدا عن أية طفلة فى البيت أو فى البيوت المجاورة .. يجب أن يكون إذن وحده بعيدا عن الفتيات .. والفتيات كذلك يجب أن يكن بعيدات عن الأطفال .

ولكن الطفل يحاول أن يلتمس «ثغرة» فى هذا «الستار الحديدى» الذى يفصله عن البنات الأخريات .. فيروح يرقبها عن قرب وعن بعد .. جسمها مختلف عن جسمه ، وشعرها وصدرها وصوتها وملابسها ، وكلما قرب منها ، تذكر صوت أبيه ولعنات أمه .. فجعل يبعد عنها ،

ويخاف منها كأنها حيوان مفترس له أنياب ومخالب . وجعل يرى فيها عيوبا لا نهاية لها .. فهى كاذبة وهى خائنة وهى ضعيفة وهى أنانية ..

ويزداد الستار الحديدى ارتفاعا ويزداد طولا وعرضا . ولا يستطيع الفتى أن يبلغ الفتاة دون أن يتسلق هذا الستار الحديدى .. يتسلقه خلسة أول الأمر ، ثم يتسلقه علنا وأبوه ساخط وأمه كارهة ، والناس من حوله ترميه بالطوب وبالرصاص !

لقد فتح عينيه على ألغاز ، وكبر على خرافات ، وتعلم أن يكون بعيدا عن بنات الجنس الآخر ‏-.. فى البيت وفى المدرسة وفى الشارع ، وأن ينظر إليها كما ينظر السجين من وراء الأعواد الحديدية !

فإذا التقى بالفتاة بعد ذلك فى الشارع وامتدت يده إليها ، فلأنه يريد أن يعرف هذا الكائن الغريب .. إن يده هى الأخرى محبة للاستطلاع وإذا التقى بها في الجامعة ، وشغلته عن الدرس وشغلها هو الآخر عن الدرس فلأن كلاً منهما جديد عن الآخر ، ولأن كلا منهما مجهول ومخيف وكريه .. وإذا وضع الشاب يده فى جيبه وراح يديرها يمينا وشمالا ، ثم أخرجها وأطلق الرصاص على أية فتاة ، فلأنها حيوان مفترس ، ولأننا نقتل الحيوانات المفترسة !

ويكبر كل طفل وقد تعلقت فى أذنيه كلمة واحدة هى كلمة «عيب» ... عيب يا ولد .. عيب يا روح ماما .. عيب يا ابن الـ ..

وكلمة «عيب» مرتبطة دائما بكل شيء يتعلق بأبناء أو بنات الجنس الآخر .. الكلام مع البنت عيب ، والجلوس إليها عيب ، والنظر اليها عيب ، والتفكير فيها عيب العيب .. فالمرأة صغيرة أو كبيرة هى «بعبع» الطفل والشاب والرجل . مع أن المرأة هى أمى وأمك وأختى وأختك وابنتى وابنتك .. إنها نصف هذا المجتمع . ولا يمكن أن يكون لدينا مجتمع

سليم ما دامت حياتنا تبدأ بأب يكذب وأم تقسم على أن هذا الذى قاله زوجها صدق ، ولا شيء إلا الصدق وكل الصدق ، وما دامت المرأة الصغيرة أو الكبيرة حيوانا مفترسا يجب أن نبعد عنه وأن نخافه وألا نرتبط به وأن نسد آذاننا دون كل نداء جنسى أو همس جنسى .

والمجتمع يا حضرات الآدباء والأمهات هو رجل وامرأة.. والمجتمع الطبيعى هو من الرجال والنساء ، ولكن المجتمع غير الطبيعى هو الذى يتكون من الرجال فقط ، أو من النساء فقط . وهذا نجده فى السجون والمستشفيات والمعسكرات .. فهذه مجتمعات غير طبيعية !

هذه الأوهام يجب أن تتبدد من رؤوس الآباء والأمهات ، وهذه الحواجز بين الفتاة والفتى يجب أن تتحطم .. يجب أن نقرب بين أفراد الجنسين فى المدارس كلها وفى الحدائق وفى الشوارع وفى النوادى وفى كل مكان ..

وأن نحطم كل اللافتات التى كتبت عليها كلمة «عيب».. فالحديث مع الفتاة ليس عيبا ، والخروج معها واجب ومصادقتها أمر طبيعى ، وحبها لا بد منه !

لقد ظل آدم وحواء من الملائكة لم يقبل أحدهما الآخر .. ولم يعانق أحدهما الآخر .. لأنهما من الملائكة .. ولأنهما ظلا كأخوين أو كأختين .. إلى أن نزلا على الأرض فكانت القبلات وكان العناق ونادتهما الطبيعة .. وكانت البشرية !

ونحن لا نعرف أحدا من الملائكة على الأرض ، ولا يمكن أن تعيش الملائكة فيها .. لأن الملائكة هى نوع ممسوخ من البشرية .. وإنما الإنسانية هى التى نريدها ، نريد رجالا ونساء وصداقة وحبا واسرة صغيرة فى المجتمع الكبير !

وهذا المجتمع لن يستقيم أمره ، وتقوى قواعده ما دام الطفل يجهل كل شيء عن علاقة أمه بأبيه وعلاقته هو بهما ، وعن الفوارق بينه وبين حواء ، وما دامت هنالك حوائط عالية تفصل بينهما ، فلا هي صديقة ولا هي زميلة ولا هي شريكة وإنما عدو لدود لا بد من صداقته ، وما دام آباؤنا حريصين على أن يلقوا بنا في صناديق خشبية أمام المساجد ، وعلى أن يجعلونا من نسل العصافير !

شيء آخر غير الحب

أنت زوج لامرأة لا تحبها !

وأنت زوجة لرجل لا تحبينه !

حياة زوجية لا حب فيها .. حياة زوجية تقوم على حب من ناحية واحدة ، وليست على حب متبادل بين الرجل والمرأة .. فواحد منهما يحب الآخر ، وهذا الآخر يقف على الحياد ويخجل أن يقول رأيه بصراحة .. أو لا يستطيع أن ينطق بكلمة لأنه قطع لسانه بيده ، أو أنه ابتلع لسانه مع ريقه .. أو أنه وضع لسانه تحت الحذاء .. حذاء زوجته. !

فهل تستطيع أن تتزوج امرأة لا تحبها ! هل تستطيع أن تنسى أن زوجتك هذه لا تعجبك .. لا كلامها ولا صورتها ولا جسمها ولا عقلها ولا قلبها ولا أبوها ولا أمها ؟. هل تستطيع أن تنسى أن كلامها هو صفعات تنهال على خدك الأيمن والأيسر ، وأن أفكارها شلاليت يتورم لها ظهرك ؟

هل تستطيع أن تأكل طعاما شديد الملوحة ، أو شديد المرارة ؟ هل

تستطيع أن تضع منديلك على أنفك إذا فتحت هذه الزوجة فمها ؟ هل تستطيع أن تغمض عينيك إذا رأيت زوجتك تقف أمام المرآة أو تلبس ملابسها أو تنزع ملابسها قبل النوم أو بعد النوم ؟ هل تستطيع أن تفعل ذلك كل يوم ، كل يوم .. لا يوما واحدا كل أسبوع أو كل شهر !

هل تستطيع أن تتزوج هذه المرأة وأنت تعلم أنك لا تحبها ، ثم تظل تعيش معها ليلا ونهارا ؟ هل تستطيع أن تستمر على ذلك سنوات طويلة ؟

هل تستطيع أن تنام على المسامير وأن تملأ ملابسك بمسحوق النفتالين ، وأن تضع الفنيك فى منديلك .. ومع هذا كله تحس أنك تنام على ريش النعام وأنك تشم رائحة الإربيج والشانيل ومس ديور ، وتحس أن السيدة التى تنام إلى جوارك اسمها «مارلين مونرو» وأنك الرجل السعيد لسنة ١٩٥٥ بعد الميلاد وقبل الميلاد وأنك السعيد بهذا العام والأعوام التالية !

كم يوما تستطيع أيها الممثل العظيم أن تؤدى هذا الدور ؟.. دور الرجل الذى يعلن الحب لزوجته ، وقلبه يلعنه ويلعنها ، ويتحدث عن السعادة ، وهو ينتظر زيارة عزرائيل ، كم يوما ؟ كم يوما أيها الغاندى العريان تستطيع أن تقول إنك أغا خان المليونير الضخم !

* * *

هذا الموضوع قد بحثه عدد كبير من علماء النفس فى إنجلترا ونشرته الصحف الإنجليزية أخيرا .. وقد خرج علماء النفس من سؤال عشرة آلاف امرأة ورجل إلى أن الحياة الزوجية قد قامت على شىء آخر غير الحب .. لقد قامت على شىء . ولكنه لم يكن الحب .. إنه ليس الكره وليس الحقد وليس الانتقام وليس مجرد المنفعة أو المصلحة ، أو الشهوة

الجسمية .. إنه شيء آخر .. أو نوع آخر من العواطف الإنسانية «الحديثة».. إنه التعاون أو التفاهم الواعي .. أو الوعي التعاوني ..

إن الرجل الحديث لا ينظر إلى المرأة على أنها مجرد حيوان جميل ينفجر كل تسعة شهور ويطلق حيوانا صغيرا .. إن الرجل الحديث يريد المرأة المتعاونة الفاهمة.. وقد كان الناس قديما ، أقصد أجداد أجدادنا ، كانوا يبحثون عن المرأة «السمينة» لأن السمنة معناها أنها غنية وأن أهلها يستطيعون إطعامها ، وأن لها عددا من الخادمات يعملن على خدمتها .. كما أن الرجل كان يريد أن يحصل على أكبر صفقة من اللحم الحي .. وكان أجدادنا يسألون عن «بنت العائلات».. إنهم يريدون فتاة أبوها الباشا فلان أو البيه علان .. لا بد أن يكون أبوها من هذا النوع .. فهو رجل له نفوذ وعنده أرض وبيوت ومال .. إنهم يبحثون عن الفتاة الغنية الأصيلة .. وكان أجدادنا يتزوجون دون أن يروا زوجة المستقبل .

ولو سألت أحد أجدادك وقلت له : كيف تزوجت يا جدي العزيز ؟ لقال لك بالحرف الواحد : والله يا ابني الزواج قسمة ونصيب .. أنا عرفت أن الحاج عبد السميع رجل طيب ، وأنه يصلي ليلا ونهارا ، وأن احدا من الناس لم ير زوجته أو بناته .. فطلبت منه ابنته ، وكان هذا الزواج .

وتسأله مرة أخرى : ولكن كيف تتزوج امرأة لم ترها ولم تعرفها أو لم تحبها ؟

فيقول لك : أنا عرفت أباها ، ولا بد أنها كأبيها ، وهذا يكفي .. أما الحب فقد كان بعد الزواج لقد أحببتها وهي أحبتني أيضا .

وتسأله أيضا : ولكن افرض يا جدي العزيز أنها لم تكن كأبيها طيبة وتصلي وتصوم ، وكانت امرأة مشاكسة شريرة فماذا كنت تصنع ؟

فيقول لك وربما يثور عليك : ولكن الحمد لله يا ابنى على هذه القسمة .. فالزواج قسمة ونصيب وتوفيق من عند الله ..

وفى هذه الحالة تسكت أنت .. ويجب أن تسكت لأن أجدادنا كانوا يؤمنون بالزواج قبل الحب .. لا بعد الحب .. لأن الزواج بعد الحب مستحيل ، فليس هناك اختلاط بين الرجل والمرأة ، وليس هناك فرص عديدة لرؤية نساء كثيرات .. ومصادقة هذه وتلك ، وتفضيل هذه على تلك .. فالزواج عندنا اليوم يسبقه شىء اسمه الحب لم يكن معروفا من قبل . !

ولكن يظهر أن أبحاث علماء النفس قد دلت على أن الحب بمعناه العاطفى عند المراهقين ليس هو الأساس الحقيقى للحياة الزوجية .. وهذا الأساس هو التعاون المتفاهم .. أو التفاهم والتعاون . وسبب ذلك أن المرأة الحديثة لم تعد تلك التى تجلس على «الشلتة» وراء النافذه ، أو التى تحبس نفسها فى البيت ، فلا تنظر من نافذة أو من باب .. وكل ما يربطها بالعالم هو الست أم محمود الغسالة ، والست عدلية الخياطة والحبل الذى يتدلى منه «السبت» لتشترى الخضار من البائع .. وبعض المجلات والراديو .. ولم تعد أيضا الفتاة التى تجلس فى البيت قبل أن تكمل تعليمها .. ولم تعد الزوجة المطلوبة اليوم هى الزوجة التى تعتمد على حلاوة رجليها وصدرها ، ولا تهتم بالقراءة والكتاب ورؤية العالم الواسع .

إن المرأة الحديثة اليوم كالرجل الحديث تماما ..

والمثل الأعلى للمرأة هو نفس المثل الأعلى للرجل .. فالرجل المثالى اليوم هو الرجل الذى يعمل ، والذى ينشد الحرية .. أو الرجل العامل الحر ..

فلم نعد نحترم الرجل الذى يعيش عالة على غيره أو على الناس ، لم نعد ننظر نظرة الإكبار إلى من يملك أرضا أو بيتا بلا مجهود .. إننا نحترم الرجل الذى يعمل ، نحترم الفقير الذى يعمل ونحترم الغنى الذى يعمل أيضا .. ونحترم أيضا الرجل الذى يحب الحرية ، حرية الفكر والعاطفة .. الحرية لكل الناس ، للأغنياء والفقراء ..

والمرأة المثالية اليوم هى المرأة الحرة العاملة .. المرأة التى تعمل بيدها ، كما يعمل الرجل ، وتشاركه فى كل مكان وتقف إلى جواره زميلة ، وصديقة وزوجة وأما وأختا ، إنها المرأة الحرة الفاهمة .. المرأة التى لا تغار على زوجها غيرة جنونية ، لأنها تعلم أن الحياة مليئة بالرجال وبالنساء ، وأنهم جميعا يسودهم التعاون والاختلاط ، وأن زوجها إذا ضحك لامرأة وحنى رأسه ، فهو لا يغازلها ولا يخونها ولكنه يحترم هذه السيدة ، ويحترم كل امرأة أخرى ، ويحترم زوجته أيضا .. والمرأة الحرة هى التى تختار مصيرها ، تختار زوجها ، وتختار أولادها أيضا : لأنها اختارت أباهم أولا .. إنها التى تدخل الحياة الزوجية شريكة بمحض إرادتها واختيارها ، اختيار أساسه الفهم والتعاون . إنها المرأة التى تعمل فى البيت وخارج البيت !

ودلت أبحاث هؤلاء العلماء الإنجليز أيضا على أن المرأة الحديثة قد أحست أخيرا أن ميدانها الحقيقى هو البيت وأنها تفضل البقاء فى البيت تعمل فى خدمة أولادها وزوجها ، وتهيئة وسائل الراحة للرجل الكادح والأولاد الصغار .. وأن الرجل يحب اليد الناعمة ، وليست اليد الخشنة التى تشبه يده ، ويحب الصوت الرقيق المتكسر ، ولا يحب صفارة الإنذار أو صفارة المصنع ، وأنه يفضل المرأة فى ملابس البيت أو السهرة ، ولا يحبها فى ملابس الدواوين أو المصانع .. وأن الرجال والنساء جميعا يؤمنون بأن التعاون فى البيت هو أعظم من التعاون خارج البيت .

ولكن النتيجة اللامعة التى انتهى إليها هؤلاء العلماء هو أن الحب يكون بعد الزواج .. إنهم يتفاهمون أولا ، ثم يتحابون بعد ذلك .. أو العلاقات الزوجية أولا ، ثم أحلام الخطبة ثانيا . فالتفاهم هو الطريق إلى الحب .. وإن علماء النفس الحديث قد رجعوا إلى حكمة أجدادنا جميعا رحمهم الله فالحب عندهم بعد الزواج وليس قبله .. وإن قانون الحب هو : لقاء فموعد فكلام فسلام فابتسام فنظرة .. فحب !

كنت أخاف الأطباء

كنت وأنا صغير أتمنى أن أكون طبيبا ... أن ألبس البالطو الابيض وأضع السماعة حول عنقى والمنظار الغليظ على أنفى .. وأمسك ورقة وقلما وأكتب بسرعة أسماء الأدوية التى تتعلق بها آمال الناس . وقد عرفت من أمى أننى عندما كنت طفـــلا كنت « أمثل » دور الطبيب مع زملائى الأطفال ، وكنت أطلب إليهم أن يناموا على الأرض وأضع عصير الليمون فى عيونهم وأفواههم .. والأطفال يصرخون ويبكون .. ولم أفهم فى ذلك الوقت لماذا أفضل «لعبة» الطب هذه ، على لعبة الكرة أو لعبة استغماية ..

ولكن عندما كبرت عرفت السبب .. عرفت أن أبى كان مريضا ، وعرفت أن أناسا أشكالهم غريبة مريبة يترددون على بيتنا .. وكنت أسمع الهمس عندما يدخلون وأرى الإشارات الخفية إلى حركاتهم وسكناتهم .. وكنت أرى أمى تمد يدها خلسة إلى يد الطبيب .. وكنت أرى الطبيب أو الأطباء يتظاهرون بالخجل والحرج وهم يعدون الفلوس .. ورأيت

الزجاجات الحمراء والبيضاء والسوداء تتزاحم وتتسابق إلى أيدى أبى .. هذا دواء بعد الأكل وذاك قبل الأكل .. وهذا مر وذاك حلو .. وذاك يملأ الجسم بالأشواك والعرق .. وهذا يهز الجسم هزا .. وذاك يهرب منه أبى ويلوذ بالفراش .. وأدوية يشربها أبى وأنا أراه ، وأدوية لا يشربها أمامى .. وسمعت من أمى أن الأطباء لا يعرفون ما يقولون .. ورأيت أمى ترفع يديها إلى السماء وتدعو الله أن يشفى مريضها أو يريحه هو .. أو يريحهما معا .

ولما كبرت عرفت أن الطبيب معذور .. فهو لا يعلم من أمر المريض كل شيء .. وعرفت أن أبى كان لا يتقيد بإرشادات الطبيب .. كان يأكل ويشرب كل شيء يضره .. فإذا زاره الطبيب ولم يجد أثرا للدواء الذى وصفه كتب دواء آخر .. وعرفت أن أبى كان لا يريد أن يعيش طويلا .. فقد شبع من الحياة .. ولم يعد لها طعم على لسانه ولم يعد لها لون فى عينيه .. لقد أراد أبى أن يموت .. وعرفت أن أبى كان معذورا ..

وتمنيت أن أكون طبيبا عندما كبرت .. وعرفت عددا كبيرا من الأطباء .. وأشفقت عليهم .. وأشفقت على نفسى أن أكون طبيبا .. فأنا لا أطيق أن أسمع إنسانا يتأوه ، ولا أستطيع أن أرى الدموع فى عينى أحد .. وإننى ضعيف أمام الألم .. وإننى لو كنت طبيبا لهربت من العيادة ، أو رحت أضرب المرضى أو ألقى بنفسى من النافذة .. ورأيت أصدقائى من الأطباء يتحولون إلى مرضى مساكين فى نهاية كل يوم..فبعد أن يفرغ الطبيب من عمله يجلس وحيدا فى عيادته..وماتزال صرخات المرضى تدوى فى أذنيه، وروائحهم الكريهة فى أنفه، واحمرار الدم واصفرار المرض فى عينيه .. ويجلس الطبيب بعد أن يغسل يديه فى الماء المعقم مرهقا يتمنى لو استطاع أن يغسل نفسه فى هذا الماء أيضا ..

ولكنه لا يستطيع .. إنه مريض هو الآخر ، ولكن أين الطبيب ؟.

وأشفقت على الأطباء .. وحمدت الله أننى لم أصبح طبيبا .. أضع سماعة على صدر كل مريض أنصت إلى الموت وهو يدب فى الأجسام.. تارة فى القلب وتارة فى المعدة .. وأتتبع معركة الدم والجراثيم التى يتعالى لها صراخ المريض وترتفع درجة حرارته .. ثم تقع الهزيمة للدم أو للجراثيم أو للمريض .

ولكن المرض والخوف من المرض وصورة أبى وأمى والزجاجات الطويلة القصيرة والحقن والأموال التى تقاضاها الأطباء من عرق أبى ودموع أمى .. وعصير الليمون فى عيون الأطفال وعصير البصل فى أفواههم وطفولتى الفقيرة الحزينة . وقصة الفتاة التى أبوها طبيب وأخوها طبيب وخالها طبيب وهى تلميذة بكلية الطب . كل ذلك ما يزال يتردد فى نفسى من حين إلى حين .. فأرانى أهتز وأرتعد ويتصاعد الدخان إلى رأسى ، ويتحول الدخان إلى سحاب ويتحول السحاب إلى مطر ينزل من عينى ..

وقصة هذه الفتاة .. قصة غريبة .. لم أكن أتصور وأنا تلميذ بالجامعة أن توجد فى العالم أسرة من الأطباء .. لقد عرفت تلميذة من كلية الطب .. وعرفت أن أباها طبيب وأن أخاها طبيب وأن خالها طبيب وأن لها خطيبا هو الآخر طبيب .. وكنت كلما أدرت هذه الحقائق فى رأسى ازدادت دهشتى . وتصورت أسرة صحيحة سليمة .. أسرة تعرف كل شىء .. تعرف علاج الزكام وعلاج السعال .. والقلب والمعدة.. كل إنسان يعرف كيف ينام بلا تعب ، وكيف يصحو عندما يريد . وماذا يأكل وماذا يشرب .. لا تعب ولا مرض ولا آهة واحدة . . إنه بيت لا يدخله الطبيب .. إنه بيت كله صحة وكله شباب .. ولن يموت

فيه أحد .. كما مات أبى ، لن يحار فيه أحد كما حارت أمى ، لن يقف فيه طفل يبكى بلا سبب ، كما بكيت أنا ..

وكنت أنظر إلى هذه الفتاة كأنها من المريخ .. كنت أنظر إلى أصابعها .. فأجدها رفيعة ناعمة وأنظر إلى عينيها ، وأطيل السمع إليها وهى تتكلم .. إننى لست مثلها .. إنها سليلة الأطباء .. إنها سليلة الخالدين .. سليلة الأسرة التى جندت نفسها لمكافحة الموت .

وفى يوم عرفت أن أباها رجل صعيدى محافظ وأنه يعاملها معاملة الحيوانات .. كأنها قط أو كلب أو فأر .. وأنه لا يكاد يراها حتى يمد يده إلى جيبه ويخرج السماعة ويضعها على قلبها ويحمد الله على أن الحب لم يدخل قلبها بعد .. ثم يتجه إلى حقيبته الصغيرة ويخرج منها أنبوبة زجاجية ويحقن ابنته ضد الناس بالخوف والفزع .. ثم يعطيها بعض الحبوب الدينية المخدرة .. وعلمت أن الأب الطبيب قد توج أعماله العظيمة مع ابنته بأن جعلها تتزوج رجلا من الأطباء لا تحبه رغم أنه قريب لها . ونجحت العملية . وانتحرت الفتاة !

وكرهت أن أكون أبا لاحد من الناس وكرهت أن أكون طبيبا .. أشفقت على الفتاة التى لم تعش لتصبح طبيبة كأبيها وأخيها وزوجها !

وأدركت بعد ذلك أن مثل هذا الأب كثيرون .. بعضهم من الأطباء وبعضهم من المدرسين وبعضهم من التجار .. وعرفت أن هذا الأب الذى درس فى أوروبا وأمريكا وقرأ بلغات كثيرة .. ورأى العالم الواسع وهو يتطور بحرية كاملة نحو الأفضل والأجمل .. ما تزال فى نفسه جوانب مظلمة ، جوانب لم يعرضها للنور .. ما يزال جبانا لا يستطيع أن يواجه الحياة بشجاعة .. إنه كالسيارة الكاديلاك الفخمة الغالية .. ولكن ما تزال تتدلى من عنقه «خمسة وخميسة» أو حجاب به

«شبه وفاسوخة».. فالسيارة هى آخر ما وصل إليه العلم الحديث ، والخمسة والخميسة هى أول ما وصلت إليه الخرافة القديمة ..

وكنت أتطلع إلى الطبيب الذى يمسك حياة أبى بين أصابعه وحياة أمى وأخوتى كلها ويحبسها فى قلمه وورقه .. على أنه إله عظيم ..

وقرأت أن آلهة اليونان كانوا يقتلون وكانوا يسرقون وكانوا كذابين وكانوا يغتصبون النساء والحقوق والأرواح .. وسمعت حكاية عن الأطباء ، وأنا تلميذ صغير ، فأيقنت أنهم كآلهة اليونان يكذبون ويسرقون وأن القليلين منهم من ينظر إلى المريض على أنه إنسان ، وأن الكثيرين ينظرون إليه على أنه بقرة أو جاموسة .. فاذا نزع منه رطل أو عشرون رطلاً من اللحم أو من الدم فلن يموت .. فاذا مات ، فإن القضاء والقدر يزاحمان الأطباء فى حل أزمة تزايد السكان ..

ورأيت طبيبا جميلا .. جميل الشكل والخلق وغنيا . انفصلت عنه امرأته الجميلة لأنه لا يتحدث إليها إلا فى الأمراض والجراثيم والدمامل والعمليات والأربطة .. ودقات القلب والضغط العالى والمنخفض .. وأنها كلما حاولت أن تغير موضوع الكلام عاد الطبيب الجميل إلى الكلام السخيف .. ولم يدر هذا الطبيب ماذا يفعل وقد عاش نصف عمره مع الحشرات والجراثيم ، وكانت أروع ساعات حياته فى المشرحة أمام عشرات الجثث الميتة ..

وأدركت أن الطبيب هو الآخر ككل إنسان مخلص فى عمل من الأعمال لا يستطيع أن يهرب من مشاكل عمله .. وأنه هو الآخر مخدوع فى المرأة فهو يظن أنها هى التى تشارك الرجل همومه ومتاعبه .. إلى آخر هذه العبارات التى اخترعتها المرأة أو اخترعها أنصار المرأة من الأدباء والشعراء .. فلم يعرف هذا الطبيب أن الكلام التافه هو الذى

يريع ، وأن المرأة لا تحب الرجل الذى يعمل والذى يحمل فوق رأسه متاعبه إلى البيت وإلى السرير وتحت الغطاء وإلى أحلامه .. ولكنها تحب الرجل المتفرغ لها .. تحب رجلا بلا فكر ولا عمل ولا هموم ..

وكنت أظن أن هذا الطبيب الناجح الجميل الغنى هو الذى يمسك كل مفاتيح السعادة فى الدنيا والجنة فى الآخرة .. ولكن السعادة كانت قد غيرت أبوابها .. فهذه المفاتيح التى يحملها ليست لهذه الأبواب .. ولما كبرت عرفت أنه إنسان مثلى ومثلك .. وأن المشكلة واحدة .. وأن قلب المرأة صعب على أكثر الأطباء جمالا ومالا .. إن هذا القلب يستعصى على الطبيب ، ولكنه ينفتح من تلقاء نفسه للتمرجى أو لأى مريض عابر ..

وكنت واهما وكنت خائفا .. كانت هذه أفكارى وأنا واقف عند قدمى والدى الذى كان يقاوم الموت وحده .. بلا سلاح ولا رجال ولا مال . كتابى فى يدى أستعد للامتحان ، ودموعى هى التى تقلب الصفحات .. ومات أبى ونفدت دموعى وأقفلت الكتاب وعرفت أن الأطباء أناس عاديون ، يمرضون ويموتون فقراء أو أغنياء ، يموتون خادعين ومخدوعين .. ويلقون الموت وحدهم ..

وكثير منهم مات وهو يندم على أنه لم يفلح فى علاج أولاده وزوجته .. أو أنه لم يتعلم صناعة أخرى ترضى عنها المرأة .. أو يبكى لأنه حرم ابنته الوحيدة حريتها فى أن تختار الرجل الذى تريده .. وكثير منهم كان يحس بالموت، وهو يتمشى فى جسمه خلية خلية .. وكلما انسحبت الحياة من خلية احتلها الموت .. وقد علمت أن طبيبا وهو على فراش الموت كان يصرخ ويقول : الآن .. أحس بهبوط فى القلب .. وتصلب فى الشرايين .. والضوء يخفت فى عينى .. أطفئت أنوار الصالة .. وأضيئت أنوار المسرح .. وارتفع الستار وظهر الموت .!

ومات هذا الطبيب وهو يذيع حفلة وفاته .. والأسرة كلها تصفق على خدودها وصدورها ..

وحمدت الله على أننى لم أكن طبيبا !

وسوف أحمده أكثر إذا لم أحتج إلى طبيب .. اللهم اختر لى أية ميتة .. إلا أن أموت أمام وتحت عينى أو يدى طبيب !

تحت كوبرى التنهدات !

رأيت فى السينما منظرا قصيرا خاطفا لم يستغرق إلا نصف دقيقة . ورأيت بعده فيلما جميلا . وكنت كمن يلبس منظارا أسود قاتما .. فلم أر شيئا .. لقد رأيت منظر العمال فى مدينة البندقية بإيطاليا يجففون الشوارع من الماء ، ويسدونها ويرفعون الوحل والحجارة ، استعدادا لموسم الصيف القادم .

كل شوارع البندقية من الماء ، ووسائل الانتقال فيها هى الجندول.. وقد رأيت البندقية فى السينما ولم أر جندولا واحدا . لقد رأيت الشارع «المائى» طبعاً الذى يعلوه «كوبرى التنهدات».. وقد سرت فى هذا الشارع عشرات المرات وأنا أستمع إلى صاحب الجندول وهو يغنى : الحب مرة واحدة .. مرة واحدة .. وسمعته وهو يغنى أيضا : آخر مرة رأيتها كانت هنا .. وسمعته وهو يقول : السعيد هنا .. السعيد هنا سعيد فى كل مكان !

ومررت تحت كوبرى التنهدات ، مررت تحته وحيدا ، ويدى

على قلبي كأنني أضعها على طائر أخشى أن يطير مني . أو كأنني أضعها على آلة موسيقية لا أريد أن يسمع أنغامها أحد .. مررت تحت هذا الكوبرى وأنا لا أحس به ولا أراه ، ومررت تحته وأنا لا أرى شيئا سواه .. ومررت تحته وأنا لا أحس بشيء ، لا بنفسي ولا بالماء ولا بكوبرى التنهدات ولا بالجندول .. وكانت المجاذيف تصفق لى ، عن يميني وعن شمالى ، وأنا في دهشة منها .. كيف استمعت إلى أنغامى الهامسة ، وأنا أحبسها وراء أصابعى ..

وعلى أحد جانبي هذا الشارع رأيت «قصر الدوقية» وفى أسفل هذا القصر توجد المحكمة الظالمة التى كانت تختفى فيها رؤوس الظالمين ، والمظلومين ، وكانوا فى طريقهم إلى المحكمة يمرون تحت هذا الكوبرى ويتنهدون ويزفرون آخر زفراتهم .. ومات الظالمون والمظلومون ، وتلاشت لزفرات والتنهدات ، ودفن العدل والظلم معا ، ولم يبق إلا ذلك الكوبرى لذى يحمل اسماءهم .. إنه كوبرى التنهدات .

والحياة هى الأخرى حكم .. إنها حكم علينا .. حكم واجب لتنفيذ ، فأنت لا بد أن تعيش ، ولا بد أن تموت ، تموت شابا لامعا ، و شيخا خامدا ، تموت صحيحا ، أو تعيش مريضا .. فنحن محكوم علينا بالحياة .. لأن أحدا لم يسألني قبل أن أولد : هل تريد أن تعيش ؟ مل تريد أن تولد لأبوين فقيرين ؟ هل تريد أن تكون مرهف الحس تعذب ؟ هل تريد أن تكون بليد الحس حيوانا ؟ إن أحــدا لم سألنى ..

ولو سألوني لقلت : لا أريد .. المغامرة لا أريد !

لقد صدر علينا الحكم دون محاكمة ، دون استجواب ..

ثم مررنا جميعا فى هذه القنوات المائية ومررنا تحت كوبرى

التنهدات وكوبرى الدموع والشقاء الوحدة والهوان .. ثم نفذ فينا حكم الحياة ، وعشنا وبكينا وصرخنا ، ورفعنا أيدينا داعين ، أو لاعنين .. وجففنا دموعنا استعدادا لموسم بلا دموع ، أو كله دموع ..

وإذا سافرت إلى مدينة البندقية وركبت الجندول ومررت تحت كوبرى التنهدات ، فإن صاحب الجندول يسألك :

لماذا لا تطلب من الله شيئا ؟

وتستطيع أن تطلب من الله ما تشاء .. أن تطلب منه السعادة التى حرمت منها ، والحبيبة التى لا تشقى بها ، والمال الذى يستر أهلك من بعدك ، تستطيع أن تطلب منه الراحة التى لا تجدها ، الراحة التى طلبها ألوف من الناس مروا من تحت هذا الجسر واختفت رؤوسهم فى ظلمات قصر الدوقية !.

وأشار على صاحب الجندول أن أقف لحظة تحت الكوبرى لكى أعثر على أمنية فى نفسى فأطلب من الله تحقيقها .. وتزاحمت فى نفسى الأمانى .. أيها أترك وأيها أطلب تحقيقها ، وأنظر فى الماء فأرى وجوها حزينة ، وجوها حية ووجوها ماتت .. وأرى أمى وأخوتى ، وأرى همى وشقوتى .. وأمد يدى إلى الماء أمسح هذه الصور ولكنها تبقى ، إنها فى رأسى وليست فى الماء .. وراحت تتحرك فى نفسى أمنية ، وجعلت أديرها يمينا وشمالا فتصعد إلى رأسى وتهبط إلى قلبى ، وتئن فى أذنى ، وتسد أنفى ، وترقص مذبوحة فى حلقى .. وما زلت أضربها وأطردها وأضغطها حتى انفجرت فى عينى .. ونزلت دمعة فى الماء ، تحت كوبرى التنهدات !..

لم أطلب شيئا من أحد ، ولا أنتظر شيئا من أحد ، لقد صدر الحكم ، وهو واجب التنفيذ .. إنه حكم بالأفكار الشاقة المؤبدة !

وصاحب الجندول يطلب إليك فى مدينة البندقية أن «تذوق بختك»..

ومعناها أن تضع أصبعك فى الماء وأن تطلب من الله أن يحقق أمنيتك .. ثم تضع أصبعك فى فمك وتذوق طعم الماء .. فطعم الماء هو طعم بختك فى هذه الدنيا ، ولم أمدد أصبعى إلى الماء ، ولا نقلت أصابعى إلى فمى لأننى أعرف أن طعم الماء كطعم الدموع !

كل شيء فى مدينة البندقية يولد فى الجندول !

الحب يولد فيه ، والخوف والكراهية والحقد والغيرة ... ففى الجندول يلتقى الدائن والمدين ، وصاحب البيت والساكن الفقير ، والزوج الهارب من زوجته، والزوجة الخائنة لزوجها ، والفتاة المراهقة ، والشيخ الفانى ، والشاب يحمل رأس الشيوخ والشيخ فى ملابس الفتيان .. كل ذلك فى الجندول . الجوع والحب كلهم فى زفة واحدة هى زفة الموت ينقلهم دون خطأ إلى عالم لا يرجع منه أحد .

لقد رأيت الجندول يسير على الماء كأنه هم من الهموم ، ورأيت مجذافه يلطم خدود الماء ، حزينا ، كأنه غراب محطم الجناحين . ورأيت الجندول خفيفا رشيقا ، لا يسير بقوة البخار ولا بقوة الريح ، ولكن بسحر الغناء ، وآمال المحبين ، ورأيت مجذافه يتحسس صدر الماء ، كأنه صدر فتاة جميلة ، فيرتعد الماء ، وتستحى الفتاة ، ويخجل الجندول ويضحك المحبون !

رأيت المحبين يمرون تحت كوبرى التنهدات ويفتحون أفواههم ويتنهدون ويلعنون أيام العزوبة وأيام الحرمان ويصيحون آخر صيحة مع صاحب الجندول :

جئنا إلى الحياة .. إلى الحياة .. جئنا إلى السعادة .. إلى الحياة .. جئنا معا .. إلى الحياة نعيش معا فى الحياة .. نموت معا فى سعادة .. إلى الحياة إلى الحياة ..

كل ذلك تحت كوبرى التنهدات .. لم أنس الماء والوحل . لم أنس المجاذيف وهى تؤلب الماضى على الحاضر . إنهم يبحثون فى الوحل وتحت الماء عما أبحث عنه فوق الوحل وفوق الماء .. لقد أنشبت أظفارى وأفكارى فى الناس، فى عقولهم وفى قلوبهم، فى كتبهم وفى خطبهم .. فى البيوت وفى الشوارع ، فى الأرض وفى السماء .. ولكننى لم أجد الراحة فى شيء أو فى أحد أو حتى فى البحث عن الراحة !

إنها دمعة واحدة سقطت منى فى شوارع البندقية تحت «كوبرى التنهدات».. وكثيرا ما تساقطت منى دموع ولكنها فى قلبى لم يرها أحد، ولم يذقها أحد ، ولم يسمع بها أحد ، وكثيرا ما جعلت عقلى منديلا قاسيا أجفف به دموعى ، ولكن دمعة واحدة غلبتنى وكانت حجرا ثقيلا تدلى من رأسى ، كدت أسقط معه تحت كوبرى التنهدات !

اعرف عدوك

سيكون لك أعداء دائما .. سيكون لك أعداء فى البيت وأمام البيت وفى الشارع ، وفى مكان العمل ، وحيث تلهو وتلعب ، وحيث تعبد الله .

ولن تتخلص من أعدائك أبدا .. فالحياة زحام مستمر ، من أولها إلى آخرها .. فأنت تزاحم الآخرين فى الطعام والشراب والتنفس ، وفى الحياة وفى الموت .. إذا كان الرجل الذى تكرهه أبا ، ثم تخلصت منه ، تحول أولاده إلى أعداء وإذا تخلصت من الأولاد ، تحول الأقارب إلى أعداء ، وإذا تخلصت من الأقارب ، تحول الجيران إلى أعداء ..

وإذا خلوت إلى نفسك .. وسكت العالم كله حولك .. ونام الناس جميعا ، ولم تعد تسمع شيئا سوى دقات قلبك .. فإنك ستسمع صوتا آخر غريبا .. هذا الصوت يملأ جوانب نفسك .. وينتفض مع الدم .. إنه يشبه صوت أمك وصوت زوجتك وصراخ أولادك وسعال رئيسك فى العمل ، ويشبه صوت عسكرى البوليس .. وفيه ملامح صاحب البيت

والبقال والمؤذن والقسيس .. إنه صوت تختلط فيه أجراس الكنائس بآذان الفجر .. صوت غريب ، كأنه صوت عدو يحاسب ويعترض ولا يرحم ..

وكثيرا ما سكت هذا الصوت .. وفضل سياسة العمل على سياسة الكلام .. وراح يدفعك إلى أمور غريبة .. كأنه مندوب عن أعدائك جميعا .. إنه يدفعك إلى المرض وإلى البطالة وإلى الدمار وإلى الموت .. أهذا صوت صديق ؟ أبدا ! أهذا صوت عدو ؟ نعم .. ولكن هذا العدو يسكن معك فى نفس هذا البيت من دمك ولحمك .. إن هذا العدو تحمله معك كما تحمل الأم طفلها الصغير .. إنه يرضع شجاعتك ، ويأكل آمالك وينفق من حياتك .. إنه العدو الداخلى .. الذى يطعنك من الخلف ومن الداخل . إنه الذى يحطم قواتك وهى تزحف فى كفاحها من أجل الحياة ، مع أناس كلهم أعداء لك ، ليس بينهم صديق واحد .. كلهم فى زحام .. كلهم تاجر يبيع ويشترى .. كلهم يريد الكثير ولا يعطى إلا القليل .. كلهم يلقى بالوحل والأشواك فى طريقك حتى يفوتك القطار ، وتقفل السوق أبوابها .. هذا العدو هو فى نفسك إنه غريزة الانتحار ، إنه غريزة الموت إنه أنت .. إنه أنت الذى تريد أن تقضى على حياتك بنفسك .. أنت الذى تريد الفشل .. والانهيار .. والقعود .. والهزيمة .. والاستسلام . والموت !

وإلا فكيف تفسر لى حالة من يظل نائما فى المستشفى أو فى البيت ويزوره الطبيب يوما بعد يوم.. ويصف له حقنا ودواء ويطلب إليه أن يحرص على تناولها جميعا . ويخرج الطبيب . ثم يعود فى اليوم التالى . فيجد صحة المريض قد تناقصت ، كما تناقصت الزجاجات والحقن .. كأن صحته والدواء على موعد فى جوف الأرض . ينقص الدواء وتهبط الصحة ، ماذا حدث ؟ إن المريض لا يريد أن يشرب الدواء ، إنه لا

يريد الحقن ، إنه لا يريد الصحة .. إنه يريد البقاء فى الفراش .. كيف نفسر هذا ؟

إن المريض لا يريد أن يصحو ، لا يريد أن ينهض من فراشه لماذا ؟ لأن هناك قوة داخلية تتحكم فى حياته .. إن هناك حاكما طاغيا قد أمره أن يلزم الفراش .. أن يلزم المرض .. وأن يلقى الدواء فى الأرض.. إن هذا الطاغية هو «غريزة الموت».. هو «إرادة الانتحار» .. إذن يجب أن يعاون الموت على مهمته !

* * *

ثم كيف تفسر حال المرأة أو الرجل الذى يخرج من بيته فى ساعة مبكرة من الليل ويذهب إلى البار أو الخمارة يملأ جوفه بالخمر .. والخمر هى «النار السائلة»؟ إنها الكحول الذى يملأ معدتك ويتسرب إلى الكبد.. إنه يطهر المعدة ويجعلها على استعداد للإصابة بأية قرحة والكحول هو الذى يوجع الكبد وينفخه ويملأ به البطن . إنه الكحول الذى يختلط بالدم ويطير معه ، وهو الذى يعصر الجيوب والقلوب ، ثم كيف نفسر أن تبقى هذه المرأة أو هذا الرجل ساعات وساعات يشرب ويشرب ويهذى ويهدر كرامته وإنسانيته ثم يتساقط فى الطريق أو على باب البيت أو فى البيت ، أو يرتمى على الفراش فاقد الوعى والكرامة والمال والعطف ، عطف زوجه وأولاده وجيرانه والناس ، ويعود كل يوم إلى نفس المكان وتكرر نفس القصة ويترامى فى الطريق كأنه رماد ، أو كأنه زبالة إنسانية !

ويعلن بعد ذلك أنه لن يعود ، وأنه لن يستسلم إلى هذا المارد الذى يتربع فى جسمه وفى قلبه ويحتل عقله ، ويضرب يده فى الحائط ، ويضرب رأسه بيده ، وفجأة يتغير الوضع ، كأن هذه الضربات هى

الدق المعروف على المسرح ، فيرتفع الستار ، وتضاء أنوار البار ويقف هذا الرجل من جديد وفي يده زجاجة خمر وعلى وجهه ابتسامة عريضة على شفتيه ، وقهقهة عالية في معدته وهراء في كبده ، ماذا تسمى الرجل الذى يعرف هذا كله ، ويعلم تماما أن هذا يدمى معدته ويكوى كبده، ويعلم أن الإسراف في الشراب وفي التدخين كل ذلك يبنى أوكارا للموت سوداء دامية . ماذا تسمى هذا العجز عن المقاومة ؟

لا شيء إلا أن هذه إرادة قوية طغت على كل إرادة أخرى . إنها إرادة الموت .. إنها الرغبة في الانتحار. إنها، التسليم بلا قيد ولا شرط لعدو متغطرس قد سيطر عليه من الداخل .. إنه قد احتل مرافقه العامة ، وقطع كل وسائل الاتصال بينه وبين الناس حوله .. إنها أوامر العدو صريحة وتتلخص في كلمات : أيها الرجل ، احمل زجاجتك واتبعني !

* * *

وماذا تسمى من يمتنع عن الطعام ويكتفى بالماء والليمون أو بالعيش والملح ومن يغمض عينيه عن جمال الدنيا ، ماذا تسمى من يصوم تماما ؟ ماذا تسمى من يعلن الصوم الكامل ؟ من يقفل العينين ، فلا يرى جميلا أو قبيحا ، ومن يسد الأذنين فلا يسمع نغما أو نشازا ، ومن يطبق فمه إلا عن الطعام الجاف الخشن ؟ ماذا تسمى إنسانا قويا جميلا ، رجلا أو امرأة ، يتحول عن الدنيا ، عن الحياة عن الناس ، إلى الصحراء الجافة، فوق الرمال وتحت الصخور؟ ماذا تسمى هذا الذي فضل الدير على البيوت الآدمية والذى اختار السجن بيديه، وعاش في الفضاء الواسع ، ثم سده وراح يتطلع إليه من فتحات صغيرة؟.. ماذا تسمى الرهبان والراهبات؟ ماذا تسمى من ملأ أذنيه بالقطن ، وعصب عينيه بالقطن ؟ ماذا تسمى كائنا إنسانيا تحول إلى كيس من القطن ، وأصبحت أفكاره كالبذور ، وعواطفه كالديدان التي تأكل أزهار شبابه ، وأوراق أفكاره؟

أهذا إنسان يريد أن يعيش؟ والحياة هي مع الناس وبالناس، وفى صراع مع الناس .. الحياة كفاح بل حرب مستمرة بين أناس قد اخفوا سلاحهم تحت ملابسهم ..

إنه هارب من نفسه ، هارب من الحضارة إلى الصحراء ، هارب من الإنسانية إلى الحيوانية ، من الواقع إلى الوهم .. هارب من الحياة إلى الموت ..

* * *

إنه الإنسان عدو نفسه . إن العدو ليس بعيدا ، بل فى داخلك .. إنه هو الذى يحطم زجاجات الدواء ، ويفتح زجاجات الخمر ويشعل سيجارك ، ويفرغ جيبك ، ويدفعك بين السيارات ، ويوقفك على سلم الترام .

فكما أن هناك رغبة فى الحياة وفى الكفاح وفى الانتصار والبقاء ، فهناك رغبة أخرى فى الموت والاستسلام والهزيمة والموت ..

إنها حرب حولك . وحرب فى داخلك ..

وكل شيء فى حرب .. الإنسان فى حرب مع الطبيعة ، إنه يقاوم البحر ويقاوم الريح ويقاوم الجراثيم ويقاوم الجوع .. والإنسان عدو لنفسه كذلك ، إنه يبنى المدن الجميلة ثم يحطمها بالقنابل ، إنه يفتح بيوت الحضارة ويبنى المستشفيات ويفتح المدارس والنوادى الرياضية ويملأ بالصحة والأمل نفوس أبنائه الشبان، ثم يدفعهم جميعا إلى ميدان القتال فتأكلهم النيران واحدا واحدا ..

الحياة زحام وحرب دائمة ..

وتصبح هذه المعركة خاسرة إذا تسلل العدو إلى داخلك وراح يحطمك

دون أن تدرى .. أنك عدو نفسك .. أنك تشهر سلاحك فى وجه نفسك .. احترس من نفسك ففيها يكمن أعدى الأعداء ، وأقوى الأقوياء ، إن نفسك هى الصديق الذى يجب أن تحتمى منه ، فإذا انقلب عدوا كان أقسى أعدائك جميعا .. إنه يعرف كل مواطن قوتك وضعفك ..

سيكون لك أعداء دائما .. حولك وفيك ..

إياك أن تسحق رأسك بيدك ، ثم تحشر رأسك فى قلبك ، وتدخل قلبك فى معدتك ، وتدفع معدتك فى رجليك ، فتصبح كرة يضربها الموت بقدمك أنت ، أى بدمك ولحمك ، فالعدو فى داخلك .. وإن لم يجد قدمك ، ضربك بأى قدم أخرى !

شهر واحد ..

تذكرت صديقا قديما أمس ، لسبب لا أعرفه .. إنه لم يمت ولكن الله لم يرحمه من حماته وزوجته وبعض عاداته التى تعلمها بعد الزواج ، عرفته قبل الزواج ، وعرفته بعد الزواج ، والتقيت به بعد أن أنجب ثلاثة أولاد ، وفرقت بيننا الحياة فهو فى المنصورة ، وأنا بقيت هنا فى القاهرة .

تذكرته يوم جاء إلى ، قبل زواجه بشهر واحد سعيدا مرحا يكاد الدم فى وجهه يضىء ، ولم يكد يرانى حتى قال : اسكت اسكت ! الحمد لله ، ربنا أكرمنى ، كيف كنت أجد فتاة مثل نوال ، أين ؟ ومن التى ترضى بى ؟ يا شيخ ، هذا توفيق من عند الله ! أمى كانت تصلى وتدعو الله من أجلى ، ألف رحمة تنزل عليها ، لقد ماتت وهى راضية ، كم مرة دعت ربنا أن يرزقنى ببنت الحلال ، الحمد لله ، أنت رأيتها أمس ؟ ما رأيك ؟

فقلت : جميلة يا لطفى . عيناها فيهما صفاء وشعرها ذهبى وأنفها

دقيق . وشفتاها متفتحتان .. وصوتها كله أنوثة .. كيف عثرت عليها يا ابن الشياطين ؟ عندك حظ !

فيقول : ألم أقل لك إنها دعوات الأم الصالحة .. تصور أمس ، كنا نجلس معاً فى جروبى .. آه ! الحمد لله ربنا سترها . الحمد لله وإذا بست فايزة .

فايزة ؟ من هى فايزة ؟

ــ التى تعمل معى فى المكتب .

ــ يقطعها ! أما تزال على قيد الحياة ؟ يا أخى هذه البنت ..

ــ اسمع .. ولم تكد ستنا فايزة تحيينى حتى احمر وجهى و ..

ــ كويسة ! ومن أين يجئ الدم إلى وجهك ؟

ــ فى مثل هذه اللحظات .. يجئ الدم والنار إلى وجهى ورأسى وعينى .. يا شيخ هذا ستر من عند الله .. لا أعرف لماذا طلبت من فايزة أن تجلس معنا .. ولكن خطيبتى نوال كانت ستجن . كلمة من هنا وكلمة من هناك وابتسامة ونكتة .. حتى أيقنت نوال أن هذه الفايزة ليست صديقة وإنما هى زميلة فى العمل . هل تعرف ماذا حدث بعد ذلك ؟

ــ ماذا ؟

ــ يا شيخ هذا ستر من عند الله . هذا دعاء الأمهات . عندما ركبنا التاكسى فى الطريق إلى بيت خطيبتى .. خطيبتى نوال . ربنا يطول عمرها .. هل تعرف ماذا حدث ؟.. راحت تبكى وتمسك أصابع يدى وتقبلها وتبكى وتقول لولا أننى أحبك ما كنت أغار عليك .. لا تغضب منى .. تصور هذا يحدث معى أنا . هذا فضل من الله .. أجئ بمثل نوال من أين ؟

ـ يا سيدى ألف مبروك .. بالهنا والشفا .. يعنى أنت سعيد .. عال عال !

ـ سعيد جدا .. أسعد إنسان فى العالم .. أنا لا بد أن أمسك الخشب بل جميع الأخشاب التى فى الدنيا كلها .. ليس بعد ذلك شىء . ماذا تريد من الزوجة أكثر من أنها تحبك ، وتنتظر مجيئك بالثانية ، لقد جعلتنى أمتنع عن التدخين وعن ارتياد الكباريهات والمقاهى ولعب الطاولة والذهاب إلى ميدان السباق .. الفلوس توافرت ، والصحة تحسَنت ، والقلب انشرح والبال ارتاح ، كل شىء عال .. لولا ..

ـ لولا ماذا ؟ الحقنى يا صديقى !

ـ لولا حكاية الوالد ..

ـ والدك ؟

ـ والدها هى .. يا أخى هذا الرجل كارثة من السماء نزلت فوق رأس هذه البنت ، وفوق رأسى أنا ؟.. يا أخى إنه يعد خطواتى ، ويحسب أنفاسى ، إذا ضحكت معها قال : هذا لا يليق .. إذا أنا أمسكت ذراعها ونحن فى الطريق قال : فضيحة ، ماذا يقول الناس ! وإذا أنا تأخرت فى السينما قال : الدنيا خربت .. القيامة ستقوم حالا .. كيف أبقى معها حتى الساعة العاشرة والنصف .. بأى حق ، إننى لست زوجها .. ومن الذى يجيز هذه التقاليع .. أى شرع أى دين ؟ هذا رجل حيوان .

ـ اعقل ! اعقل ! صبرك بالله .. لن يستغرق هذا وقتا طويلا : قل لى كيف حال أمها معك ؟

ـ أمها يا أستاذ هذه بلسم مرهم لكل جرح .. كلامها جميل وقلبها كالساعة السويسرية .. تسمع دقاته صافية عندما أقترب منها ..

والله يا أخى صوتها كصوت المرحومة والدتى .. هذا توفيق من عند الله .

– صبرك يا عزيزى صبرك . ربنا يهدى لك أمها .

– هاديها وعال جدا ..

– يعنى أنت سعيد ؟ ربنا يتمم بخير ..

– وربنا يتمم بخير وانتهى شهر العسل والنحل !

* * *

وانتقل صديقى مع عروسه إلى الإسكندرية ليعيشا معا ويحققا الأحلام الذهبية فى الشهر الخالد . الشهر الأول الذى لا ينساه المتزوجون.. ويختار العروسان حجرة فى لوكاندة تطل على البحر ..

وفى الصباح من أى يوم يدور هذا الحوار :

هى – الجو جميل يا لطفى .. تشرب قهوة !

هو – أنت أجمل !

هى – أشكرك !

هو – ماذا تقولين ؟ أهذا شىء أستحق عليه الشكر .. والله أنت أجمل من أى شىء .. أجمل من السماء ، السماء ليست فيها زرقة عينيك الصافيتين .. فزرقة السماء بلا معنى .. وهذا الورد فى البلكونة أين أوراقه من شفتيك ، وأوراق الشجر وقد بعثرها النسيم ، أين هى من شعرك .. من الذى يقاوم فتاة سمراء طويلة لها عيناك وشفتاك وشعرك المتدلى على وجهك ، لا أحد .. وإذا كانت هذه الفتاة تحبه ، فسيكون ولهان وسيكون اسمه لطفى ؟

هى – لطفى أرجوك ! كفى أحلاما .. إلى متى تظل حالما هكذا ؟

هو – تقولين إلى متى !.. أنا لا أريد أن أصحو .. إننى رفضت

القهوة مع أنها من يديك ، لأنني لا أريد أن أصحو .. أريد أن أظل حالما فأراك جميلة فاتنة .

هي — ولكنني أريد أن تقول عني جميلة وأنت في يقظتك لأن كلام النائمين وهم ..

ويسمع دق على باب الحجرة .. إنه جرسون اللوكاندة ويقول : صباح الخير يا افندم ! حضرتك تريد أن تتغدى هنا ؟

فيقول وهو ينظر لعروسه : لا .. نشكرك .. في الخارج .. الجو جميل اليوم .

وينظر إلى زوجته بعد أن أقفل الجرسون الباب وراءه ويقول :

— أين نتغدى اليوم ؟

هي — في أي مكان يعجبك .. في أول مكان تقابلنا فيه خلسة .. فاكر ؟

هو — وهل أنساه أبدا .. من كان يتصور أننا كنا سنتزوج . لقد كنت أداعبك ولم يكن عندى أمل .. ولا عند أى أحد من أقاربنا .. هل تذكرين ما قالته خالتك دولت .. ألم تكن تعلن من وقت لآخر .. أن هذا الزواج لن يتم .. أعوذ بالله من صوتها وعينيها ودخلتها .. دخلتها سودة . وبيني وبينك حتى بابا هو الآخر كان يريد أن يرجىء زواجنا إلى العام القادم . يا ساتر يا رب . لم يكن أحد في صفنا أبدا .

هي — ماما كانت تقول دائما لا تهتمى .. ربنا ينصرنا عليهم كلهم وربنا نصرنا .. أوه .. حكايات طويلة .. الحمد لله !

هو — شكلك جميل وأنت تتنهدين هكذا !

هي — والله فكرتني .. لا بد أن نمر على المصوراتي .. ونبعث صورة

لماما وصورة لخالتى عايدة وصورة لسميرة واعتدال وجمالات أعز صديقاتى . اسمع يا لطفى أنا عندى فكرة .. هل تتذكر صورتى وأنا مع بنت المصوراتى .. إنها طفلة جميلة .. ما رأيك لو أرسلنا هذه الصورة لبابا وكتبنا عليها : مع تحيات نوال ولطفى وبنتنا الصغيرة توتو ..

هو — غير موافق .. أنا أريد ولدا .

هى — وأنا أريد بنتا .

هو — ولد !

هى — بنت ؟

هو — إذن ترجع البنت لأهلها ولا داعى للصورة !

وانتهى الشهر الأول من الزواج وهو شهر العسل من غير نحل .

* * *

وبعد ذلك لقيته فى المنصورة وكان الله قد رزقه بولده الثالث منذ شهر واحد ..

ولا يكاد يرانى حتى يقول : اسمع إذا كان لك عدو فانصحه بالزواج .. هذه عيشة زفت قطران عيشة كلاب .. من أين يجئ الإنسان بالفلوس .. السجائر والقهوة والمواصلات والخادمة والمرضعة والدكتور والكراوية وبودرة التلك .. وإيجار البيت والجزار والبقال والدوخة التى لا أفيق منها أبدا .. وحماتى ربنا يقطع لسانها ويكسر رجلها ويقصف عمرها .. سكوتها حزن وقعدتها غم !

فأقول له : الله ؟ حضرتك كنت تظن أن الحياة الزوجية ورد من غير شوك .. هذه مسئولية ضخمة يا أستاذ .. أبواب مفتوحة لا تستريح إذا سددتها ولا تستريح إذا أقفلتها .. أبواب لا نهاية لها ..

ـ حكاية غريبة .. أيام زمان أين ذهبت ؟ كنت أظن أن الإنسان عندما يتزوج ينقل المشاكل من فوق رأسه ويضعها تحت رجليه ، أما الآن ، فأنا أنقل كل ما تحت رجلي وأضعه فوق رأسي .. أين : مع السلامة وأين الحمد لله على السلامة ؟ وأين : ألف سلامة ؟

ـ يا رجل اترك هذه القصة .. ما هذا الذى فى يديك ؟

ـ زجاجة ويسكى !

ـ لا ! معقول ؟

ـ لا والله زجاجة فنيك .. يا أخى رائحة هذا البيت كريهة جدا .. كأنها رائحة خنازير .. يا أخى كرهت البيت .. كرهت أبوابه ونوافذه وسكانه ورائحته وشرابه .. لقد أصبح المقهى عندى هو المكان الوحيد .. هو الملجأ .. ملجأ الهاربين من أى شىء .. سبحان مغير الأحوال .. من كان يتصور أننى سأشكو همومى لأحد وأضع يدى اليسرى على خدى ، ويدى اليمنى على قلبى أو جيبى .. والله نسيت أين قلبى وأين جيبى !

ـ ولا يهمك ! كلنا لها ! أنت متصور أن «شقاوة» أيام زمان ستستمر إلى الأبد .. أنت أكلت أجمل أكل وشربت أجمل شرب وقمت برحلات وعرفت عشرات الفتيات .. وبعد هذه الأكلة الدسمة ألا تحتاج إلى شربة زيت ؟! اشرب يا عم ! اشرب وقل ربنا يطول عمر الدكتور !

ـ من هو الدكتور ؟

ـ الذى وصف لك الزواج كحل للشقاء والشقاوة .. اشرب بالهنا والشفا ..

ـ أنا شربت أكثر من اللازم !

ــ أسمع يا جرسون هات اثنين قهوة مظبوط !

ــ لا أنا هات لى قهوة سادة .. وهات الطاولة وإذا سأل أحد فى التليفون فأنا غير موجود .. أنت عارف الأصوات .. صوت الخادمة وصوت حماتى .. هات يا سيدى هات .. يجب أن يلعب الإنسان الطاولة قبل أن تلعب الدنيا به الكرة .. العب .. ربنا خلق المقهى لأمثالنا من الهاربين .. الرزق بيد الله والسعادة بيد الله ! ماذا يعمل الإنسان ؟ لا أمل !

وانتهى الشهر الأول بعد الولد الثالث . وبهذا الشهر ابتدأت شهور النحل من غير عسل !

وصية ولعنة

هذه قصة من بلاد الصين !

كان فتى جميلا «قويا» ، وكان أمنية لكل فتاة ، فهو طويل القامة ، طويل الشارب ، ورث عن أبيه مالاً وأرضاً وبيتا . وقبل أن تموت أمه نصحته قائلة : اسمع يا ولدى ! لا تتزوج فتاة من أقاربك . فإن الأقارب لا يرحمون ، ولا يحبون وإنما يحسدون ولا يشكرون ولا يخلصون .. إنها تعرف أباك وعيوبه ، وتعرف أمك وضعفها ، وتعرفك صغيرا ، وتعرفك كبيرا .. فأنت لست جديدا عليها . والمرأة تبحث عن رجل مجهول ، تبحث عن طباعه وأخلاقه ، وتفرح إذا اهتدت إلى شيء جديد .. فإذا عرفت الرجل المجهول أحبته .. فأنت لا تروق قريباتك .. فإذا تزوجتك واحدة منهن فلكى تعرف رجلا آخر ، صدقنى يا ولدى . وإذا تزوجت قريبة لك ثم خانتك مع رجل آخر ، فلا تسخط على المرأة فكل القريبات كذلك ولكن تذكر أننى نصحتك !

وقالت له : لا تتزوج غنية ، فإن المرأة الغنية تظن أنها قد اشترتك

بمالها . والحب والوفاء ، يا ولدى لا يشتريان بمال . وإنما تزوج فقيرة تفرح بك وتشكر الله على هديته لها .. وقالت له : وإذا أحببت امرأة كانت زوجة لرجل من قبلك فلا تكن قاسيا عليها ، فربما كانت هى سيدة طيبة وكان زوجها شريرا .. وربما أتعسها الحظ مع الزوج الأول ، ويشاء أن يعتذر لها ، فيسعدها معك أنت .. والمرأة التى جربت التعاسة الزوجية تتمنى حياة أحسن .. وهى تحرص عليك أكثر من حرصها على أى شىء آخر ! وإذا أصابك مكروه يا ولدى ، فتذكر أننى نصحتك !

* * *

وجلس الفتى يفكر فى وحدته وفى وحشة البيت ، فقد كانت أمه تملأ عينيه وأذنيه وقلبه . وإنها تركت كل شىء خرابا .. وأخذ يتذكر فتيات القرية ويستعرضهن واحدة واحدة .. بنت الصياد وبنت شيخ البلد وبنت القسيس .. كلهن جميلات ولكن كلهن قريباته .

وراح يسائل نفسه : لماذا لم يكن له أخ أو أخت ؟ لماذا لم تترك أمه خادمة واحدة فى هذا البيت الكبير .. لماذا تمتلىء بيوت الناس جميعا بالدفء والشاى والدخان ويظل هو وحده يحرس المقاعد والأطباق ، والملاعق ويطعم كلبه الصغير . وهذا المال الذى تركه أبوه ، والأرض التى ورثها عن أمه .. لماذا لا يسعدانه ؟ لماذا لا يجىء أقاربه لمواساته فقد ماتت أمه من عشرين عاما ، ولكن أحدا لم يطرق بابه ، يجفف دمعته ويخفف لوعته ، ويؤنس وحدته ..

لقد أوصت أمه أقاربه جميعا أن يتركوه وحده أربعين يوما ، يتدبر أمره ويعرف أين يضع رأسه وأين يضع رجليه .. ولكن أمه كانت تعتقد أن رأس الرجال كالسماء كلما تلبدت بالسحب ، أصبح المطر قريبا ، ولا يكاد ينزل المطر حتى تطلع الشمس وتصبح الحياة بهيجة رائعة ..

لقد كانت أمه سيدة شديدة الذكاء ، كثيرة التجارب . !

ويبدو أن أمه كانت بعيدة النظر . فقد اتخذ ابنها قرارا سريعا .. لقد قرر أن يتزوج من أول امرأة يلقاها فى الطريق .

وأمسك وصية أمه وراح يقرأها من جديد ويقبلها ، ثم يضع حذاءها فوق رأسه ويدعوها أن تهديه إلى زوجة صالحة ، تملأ البيت والقلب ..

واتجه إلى الباب وأمسك المفتاح فى يده .. ولم يكد الباب ينفتح حتى برزت له فتاة فى العشرين من عمرها .. وقبل أن تفتح فمها ، أشار إليها أن تدخل ، ثم أشار إلى الحمام ، وطلب إليها أن تغتسل وأن تبدل ملابسها .. ولم تفهم الفتاة شيئا ..

وبعد يومين كانت زوجة له .

لقد وعد أن يتزوج أول فتاة يراها .. إنه لم يسألها : من تكون ومن يكون أبوها أو أمها أو أهلها أو أصلها أو بلدها .. إنها فقيرة وطيبة .. وغريبة عن القرية .. والغرباء أوفياء ، كما تقول أمه ..

وبعد أن مضى على زواجهما أربعون يوما .. جلس إليها يلاطفها ويتحدث معها ، ولكنه أحس أن هناك شيئا يبعده عنها ، شيئا لم يعرفه ، وقرر أن يسأل قسيس القرية أو طبيبها أو أحد حكمائها .

وكان كلما ازداد به القلق أصيب «بالسرحان» فلا يسمع ما تقول زوجته ولا يراها ، وإنما يظل هكذا ساعة أو ساعتين وتروح زوجته تقول له : أنت ! هل تسمع ما أقول ، ما الذى أصابك ؟ إننى أتحدث إليك منذ ساعة وأنت لا تسمعنى .

ويصحو من هذه الغيبوبة ويقول : إنما كنت أفكر فى أمى !

فترد عليه الزوجة فى عبارة جافة خشنة ، وقد عرفت الآن طيبته

ووداعة خلقه وتقول : إنهم يقولون إنك شبيه بأملك ، فهى الأخرى كانت تصاب بهذا السرحان !

فيقول لها : ومن قال لك ؟

تقول : الناس هنا !

ولكنه لا يسمعها وهى تقول : منذ وقت طويل .. عندما كنت صغيرة ألعب فى شوارع هذه القرية .

وتعاوده الغيبوبة ..

والرجل عندما يحلم وهو مفتوح العينين ، فهو هارب مما يرى ومما يسمع .. والأزواج أقدر الناس على الهرب ، لأنهم لا يستطيعون أن يواجهوا مشاكلهم .. وكل زوجة تعرف هذه الحقيقة .. وتعرف أن زوجها عندما «يسرح» إنما هو نوع من الهرب منها ومن كلامها وأفكارها وصوتها وشكلها ..

ويستغرق الفتى فى أحلامه .. ويخيل إليه أنه يسير فى طريق طويل وأن الأشجار قد وقفت تميل بأغصانها كأنها مجموعة من الشحاذين مدوا أيديهم .. والرياح تدفعه ، والأمطار تضربه ، وقدماه تنطلقان إلى ربوة عالية ، وتلامس يده الباب فتطلع سيدة عجوز تشير إليه أن يدخل وأن يغتسل وأن يغير ملابسه فإن هذا البيت هو بيت أحد الملائكة ، وإن هذا الملاك ينتظره وقد أعد له حصانا أبيض ينتظره كذلك منذ أيام.. ودهش الفتى لما رأى ولما سمع .. ووجد أمامه حصانا أبيض .. وبعد لحظات اغتسل وأبدل ملابسه ثم ركب الحصان . وقالت له العجوز : إذا اردت شيئا فلا تحدث الحصان إلا بعد أن تعلو فوق السحاب .. تذكر أعداءك جميعا ومزق شعر الحصان، وإذا أردت أن تتذكر أصدقاءك وأحب الناس إليك فانظر إلى النجمة الحمراء فى السماء ..

وانطلق الحصان ، وارتفع فوق السحاب ، وتذكر الفتى عمدة القرية وابنته السليطة اللسان .. وجذب شعر الحصان ، فنزلت الأمطار وأغرقت بيت العمدة وأخذ يسمع صراخ ابنته وهى تطلب النجدة .. ونظر إلى النجمة الحمراء وتذكر أمه فظهرت له فى ملابسها السوداء ووجها العابس وقالت له : يا ولدى ! ألم أنصحك ؟ ألم أقل لك لا تتزوج إحدى قريباتك ؟

وبادرها ابنها قائلا : ولكنها غريبة .. لقد جاءت تطلب طعاما وشرابا .. جاءت بعد أن أقسمت أمام الله أن أتزوج أول فتاة ألقاها على الطريق ..

وقالت الأم : ما زلت صغيرا .. إنها ابنة خالتك .. وهذه حيلة انطلت عليك .. إنها ككل فتاة تريد أن تتزوج فتى غنيا ، مات أبوه وماتت أمه .. ماذا تعجز عنه الفتاة إذا أرادت أن تتزوج ؟ لا شيء لا شيء . لقد تشاجرت مع خالتك منذ عشرات السنين فهاجرت من هذه القرية وعاشت فى مكان بعيد ، ولما علمت بوفاتى أرسلت ابنتها تحتال عليك وتدخل البيت وتصبح فى مكانى من حياتك وبيتك وقلبك . . ألم تسمعها وهى تروى لك أنك تشبهنى فيما تصاب به من غيبوبة .. ألم تسمعها وهى تروى لك قصة طفولتها فى هذه القرية .. وأنتما صغيران ؟!

وصرخ الفتى وهو يبكى : يا أماه ! لم أعرف ذلك ! لم أعرف أن هذه الجاحدة الكاذبة . ابنة خالتى . لقد ظننتها شحاذة تسألنى طعاما أو شرابا أو مأوى !

وأخذ يجذب شعر الحصان ، والشعر يتمزق فى يديه والأمطار تنزل غزيرة ويغرق البيت بما فيه وزوجته وكلبه ، ولكن حذاء أمه يطفو كما لو كان زورقا صغيرا .. ويسمع صراخا يقول له : أنت ! أنت ! لماذا

لا تسمعني ! إن الحساء يكاد يحرق رجلك أنت أيها المجنون .. إن أمك قد قتلت أباك هكذا .. ماذا أصابك .؟ تكاد تخنقني !

وتقول القصة .. إنه عندما فتح عينيه ونظر إلى البخار يتصاعد من الحساء الساخن .. أخذ يحلم بالحصان الأبيض الذى ينقذه من قريبة قاسية جاحدة تعرف عيوب أمه ، ومأساة أبيه . وخيل إليه أنه يمسك شعره ويجذبه والمطر ينزل غزيرا .. وأنه يسمع صراخ زوجته .

* * *

وأفاق من غيبوبته فوجد زوجته جثة هامدة وقد أحرق الحساء وجهها وأحرقت النار صدرها ويديها .. ورأى أهل القرية جميعا قد أحاطوا به ، ورأى أم زوجته ميتة هى الأخرى بعد ما رأت نهاية ابنتها .

وبعد أيام أغرقت الأمطار كل القرية ، أغرقت الفتى وحذاء أمه ، أما وصية أمه ، فقد تحولت إلى طائر يرفرف بجناحيه ويبكى فى الليل .. قائلا : اللعنة لمن يعصى أمه !

فتاة من دمشق

جلسنا معا إلى منضدة صغيرة .. نحن الآن فى مدينة دمشق أمام المعرض الدولي .. كل شيء حولنا ضوضاء وأضواء وآلات وأقمشة وأناس يروحون ويجيئون من سوريا ومن لبنان ومن العراق ومن الأردن ومن مصر ملابسهم غريبة ووجوههم عربية بيضاء وسمراء .. والنهر الصغير وراءنا يمشي بين الأحجار فى هدوء وتواضع وذلة كأنه فتاة عذراء تخرج إلى الشارع لأول مرة .. أو كأنه شاب تقدم لخطبة فتاة فرفض أهلها .. والأنوار كلها تسبح على صفحة النهر الصغير .. أو كأن النهر يسبح فوقها أو كأنه ذيل فستان زفاف كله من الترتر والخرز .. كل شيء حولنا ضوضاء من النور والموسيقى والزحام ..

ونحن وحدنا جلسنا صامتين لا نسمع شيئاً ..

لم أكن فى حاجة إلى مجهود كبير لكى أطلب إليها أن تقول من هى ؛ ولم تكن هى فى حاجة إلى أن أقول لها من أنا ..

كل ذلك تم علناً أمام الناس وفى لحظات .

اسمها هيفاء .. من بلد صغير بعيد عن دمشق .. جاءت تزور المعرض .. إنها لا ترى شيئا فى المعرض ، ولا تجد المتعة فى شىء .. وإنما هى جاءت لتمشى على قدميها وتسير فلا يراها أحد ولا يحس بها أحد .. جاءت لتستمتع بالغربة . بالبعد عن كلام الناس وعيونهم وعن الخوف والفزع ..

تقدم لخطبتها أحد أقاربها فرفضت .

سألتها : لماذا رفضت ؟

قالت : ولماذا أقبله . إننى لا أحبه ولم أحب أحداً فى حياتى .. ولا أدرى لماذا يتزوج الناس .. لم أعرف .. لم أفهم .

فقلت لها : لا تعرفين ؟ لا تفهمين . مش معقول طبعا . أنت فى التاسعة عشرة من عمرك .. وتقرئين وتكتبين وتحسِّين .. ولك خيال وأحلام وساعات من الوحدة والعزلة .. وأرى فى عينيك آثار الدموع .. وعلى شفتيك آثار أسنانك .. وفيك حياة وذكاء وجمال .. وكل ذلك لا يدل على شيء ؟ ..

قالت : معك حق .. وكلامى هذا يحتاج إلى تفسير طويل سأقوله لك .. بصراحة . إننى لا أخافك ولا أخاف من رأيك ولا من حكمك على فتاة غريبة مثلى .. أنت لا تعرف من هى ولا من أين جاءت ولا لماذا تجلس إليك .. سأقول لك قصة حياتى وحياة كثيرات مثلى .. لا فى سوريا وحدها ولكن فى بلاد كثيرة من بينها مصر أيضا .

واعتدلت فى جلستها .. وأدارت وجهها إلى .. فأصبحت صورة باهتة حالمة تتحرك على شاشة من البقع البيضاء والحمراء المتحركة .. وأنا أتطلع إليها ولا أدرى ما هذا الشىء الغريب الذى أجلسها معى وأجلسنى معها .. لا أدرى من هذا كله شيئا . إنها لا تذكرنى ، إننى لم

أرها قبل ذلك .. إنني لا أعرفها .. وكلما روت لى جانبا من حياتها .. تلمست نفسى فأحسست أنها تتحدث عنى .. عن عذابى ووحدتى والمرارة فى فمى والمرارة حولى .

أبوها رجل فقير من مدينة حلب . أمها ماتت وتركتها فى السابعة من عمرها وحيدة .. ولها أخوات صغار ، أبوها يعمل فى النجارة وبدأت حياتها على هيئة صدمات عنيفة الواحدة وراء الأخرى .. كل شيء تعرفه بدأ بصدمة فى رأسها أو قلبها .. كل شيء ..

لم يكن أحد يدرى بها .. لم يكن أحد يريدها .. لقد كان أبوها يريد ولدا يصبح رجلا تاجرا يحمل عنه أعباء حياته وأعباء أمراضه .. وجاءت هذه البنت هيفاء .

عندما كانت فى الخامسة من عمرها .. طلبت إليها أمها أن تنام وحدها وطلبت إليها ذلك عقابا لها .. وظلت تبكى فى غرفتها وتحاول أن تقبل يدى أمها ورجليها والأرض أمامها .. ولكن الأم رفضت أن تجعلها تنام معها .. وكانت البنت تنام فى غرفة مجاورة لأمها .. وكانت تحس بكل شيء فى غرفة أمها وأبيها .. ولا تفهم شيئا .. الباب ينفتح .. ثم يقفله أبوها بإحكام .. وصوت ملابس .. وسجائر .. وكوب من العرق وضحكات من أمها وصرخات .. وأصوات أخرى لا تفهمها ولم تحاول أن تفهمها .. كانت تحدث كل ليلة . وكانت الفتاة تبكى فى فراشها وتريد أن تسأل أمها ولكن شجاعتها تخونها . وفى يوم قررت أن تسأل أمها .. وسألتها : لماذا يضربك بابا كل ليلة يا ماما ؟

ولم تحر الأم جوابا وانهالت على ابنتها ضربا وأبعدتها عن هذه الغرفة حتى لا تضع أذنها على الباب .. ولم تفهم الطفلة ..

ومرضت الأم .. وبعد سنتين ماتت الأم ، واعتقدت الطفلة أنها

هى التى قتلت امها !

وأصبحت وحدها فى البيت ..

ورأت أباها على صورة أخرى لم تكن تعرفها .. لقد أصبح أبوها أول الأمر عابسا مكفهرا، يغضب بسرعة.. ولكن بعد ذلك بدأ وجه أبيها يشرق وبدأ الضحك يظهر على وجهه . وظهرت فى البيت خادمة .. عجوز .ثم خادمة شابة وعلى كتفها طفل صغير .. ثم خادمة فى العشرين من عمرها .

ولاحظت البنت الصغيرة أن أباها يضرب الخادمات تماما كما كان يفعل مع أمها .. ولم تكن الفتاة تبكى .. وإنما كان الغيظ يقتلها .. فقد كان أبوها يشترى الملابس للخادمات ويشترى الأحذية .. وكان يعنى بهن الواحدة بعد الأخرى .

وبدأت الفتاة تسأل عن سر هذا الاهتمام .

وعرفت الفتاة كل شىء . وكانت فى العاشرة من عمرها ..

وفى الثانية عشرة من عمرها رأت شيئا واكتشفت شيئا آخر ..

لاحظت هيفاء أن أباها لا يجىء إلى البيت إلا فى ساعات متأخرة من الليل وأنه يجىء مخمورا .. واكتشفت أن أباها عندما يقول لها إنه ذاهب إلى دمشق لا يقول الحق .. وإنما الحق هو أنه يبقى فى بيت سيدة أخرى ويظل عندها طول الليل . وفى الصباح يعود إلى بيته .. وعرفت أن هذه السيدة لها زوج تاجر .. وأنه يظل بعيدا عن زوجته أياما كثيرة من كل أسبوع وشهورا كثيرة من كل سنة .. ولم تفهم البنت فى هذه السن.. لماذا يحتفظ رجل كأبيها بخادمة فى بيته ، ويبيت فى بيت سيدة أخرى لها أولاد ولها زوج . ولم تفهم لماذا يمنعها أبوها من السير فى الطريق نهارا ويمنعها من السير وحدها ليلا .. ولم تفهم لماذا ضربها أبوها عندما داعبها

ابن عمها وأمسك شعرها وهددها بأن يداعب أذنيها .. لقد غضب أبوها .. وباعد بينها وبين ابن عمها ، وبين الشارع .

وكان لا بد لها في هذه الوحدة المريرة أن تجعل من خادمتها صديقة لها .. وجلست طويلا إلى الخادمة واستمعت إلى قصص غريبة عن العلاقة بين الخادمة وبين الأب .. سمعت كلاما لم يخطر لها على بال .. لم تصدقه أول الأمر .. ولم تملك إلا أن تصدقه بعد ذلك .. وكلما أبدت الفتاة دهشتها ضحكت الخادمة وانتفخت غرورا وسعادة .

وأخيرا أعلنت لها الخادمة : هل تريدين أن ترى أباك يقبل يدى ويقبل رجلى .. ويحضر لى الطعام والشراب وأنا فى فراش أمك .. هل تريدين أن ترى دموع أبيك . هل تريدين أن ترى طفولته ، إننى لست خادمة دائما ، وأبوك ليس سيدا دائما ، لحظات يكون فيها سيدا ، ولحظات يكون فيها خادما ، خادما لى وحدى !

ولم تنم الفتاة شهرا كاملا ، لا ليلا ولا نهارا .. وجاء مرض واختفى لونها الوردى وظهر طبيب بعد طبيب . ونامت الفتاة وحدها .. ومعها الخادمة . واعتذرت لها الخادمة عن كل هذا الذى قالته . ولكن الفتاة تريد أن ترى .. إنها لا تصدق . ولكنها تريد أن ترى هذا كله مهما تعذبت .. وأعلنت للخادمة أن المرض والتعب اللذين أصاباها ليسا بسبب هذه الصدمة ، ولكن لأنها تذكرت أمها وحنانها .

وفى ليلة قررت الخادمة أن تزف نفسها إلى هذا الرجل ، وتبدو فى دلال وجمال أمام ابنته .. ولبست أجمل ثيابها ، ووضعت الأحمر والأبيض والشرائط السوداء ، وكحلت عينيها وانتظرت قدوم سيدها ، وحملت الطعام والشراب إلى غرفتها ، ووقفت هيفاء ترقب كل هذا من ثقب الباب ، وكان ثقب الباب يضيق حتى يكون كثقب الإبرة وأحيانا

يتسع كشاشة السينما . ورأت هيفاء وسمعت ، وأغمى عليها وظلت ملقاة بلا وعى أمام الباب ، ساعة وساعة .. ثم أفاقت وانتقلت إلى فراشها لا تريد أن ترى أباها ولا خادمتها ، وضعف بصرها وقال الأطباء إن هذا الضعف سببه الصدمة النفسية ، إنها كرهت الرؤية وأصبحت ضعيفة العينين ، تفضل الليل الذى لا ترى فيه أباها ، أو أى إنسان آخر !

وبعد سنتين اكتشفت شيئا آخر !

اكتشفت أن خادمتها هذه لها صديق ، وأن هذا الصديق يتردد على البيت فى غياب أبيها .. وأنه يتسلل إلى البيت ليلا ، إلى غرفة أبيها ، إلى فراش أمها .. أياما كثيرة من كل شهر ..

وفى يوم قررت هيفاء أن تطرد الخادمة وصديقها . وذهبت إلى ثقب الباب ووضعت أذنيها ، واستمعت إلى الخادمة تقول : إن هذه الفتاة هى الأخرى ليست بريئة كما يبدو لك ، فلها أصدقاء ، ولم تترك شيئا إلا عرفته وفعلته ، وأنا هنا سيدة البيت .. وإذا أردت أن ترى ذلك بعينيك فأنا أستطيع أن أصدر إليها أمرى بأن تحضر لى كوبا فارغا ، هل تريد ذلك ؟

ولكن صديق الخادمة رفض وصرخ فى وجهها : أنت مجرمة ، أليست لديك عواطف ؟ ألم تعد فيك إنسانية ، تعيشين فى بيت هذا الرجل وتخونينه وتعذبين ابنته .. أنت حيوان .. أنت وحش آدمى !

وابتهجت هيفاء ، ونظرت من ثقب الباب لترى هذا الشاب ، ونظرت إليه طويلا وسقطت بجوار الباب . لقد رأت الخادمة عارية تماما ، ورأت الشاب بملابسه كاملة ، وكانت الخادمة تنزع حذاءه ، وتنزع جواربه وتقبل قدميه وتمتص العرق من أصابعه .

وسكتت هيفاء .. والأضواء لم تخمد والأصوات لم تسكن . والناس

فى زحامهم كأنهم فى طريقهم إلينا ، ثم قالت : هل تريد أن تعرف من هذا الشاب ؟

ودمعت عيناها وقالت : إنه الشاب الذى تقدم يطلب يدى من أبى ، كان زميلى فى المدرسة ، وكان وكان .. هذه هى حياتى .. كل شىء عرفته فيها .. كانت صدمة بعد صدمة .. إننى من كثرة الصدمات لم أعد أرى لونا لشىء ، ولم أعد أجد طعما لشىء .. لم أعد أجد طعما لحياة وحدى .. ولا طعما لها مع أحد .. أيـّاً كان هذا الأحد .. أليست هذه قصة ؟ اكتب هذا الكلام .. ولا تسأل عنى .. لقد كسبت منى .. أما أنا فلم أكسب منك شيئا ..

وقامت هيفاء .. وأبواب المعرض كلها ترتد وراءها الواحد وراء الآخر كأنها الدنيا تطردها .. أو كأنها الإنسانية تستنكر كلامها .. وتستنكرها .

لك السلوان يا هيفاء دمشق !

انتقام لكل امرأة

أخطر كتاب صدر عن المرأة هو كتاب العالم الأمريكى «كنزى»، عنوان هذا الكتاب هو «السلوك الجنسى عند المرأة». وقد درس العالم الأمريكى عشرات الألوف من النساء واعترافات النساء بالحب والجنس والخيانة الزوجية .. واتصال المرأة بالرجال قبل الزواج وبعد الزواج .. وبحث عن أسباب النجاح فى الحياة الزوجية .

فكانت النتائج التى خرج بها هذا الرجل مثيرة .. انزعج لها الرأى العام الأمريكى .. وضجت الكنائس وظهرت عشرات الكتب تهاجم هذا الكتاب .. وتهاجم أساتذة الجامعات الذين يضيعون أوقاتهم وأموالهم فى الكلام الفارغ .

وأنا لن ألخص هنا ما جاء فى كتاب طوله ٨٠٠ صفحة .. ولكن الذى لفت نظرى فى هذا الكتاب أن الخيانة الزوجية مريعة فى أمريكا . فقد لاحظ مؤلف هذا الكتاب أنه فى كل عشر زوجات خائنات توجد سبع زوجات خائنات لسبب واحد هو الانتقام من الزوج .

أو بعبارة أخرى : الزوجة تخون زوجها لأسباب كثيرة . ولكن أكبر سبب يدعو الزوجة لخيانة زوجها هو الانتقام منه . الانتقام من اعوجاجه معها ، الانتقام من خيانته لها .. إنها تعامله بالمثل ، أو تعامله بصورة أقسى من معاملته لها .. وهناك زوجات يخن أزواجهن .. والزوج لا يعلم.. وهناك زوجات يجاهرن بالخيانة لكى يزدن من عذاب الرجل وإحراجه أمام الناس جميعا .

ويرى المؤلف الأمريكى أن المرأة إذا فكرت فى الانتقام من الرجل فعلت أى شىء مهما كلفها ذلك .. وكثير من البيوت قد خربت ، وكثير من الفرص قد ضاعت ، وكثير من الأموال قد تلاشت .. وكثير من الأرواح قد أزهقت .. إنها تنتقل من تمزيق شرف زوجها إلى قتله أو قتل غيره من الناس .

ونحن نعرف قصة النبى يوسف مع زليخة زوجة وزير المالية بمصر .. كان يوسف ذلك النبى الإسرائيلى جميلا ولم يكن فى الدنيا كلها من هو أجمل منه وقد رأته زوجة الوزير زليخة فجعلت تغريه يوما بعد يوم . واستدرجته إلى بيتها ، إلى غرفة نومها .. وجعلت تنزع ملابسها أمامه . ولكن يوسف كان من الأنبياء ، فراح يتوارى منها . ويحاول الهرب . ولكن زليخة أمسكته بالقوة ومزقت ملابسه .. واستطاع يوسف أن يهرب منها ..

وشاع فى مصر أن يوسف النبى حاول الاعتداء على زليخة ولكن ملابس النبى يوسف كانت ممزقة من الخلف وهذا معناه أنها هى التى حاولت مطاردته فمزقت ملابسه من الخلف. ورغم أن يوسف برىء من هذه التهمة إلا أنه دخل السجن . وقبل أن يدخل السجن أقامت زليخة مأدبة عشاء لزوجات الأغنياء وكبار رجال الدولة وطلبت من يوسف

النبي أن يجيء ليسلم على المدعوات . ودخل يوسف قاعة الطعام . ولم تكد النساء يرين يوسف حتى قطعن أيديهن بالسكاكين .. وحاولت بعض السيدات أن يعانقن يوسف وأن يمزقن ملابسه ولحمه بأيديهن وأسنانهن .

ووقفت زليخة تقول لهن : ألست معذورة ؟. ماذا أستطيع أن أفعل مع مثل هذا الرجل الجميل ؟. فكلنا فى الإغراء سواء ؟. كل النساء .!

وكان انتقام زليخة من رجال مصر أعنف انتقام . إن هذه الحفلة التى أقامتها كان معناها : أنه ما دام يوسف موجودا فكل امرأة ستخون زوجها مهما كان هذا الزوج غنيا أو عظيما .. إنها أعلنت لكل نساء مصر أن هناك مبررا لخيانة أى زوج .. وأعلنت لكل رجال مصر أن كل زوجة ستخون ما دام النبي يوسف موجودا .. فهو أجمل من كل الرجال، وأقوى من كل الفضائل .

واستطاعت زليخة أن تملأ النفوس بالعذاب .. نفوس النساء ونفوس الرجال .. النساء عاجزات عن مقاومة الإغراء ، والرجال عاجزون أمام جمال هذا الرجل ..

وكان ذلك أقسى انتقام قامت به امرأة .. إنها أرادت أن تنتقم من الرجل الجميل الذى لم يستسلم لها .. لم يستسلم لمالها وجمالها وسلطانها وقوتها .

فانتقمت من كل الرجال ومن كل النساء .

* * *

وقصة الأختين ريا وسكينة ..

إنهما أختان من الإسكندرية كانتا تقتلان النساء .. ويقال إن إحدى الأختين كانت قبيحة الشكل جدا .. فكرهت كل النساء ، وكرهت كل الرجال الذين لا يلتفتون إليها .

فكانت تستدرج النساء إلى بيتها ثم تقوم هى وأختها بقتل هؤلاء النساء الواحدة وراء الأخرى .. حتى اهتدى البوليس إلى بيت ريا وسكينة .. ويقال إن إحداهما كانت قد فشلت فى حبها مع أحد أقاربها .. ابن عمها أحبته حبا هائلا وخانها . وكانت صدمة لها . ولم تستطع أن تقتل ابن عمها .. وثارت على كل الرجال .. ولكنها لن تستطيع أن تقتل كل الرجال . ولن تستطيع أن تقتل كل النساء .. فقتلت الزوجات وروعت الأزواج .

وكانت كل من الأختين تجد لذة هائلة فى قتل العرائس فإذا وجدت عروسا بذلت كل ما فى وسعها لتقضى عليها .. لأن هذه العروس هى المرأة التى تنعم بالسعادة ، وهى المرأة التى أحبها رجل .. فإذا قتلت هذه المرأة قتلت فى نفس الوقت حب رجل آخر .. وهى تريد أن تقضى على سعادة الآخرين وحب الآخرين .. على العروس وعلى العريس فى وقت واحد !

وكان لا بد أن تلقى ريا وسكينة المصير المحتوم من الفضيحة والإعدام .

ولكن انتقمت ريا من حبها الفاشل ، وانتقمت سكينة من خيانة رجل لها .. كان الانتقام من الرجال لكل النساء أو من الرجال والنساء معا ..

* * *

وقصة السفاحة مارى لويز .

إنها قصة فتاة جميلة جدا . تخرجت فى الجامعة . درست الأدب والفلسفة وعلم النفس . سافرت إلى أماكن كثيرة . تملك سيارة صغيرة . ليست فيها عيوب جسمية . قوامها جميل وعيناها كذلك . سجلت

الإذاعة بعض الأغانى لها . لم يلاحظ أحد على سلوكها عيبا أو شذوذا . لا تشرب النبيذ إلا قليلا . إنها فتاة جميلة تغرى أى إنسان بأن يتقرب لها ، وأن يجعلها صديقة أو زوجة .

إنها مخلوق جميل لطيف ..

لم يصدق أحد أن هذه الفتاة مجرمة ومتخصصة فى الإجرام .. لم يصدق أحد ذلك إلا عندما نشرت الصحف صورتها واعترافاتها .

واعترفت «مارى لويز» أنها قتلت عشرة من الأطفال الذكور .. وأنها أطلقت الرصاص على عريس فى طريقه إلى الكنيسة .. وأنها وضعت السم فى كأس عروسين .. ولكن العروسين لم يموتا .. وأعلنت مارى لويز أنها لم تحقق أمنيتها بعد .. فقد كانت تتمنى أن تقتل شابا واحدا بالذات. ولم تعلن اسم هذا الشاب .. فنقلها البوليس إلى أحد الأطباء النفسيين .. وتقدم منها الطبيب وجعلها تنام تنويما مغناطيسيا . وتمددت مارى لويز على المقعد الطويل فى عيادة الطبيب . وطلب منها أن تقول أى كلام يخطر على بالها .

قالت مارى لويز : إننى من أسرة كل أفرادها من رجال الدين .. وفيها كثير من البنات اللاتى ذهبن إلى أديرة الراهبات . وقد حاولت أمى أن تجعلنى راهبة . ولكن أبى رفض . ومات أبى وماتت أمى . واستطعت أن أعيش بمفردى. وأن أعيش وسط ذئاب من الشبان والرجال.. لقد استطعت أن أنجو من أحضان أحد أقاربى وهو أكبر منى بخمسين عاما . لقد تسلق هذا الرجل بيتنا وفاجأنى وأنا فى الحمام فضربته بوعاء كبير فسالت منه الدماء ، وحاولت إحدى السيدات أن تستدرجنى لصديق لها فرفضت وأبلغت البوليس .

وراحت مارى لويز تبكى وتصرخ وتمزق شعرها .. ويقترب منها

الطبيب ويسد فمها ويضغط عليها لكى تتمدد من جديد على المقعد الطويل .. وعاد الهدوء إلى نفسها وراحت تقول : إلى أن عرفت «جاك» وهو جار لى . وقد أحببت جاك وتزوجنا .. ولا أحد فى هذه البلدة يعرف أننى تزوجت .. طبعا تزوجت وهذا حق .. ولكن لم أضع الدبلة فى أصبعى . وأفهمنى جاك أنه يحبنى .. وأنه يريد أن ينجب منى ثلاثة من الأولاد وأنه يريد أن يجعل واحدا منهم ضابطا فى الجيش كأبيه ويجعل الثانى طبيبا كأخيه والثالث يريد أن يجعله مزارعا كبقية أفراد العائلة .. وأنا لم أر أطفالا فى بيتنا وليس لى أخوة من البنات أو البنين .. وازداد حبى لزوجى جاك .. ولم أفكر فى أحد سواه .. إلى أن كان ذلك اليوم الذى اكتشفت خيانته لى .. فى بيتى وفى فراشى .. وجدت معه فتاة تلبس ملابسى وتنام فى فراشى .. وسمعته يقول لها نفس الكلام الذى يقوله لى .. فأطلقت عليه الرصاص .. وتركت الفتاة تنزل إلى الشارع عارية .. وكان ذلك ليلا .. ولا أدرى أين ذهب زوجى .. لقد هرب.. حاولت أن أعثر عليه فلم أجده .. فكرهت زوجى وكل الأزواج وكل الرجال .. وكرهت آمالى وأحلامى .. وكرهت الأطفال الذين سيصبحون ضباطا وأطباء ومزارعين .. وسيكونون رجالا مثل زوجى يخدعون الفتيات فى كل مكان .. وأنا أريد أن أقضى على كل رجل فى هذا البلد .. فى هذا العالم .. اتركونى .. إننى أريد أن أريح النساء من الرجال .. اتركونى .. لقد أعطيت نفسى لكل رجل رفضته قبل ذلك .. أعطيت نفسى لهم جميعا .. ولكن هذا لم يشف غليلى .

وسقطت مارى لويز على المقعد الطويل ..

وبعد دقائق قامت من المقعد الطويل يحرسها رجال البوليس .. ونقلوها إلى السجن .. إلى المشنقة .

* * *

وفى معرض الأطفال الدولى ..

لاحظ أحد المدرسين فى الدنمرك أن طفلة صغيرة ترسم خيطا يتدلى من السماء فى كل لوحة من لوحاتها .. فسألها المدرس : ما هذا الخيط ؟ فقالت : أريد أن أصيد السمك .. ولكن لا أدرى كيف ..

ولم يفهم المدرس .. ولم يقتنع بهذه الإجابة . فسألها عن عنوان بيتها .. وذهب إلى البيت وطلب منها كل الرسومات التى عندها .. ولاحظ أن هذا الخيط الذى ترسمه موجود فى رسومات أخرى على هيئة «حبل» وأحيانا على هيئة «عصا» وأحيانا على هيئة «سيف».. ولم يفهم شيئا ولم تستطع الطفلة أن تعبر له عن إحساسها .

وبينما كان المدرس جالسا معها ومع والديها.. تقدم طفل صغير.. فقامت الطفلة وطوقت عنقه بذراعيها .. وأخرجت من جيبها خيطا ولفته حول عنقه .. وهنا أدرك المدرس أن هذه الطفلة تكره أخاها ، إنها تريد أن تشنقه .. تريد أن تقضى عليه .. لماذا ؟ لقد اشترى له أبواه مسدسا فى عيد ميلاده .. أما هى فلم يشتر لها أحد مسدسا وإنما اشتروا لها كرة حمراء كبيرة .. وهى لا تريد إلا مسدسا كأخيها .. لقد كرهته حتى الموت .. ولم تستطع أن تنتقم منه فراحت تنتقم منه بالرسم !

إنها مضايقات صغيرة تبدأ بخيوط تصبح حبالا ورصاصا ودماء ..

إنها المرأة الصغيرة تنتقم من الرجل الصغير ..

وبعد ذلك يصبح الانتقام كبيرا ..لأن انتقام المرأة رهيب . هكذا تقول الكتب ومحاضر البوليس ، والقرآن الكريم يقول : إن كيدهن عظيم !

جعلوني عريساً

فوجئت أكثر من مرة بأن لى زوجة وأن لى خطيبة وأن لى عددا من الأولاد وأننى اختلفت مع زوجى وأنها تعيش مرة فى الإسكندرية ومرة فى باريس وأن زواجى لا يدوم إلا شهورا معدودة .. ولا أعرف منطق الشائعات هذه . فمرة أتزوج وبعد ذلك أقدم الشبكة ، ومرة أقدم الشبكة وأختلف مع العروس على نفقات الأولاد !

حدث عندما كنت أعمل بجريدة الأهرام أن عدت إلى البيت فى ساعة مبكرة . ووجدت أمى ضاحكة زيادة عن اللزوم ولاحظت أن دعواتها قد تضاعفت ، فهى تطلب من الله أن يعطينى كل السعادة التى عنده ونصف المال والجمال والشباب الذى يعيش به العالم كله .

وطلبت من أمى أن تعد لى حقيبة بها بعض الملابس لأننى سأسافر إلى الإسكندرية لمدة يومين ، وأعود بعدها إلى القاهرة . ولكن أمى على غير عادتها سألتنى :

ــ ولكن يا ابنى هذه الملابس لا تليق .

فلم أفهم شيئا . وعادت تقول : الشر بعيد عنك يا ابنى هيّه العروسة مش بنت بنوت والا ّ إيه ؟!

وبعد مناقشات طويلة انتهت بأن اعتذرت لأمى عن ارتفاع صوتى وغضبى . تبينت أن زملائى فى جريدة الأهرام قد تحدثوا إليها تلفونيا وأخبروها أننى تزوجت سرا . وغضبت أمى لأننى حققت أعز أمانيها دون أن تعلم . وغضبت أنا لأن هذا الزواج قد تم سرا . ولم أفهم لماذا أتزوج سرا ، فأنا لا أخاف أحدا من أهلى أو من الناس !

* * *

ومرة أخرى ..

كنت مع صديق ننتظر جماعة من أقاربه فى محطة الرمل لكى نتناول طعام الغداء فى إحدى الحدائق العامة وظللت هكذا نصف ساعة .

وأخيرا وقف الترام ونزل أقاربه .. سيدة ومعها فتاتان وأشياء كثيرة من القراطيس والحلل وطفل صغير على ذراعى السيدة . وأمسكت أكبر قرطاس فكان أكبر حلة امتلأت بالسمك والدمعة ووزعت القراطيس على صديقى ، والسيدات الثلاث .. وانتقلوا جميعا إلى الطرف الآخر من الشارع . وأطار الهواء الورق الذى يلف الحلة التى أحملها .. فأصبحت الحلة عارية أمام كل الناس .. ومر أمامى أتوبيس وانتظرت حتى استمتع كل الركاب بمنظر الحلة والدمعة تسيل من تحت الغطاء ..

وهناك أدركت الفتيات الثلاث والصديق ومالت السيدة على أذنى وقالت فى أدب : ولو فيها رزالة !

ثم أعطتنى الطفل . وأنا لا أعرف كيف أحمل هذا الطفل .. فمرة أمسكه من رجليه ومرة من رأسه وأنا خائف جدا .. أن تخلع ذراعه أو رجله أو يسقط رأسه من بين كتفيه . وظللت هكذا خائفا طول فترة الغداء

وحمدت الله أن أحدا لم يرنى ..

وعدت إلى القاهرة وسبقتنى الشائعات .. تقول إننى متزوج ولى طفل صغير ، وإننى اختلفت مع زوجتى وسبب الخلاف أنها علمت بحياتى فى القاهرة . وقررت الزوجة ألا تعاشر صحفيا لا يرعى قداسة الزوجية .. وأنها تنصح كل فتاة ألا تتزوج رجلا مثلى جعل شعاره أن هناك ثلاثة أشياء تمنعنى من الزواج : فتيات مكايدات وزوجات خائنات ، وأرامل مرحات !

وماتت الشائعة ، كأنها طفل ولد قبل الأوان . ومنها خرجت شائعات أخرى !

* * *

وبعد ذلك اشتغلت بالتدريس فى كلية الآداب بجامعة عين شمس. وكانت هناك شائعات خطبة وشبكة زواج وغرام تبلغ ضعف عدد الطالبات فى الكلية .

وأنا أعتقد أن أحسن مجموعة من الطالبات رأيتها فى حياتى كانت فى هذه الكلية . وكنت أجلس مع الطالبات ، وأتحدث إليهن فى مشاكل كثيرة ، وأعتقد أن هذا واجب ، وأن اختلاط المدرسين بالطلبة والطالبات هام كاختلاط الجنسين معا . وكنت أسمع الشائعات ولا أشجعها ولا أهتم بها . ولكننى لا أتوقف عن الجلوس إلى الطلبة والطالبات وأضحك وأمرح بلا تكليف وبلا عقد نفسية .

وفى يوم جاءنى أحد الطلبة وروى لى أن هناك شائعة قوية جدا — ولم أفهم معنى قوية جدا هذه — تقول إننى خطبت فعلا الآنسة «فلانة الفلانية». وإن زملائى من المدرسين يروون هذه الشائعة على أنها حقيقة ، واسم هذه الطالبة جديد تماما ، وهى تلميذة فى قسم آخر من الكلية

غير القسم الذى أتولى التدريس فيه .

ودهشت لهذه الشائعة التى لا أساس لها .. وقررت أن أبحث عن هذه الطالبة المسكينة المظلومة . وأخيرا وجدت الطالبة المسكينة المظلومة . وأخيرا وجدت المرشحة للزواج أو للعذاب .. أنها فتاة مهذبة مؤدبة .. ولكن هذه الشائعة خبيثة الغرض . فهى فتاة متواضعة الشكل جدا متواضعة التفكير جدا ، بل متواضعة الأنوثة أيضا !

وتركت هذه الشائعة تمشى على رجلين ويدين وبألف لسان !

ولسبب لم أكن أعرفه امتلأت دار «أخبار اليوم» بشائعة صارخة هى أننى تزوجت سرا أيضا . ولكن لا يخفى سر من الأسرار على الصحفيين .

وأنا مهما حاولت أن أكون صحفيا ، فهناك من هو أبرع منى . وتقول الشائعة إن هذه السيدة قوية الشخصية وإننى تضاءلت إلى جوارها . وإن هذه السيدة زوجتى قد جمعت كل «الشناكل» التى فى السوق ، لكى تجعلنى ألعب عليها فى البيت .

وظللت أعلل هذه الظاهرة . فلم أصل إلى نتيجة . ما هى هذه الأعراض التى تظهر على وجهى أو على تفكيرى وتدل على أننى متزوج ولى أولاد ؟

رحت أتطلع إلى وجوه المتزوجين ، لم أجد شيئا يميزهم عنى أو يميزنى عنهم سوى الخواتم الذهبية شمالا وسوى حرصهم على عدم السهر خارج البيت . وسوى خوفهم من تناول الطعام خارج البيت ، وشيء آخر يمكن أن أسميه جبناً أمام المخاطرات والمغامرات .

وفى يوم عدت إلى البيت وفوجئت بأن إحدى جاراتنا تخرج من غرفة نومى ضاحكة وتتحدث إلى والدتى .. فلم تكد ترانى حتى مضت تقول : يا أختى أنا مش عارفة بنات اليومين دول ... واحدة طلبتك عشرين مرة

وفى كل مرة تسأل مين أنا .. ولما غلبت خالص قلت لها إننى الست بتاعته !

إذن هذه هى الست بتاعتى !

ثم وقع شيء غريب .. جاءنى صديق ودعانى لزيارته فى البيت . وقال إن والدته تريد أن ترانى ، وإن أخته التلميذة فى كلية الآداب تريد أن ترانى أيضا . وسألنى : متى تزورنا ؟

فقلت : قريبا

قال : لا بد أن تزورنا فعندنا لك مفاجأة كبرى ... لن أرويها بنفسى إنما ستحدثك عنها أمى وأختى معا .

وذهبت مع بعض زملائى إلى بيت الصديق وهناك قالت السيدة والدته : اسكت ... يا أستاذ ... عندنا عروسة ... رائعة الجمال والمال . أجمل فتاة فى مصر الجديدة ... ثقافة إيه وجمال إيه .. وقوام إيه .. وسيارة كاديلاك ... وفيلا .. وأبوها إيه .. وأمها إيه ... إنها تستحق من هو مثلك !

ولم أفهم طبعا ماذا تقصد هذه السيدة الطيبة بعبارة «من هو مثلك»؟

وحاولت أن أعرف رأى هؤلاء الناس الطيبين فى شخصى .. ما رأيهم فى رجل مثلى يعيش على فوهة بركان .. بركان فى عمله وفى قلبه.. وفى بيته ... وفى حياته ... إنه يسير كما تنطلق الطائرات النفاثة ، ينطلق بالاحتراق المتواصل ...إن كريات دمه البيضاء تحترق وتتحول إلى كريات حمراء ، والحمراء تحترق وتتحول إلى حبر أسود .

وفهمت أن رأيهم فى شخصى هو أننى أكسب مئات الجنيهات وأننى لا أنفق منها إلا أربعين أو خمسين جنيها . فأين تذهب بقية هذه المئات . لا بد أنها تذهب إلى البنوك . إذن أنا من أصحاب ألوف

الجنيهات . وأنا شاب تجاوز الثلاثين قليلا وأعمل فى الصحافة منذ عشر سنوات .... فهذه الفتاة التى ترفض شابا مثلى إنما ترفض المال والشباب ، والشهرة ومكتبة بها ثلاثة آلاف كتاب !

والله يعلم أن هذا الرأى ليس صحيحا ، وأننى أتمنى أن أكون ذلك الإنسان ولا أدرى كيف أحقق هذه الصورة الجميلة .

وأفهمت صديقى ووالدته وأخته أن الحياة الزوجية علاقة محترمة مقدسة ، وأنه يصعب جدا على مثلى أن يكون ذلك المخلص ذلك المؤمن بقدسيتها . وأن فى حياتى مشاكل كثيرة ، وأن أحدا من أصدقائى لا يعرفها ... فأنا كالقطة أحمل متاعبي بين أسنانى . وكثيرا ما ابتلعت هذه المتاعب كما تفعل القطة أيضا . وأننى أجعل من قلبى مقبرة لمشاكلى. لكى أوفر على أصدقائى مشقة تعزيتى فى متاعبي والسير فى جنازتها إلى مستقرها الأخير ...

وفى يوم زارنى هذا الصديق وقال لى : أنا سأقول لك من هى هذه العروس ... إنها الآنسة «...»

فقلت : أنا أعرفها ... لم أرها . ولكن سمعت عنها ... إنها جميلة وإنها مخطوبة لرجل كان زميلى فى المدرسة ومن بلدتنا المنصورة . وأنا أعتقد أنكم تحبوننى وتكرهون هذه الفتاة ... إن فتاة كما تقولون تلقى بها الظروف فى حياة قلقة معقدة حزينة كحياتي هي مسكينة ولو كان أبوها هو الخواجة «كاديلاك» شخصيا .

وعاد الصديق يقول : والله عندنا فتاة سمراء جميلة ... وأنت تحب السمراوات ... وبجوارنا أسرة الطالبة فيها خمس بنات ... إشارة واحدة من أصبعك فإذا الفتيات الخمس يقبلن نحوك وقد ترتبن حسب الحروف الأبجدية ...

ودار رأسي مرة أخرى وقلت له : يا صديقي العزيز .. أنا أريد أن أعرف ... هل شكلي يضايقك ؟ هل ارتكبت جريمة أستحق عليها هذا العقاب ؟ هل قمت بعمل جليل أستحق عليه هذه المكافأة ؟ هل أنا إنسان قبيح الصورة ، وفي حاجة إلى النصف الحلو لتكتمل صورتي . هل فرغت جميع مشاكلي فلم تبق إلا مشكلة الزواج هذه ؟ إنك لا تعرف شيئا !

ثم سكت صديقي قليلا وقال : يا أخي هل صحيح أنك تزوجت فتاة من أصل مصري لبنانية واسمها «..»؟

ولم أعرف ماذا أقول ؟ لم أعد أفاجأ بأخبار الزواج هذه ...

لقد مات أبي وقد كافح ستين عاما من أجل تسعة من الأبناء . ولم يجن إلا التعب والمرض والعذاب وإلا أن يكون له ابن مثلي يذكر أباه الذي مات ، وينسى أن يقول يرحمه الله !

افتح النوافذ

أنا أقول لك ماذا أفهم من الربيع .

إذا كان الربيع هو امتلاء الأرض بالعشب والورد وامتلاء الحدائق والحقول بالفراش .. وإذا كان الربيع هو إشراق الشمس .. ونعومة الهواء. إذا كان هذا وحسب ، فليس هذا هو الربيع .

فالورد لا وجود لألوانه إذا لم تكن هناك عين تراه ، ولا وجود لعطره ، إذا لم يكن هناك أنف يشمه ، ولا وجود لنعومة أوراقه ، إذا لم تكن هناك أصابع تلمسه .

فالربيع يوجد عندما يوجد من يحس به ، من يملأ به عينه وأنفه وأذنه وصدره ..

أما الذى يخرج للحقول وهو مزكوم ، فكيف يتحدث عن النسيم .. والذى يخرج للحدائق وعلى عينه منظار أسود ، أو تحت عينه منظار أسود ، ويحدثنا عن جمال الدنيا ، فكيف نصدقه .. والذى يجعل أذنيه من طين وعجين ، ويروى لنا روائع النغم من خرير المياه وغناء الطيور ،

فيحسن به أن يسكت .. والذى يلسع لسانه بالنار ، ويضع الفاكهة فى فمه ، ويصف لنا الفرق بين التفاح والبصل البحيرى ، فكيف لا يخجل !

ليس الورد ربيعا ، ولكن الإحساس به هو الربيع ..

ليس النسيم الناعم ربيعا ، ولكن الإحساس بأصابع الربيع ، هو الربيع .

* * *

وإذا كنت فى العشرين ، فلست فى الربيع .. وإنما تكون فى الربيع إذا كنت تفكر كابن العشرين لا كابن الخمسين .. إذا كانت نفسك متفتحة ، ورأسك متفتحا وقلبك له نوافذ بحرى وقبلى .. والنفس التى تدخلها الشمس والهواء لا تعرف الطبيب . وإذا كنت تنشر ذراعيك كالطائر تحنو على الناس حولك ، وإذا كنت تحب الناس وتزرع الورد فى قلوبهم .. وتجعل كلماتك كالفراش يطير خفيفا جميلا ، فراشا يلمع ، لا نحلا يلسع .. فأنت فى الربيع .. فأنت تعيش بسنك وبقلبك ، لا بسن أبيك وقلب جدتك .

* * *

وإذا كنت تؤمن بأن الحب هو سيد الأخلاق .. وأن الحياة كلها معناها الحب .. وإذا كنت تقابل رصاص الكراهية ، بدرع من الحب ، وإذا كنت تقابل الأنانية بالحب ، وإذا كنت تلقى الحسد بالحب ، وتعطى الورد فى مقابل الشوك ، وتمد يدك بالترياق ، ولا تلقى إلا السم .. وإذا كانت حياتك تبدأ وتنتهى بحرفين اثنين هما : حب .. فأنت فى الربيع من عقلك وقلبك . وحتى إذا كنت فى الخمسين أو ما بعدها وعرفت الناس ، عرفت كذبهم وخداعهم ، وعرفت أن الكذب طبيعة الناس ، وأن الحياة أقوى من الأخلاق ومن الدين .. وأن الناس من أجل

لقمة العيش يفرشون الأرض بالشرف ، وينثرون على جوانب الأرض مبادىء الدين .. وأن الأخلاق والدين هما عكاز الفقراء والضعفاء .. وأن الأقوياء يلبسون الدين زينة ويجعلون الأخلاق حذاء يحميهم من أظافر الفقراء .. وإذا عرفت أن كل إنسان يعانقك ويضغط على صدرك وعلى جوانبك، إنما هو يعانقك كما يفعل رجال المباحث .. إنهم يريدون أن يعرفوا إن كان معك سلاح أم أنك تضع المصحف فى جيبك .. إنه عناق للتفتيش أو إنه تفتيش مهذب .. وإن الناس جميعا هكذا .. كل واحد منهم يخفى سلاحه تحت ذراعه أو تحت أظافره أو تحت لسانه أو فى قلبه .. فالناس عناقهم تفتيش ، وقبلاتهم سوء وسلامهم حرب ، وحبهم خداع وإنهم يلعبون بالنار ، وإنهم بشر .. وإن هذه كلها طبيعة البشر ، وإنك تعلم هذا كله وتبتسم ، وتغمض عينيك .

أنت يا سيدى ، وسيد كل إنسان ، ما تزال فى الربيع ، وإن ربيعك الذى امتد حتى بلغت الخمسين .. سيبقى بعد ذلك حتى يضيف لعمرك خمسين عاما أخرى .

* * *

وإذا كنت ترى أن الربيع قد جاء بعد الشتاء ، وأن كل ربيع هو ابتسام الدنيا واعتذارها عن برد الشتاء .. فأنت إنسان متفائل ..

وإذا كنت ترى أن الربيع سيعقبه الصيف بناره وشراره ، وأن كل ربيع سيزول وسيجىء بعده فصل النار والعرق ، وأن الشباب يزول فى الشيخوخة ، وأن الحب يتحول إلى صداقة ، والصداقة إلى زمالة ، والزمالة إلى ذكرى ، والذكرى إلى فناء ، إلى صيف إلى خريف إلى شتاء ،.. فأنت متشائم .

وأنا أعتقد أن المرأة هى صورة حية لهذا العالم .. ففيها النجوم وفيها

الشمس والقمر .. وفيها الجبال والبحيرات ، والورد والشوك والتفاح والرمان والعسل والنحل .. وفيها من كل شيء فى العالم نوعان أو عدة أنواع .

وامرأة واحدة تجعل حياتك كلها ربيعا .. وتستطيع أن تجعل حياتك كلها شتاء دائما وظلاما مستمرا ، ومطرا ورعدا وبرقا .. وتستطيع أن تجعلك ترى نجوم السماء فى عزالظهر . وتستطيع أن تحول البساط الأخضر تحت قدميك إلى «برش» فى سجن مصر .

امرأة واحدة فى استطاعتها أن تشيع الربيع فى خريفك وشتائك وصيفك .. وامرأة واحدة تستطيع أن تكويك بشمس الصيف وتغرقك بمطر الشتاء ، وتسحقك برياح الخريف .

إننى أرى الربيع امرأة .. إننى أراه مظلة تطرد عنى المطر ، وقبعة تحجب عنى الشمس ، ومصباح علاء الدين وخاتم سليمان ، وملايين البنك المركزى ، وبوليس النجدة .

إذا لم تكن فى الربيع ، وإذا لم تحس به ؛ فافتح النوافذ والأبواب .. فى عقلك وقلبك .. واجعل حياتك صفحة بيضاء يكتب عليها الربيع أجمل عباراته وتحياته وقبلاته .. فعباراته ورق أخضر ، وتحياته ورود حمراء وفراشات صفراء !

عليها أسياد

عرضوا عليها طبيبا فى الثلاثين من عمره ، فرفضت الطبيب . قالوا لها : إنه وحيد أبويه .. وعنده عشرون فدانا وله سيارة فخمة .. والمستقبل له .

ولكن الفتاة رفضت الطبيب .

فقالوا : إنها ما تزال صغيرة ودلوعة . ولا داعى للاستعجال الآن . ثم إن الطبيب قصير القامة .. ويدخن السجائر بإسراف .. ويشرب الخمر أحيانا .. وهو يعرف الإنجليزية ويتكلم بها معظم الوقت .. وهى لا تعرف إلا الفرنسية فالتفاهم بينهما صعب ..

وعرضوا عليها مدرسا فى الجامعة .. شابا وسيما .. فى السابعة والعشرين من عمره .. رآها فى إحدى الحفلات . تعلق نظره بها .. وظل يراقبها من بعيد ومن قريب .. ملابسها وما تحت ملابسها.. فانحنى أمام صدرها ، وجف ريقه أمام شفتيها . وعندما سمع صوتها تمنى أن تكون له .. ولم تطل تمنياته فتقدم إلى أبيها وسأله : أريد يد ابنتك بل يديها .. بل أريدها

كلها لى .. هذا قرار اتخذته بينى وبين نفسى .

وأخذ الأب يسأل عن المدرس الجامعى .. ورضى الأب عن سيرة المدرس وعن استقامته وسعة أفقه ورغبته الجادة فى الزواج ..

وعلى المائدة همس فى أذن ابنته : عندى لك مفاجأة !

فقالت ابنته : ما هى يا بابا ؟

قال : مفاجأة .. ككل مرة !

فقالت : من هو العريس هذه المرة ؟

قال : سيحضر بعد الظهر .. ستّرينه وستجلسين إليه .. والأمر لك ولا تنسى أننا نريد أن نفرح بك .

ورفضته الفتاة رفضا باتا .

ولم ينم أبوها تلك الليلة .. ولم تنم أمها .. وظل التليفون حائرا بين يدى الأم وبين يدى الأب .. وكان المتحدثون خالها وعمها وخالتها وعمتها وصديقات الأم وأصدقاء الأب ..

وفى الصباح ضحك الأب فى وجه ابنته وقال : وبعدين معاك .. يعني أنت لا يعجبك أحد فى العالم كله .. والله أنا خائف أن تقعى فى رجل خنشور كأبيك هذا ..

ولم يقل لها أبوها شيئا .. ولم تقل أمها شيئا .. ولكن لم تستطع الأم أن تسكت على هذا فهمست فى أذن أبيها قائلة : والنبي البنت معها حق . مدرس فى الجامعة .. عنده إيه .. إنه يتقاضى ثلاثين جنيها .. هذا كل ما يملك .. يشترى بنصفها كتبا ويظل يقرأ طول الليل وطول النهار .. متى يخرج مع ابنتى .. ومتى يذهبان إلى السينما .. ومتى يتناولان العشاء خارج البيت .. ولا عنده سيارة ولا عنده فريجيدير ..

والله البنت معها حق ..

ويقول الأب : ولكن عنده بيت إيجاره ثلاثون جنيها .. ولديه كتب تباع فى المكتبات ويكسب منها .. ثم إنه رجل محترم وله مستقبل .. أنا فى رأيى أن مدرس الجامعة هذا رجل عظيم .. وأنا أتمناه لابنتى ..

وقالت الأم : والنبى اسكت أنت .. واحتفظ بآرائك لنفسك .. أنا أريد لابنتى رجلا .. رجلا حقيقيا .. أنا أفضل عمدة فى الفلاحين يستطيع أن يجعلها سعيدة على هذا المدرس الذى لا يملك إلا هذه القروش وهذه الكتب .. والله البنت معها حق .. هل نسيت أن هذا المدرس كان متزوجا قبل ذلك .. وأن له أولادا من زوجته التى ماتت .. لا .. لا .. مستحيل !

أما البنت نفسها فقالت : إنه لا يعرف الدنيا .. إنه رجل طيب .. وسوف أحس معه أنه مدرس وأننى تلميذة ، أنه أب وأنا ابنته .. وأنا أريد شابا أحس أنه صديق .. أنه مثلى .. يلعب ويضحك للنكت الصغيرة .. ويجرى ورائى وأضربه ويضربنى .. لا أريد طفلا ولكن أريد شابا فيه رجولة وفيه طفولة ومثقف أيضا .. وليس ضروريا أن يكون غنيا.. إن المال لا يهمنى .

وضحك الأب .. وضحكت الأم . ولم يعجبها كلام البنت ..

وتقدم للبنت ضابط فى الجيش .. رجل أحمر الوجه ، لامع العينين واثق من نفسه .. ذهب إلى أبيها وبدلا من أن يتكلم فى دبلة الخطوبة ، تكلم عن حفلة الزفاف .. وقبل أن يتكلم فى الزفاف والمدعوين ، تحدث عن عدد الأولاد وعن أمله فى أن يكون له ولدان وبنت .. الولد الأول يجعله طبيبا فى الريف .. فى العزبة التى يملكها ويبنى له مستشفى هناك يعالج فيه الفلاحين والفقراء مجانا .. والابن الثانى يجعله مهندسا يبنى

البيوت .. لأن المستقبل سيكون كله قائما على الإنشاء والتعمير .. وستختفى هذه الأكواخ وكل بيوت الطين والصفيح .. وسيجعل ابنه هذا مهندسا نموذجيا يتحدث عنه الناس .. أما ابنته فهو يريد أن يجعلها ست بيت، يريد أن يعلمها الطبخ وخياطة الملابس وتمريض الأطفال، ويريد أن يجعلها هى التى تختار زوجها ، فهى حرة فى أن تختار الرجل الذى يعجبها .. هذه آماله وهذه أحلامه ..

ودهش والد البنت من أن هذا الضابط قد تحدث فى هذا كله دون أن يفكر لحظة واحدة فى أن يسأل الأب عن رأى البنت التى سيتقدم لهـــا .. ولكن الأب لم يخف سعادته فى أن يجد رجلا واثقا من نفسه ومن مستقبله .. رجلا غنيا يفكر فى البيت وفى الأولاد .. ومستقبل الأولاد .. ولم يشك الأب لحظة واحدة فى أن تقبل ابنته هذا الزوج .. الوسيم .. الرجل الغنى الجاد ..

وجاء دور البنت ..

ولاحظت البنت أن هذا الضابط يمسك الملعقة بصورة غير مهذبة.. وأنه يملأ فمه بالطعام فينتفخ وجهه انتفاخاً واضحا .. وكلما لاحظ الضابط أن الفتاة تنظر إليه قال : لا مؤاخذة يا مدموازيل .. أنا رجل فلاح .. أنا من بيت كريم .. لقد كان أبى خادما فى مسجد .. ولكنه رجل عصامى.. لقد بنى نفسه بنفسه .. وأنا كونت نفسى بنفسى.. والإنسان لا ترجع قيمته إلى أبيه أو إلى أمه .. وإنما ترجع إلى عمله وكفاحه ..

ولاحظت البنت أن الضابط يمد يده إلى فتات الطعام الذى تناثر على المائدة ثم يكومه ويضعه فى يده ثم يلقى به فى فمه .. ولما لاحظ أنها تنظر إليه قال : لا مؤاخذة يا مدموازيل .. أنا عارف انك واخده

بالك منى قوى .. لكن هناك مثل بلدى يقول : «جبال الكحل تفنيها المراود».. ومعنى المثل أن الإنسان لو كان عنده جبل من الكحل فإن المرود الصغير يجعله ينقص يوما بعد يوم حتى ينتهى ويتلاشى الجبل .. والذى يجمع «النعمة» فان «النعمة» تجمعه .. وتجعله غنيا .. هذا مثل بلدى . والناس البلدى عندهم أمثال عظيمة . وهناك مثل بلدى آخر يقول : «القعدة على الكوم ، ولا الحوجة للعدو يوم».. ومعناه أن الانسان يفضل أن يجلس على الكوم أو على الرصيف ، على أن يدق باب أعدائه ويسألهم أن يعطوه لقمة أو رغيفا لله .. ووصلت البنت إلى نتيجة واحدة أن هذا الرجل الأصلع العصامى بخيل جدا وبلدى جدا وتنقصه الرقة والذوق والخيال .. وأنها لا يمكن أن تتزوجه ولو كان أبوه صاحب مسجد، لا خادما فى مسجد .

أما أبوها فقال عنه : إنه رجل ظريف ومحدث لبق .. وإنه ليس معقّدا كأبناء المدن ، وإنه أحسن من الطبيب وأحسن من المهندس .. وأحسن من المدرس الذين تقدموا لها .

أما الأم فلم تنشرح لهذا الرجل .. فقد لاحظت أنه عندما يصافحها يضغط على يديها بصورة غير مؤدبة وأنه يغمز بعينيه . ولكن الأم عادت تقول : إنه رجل ريفى .. ولكن عندما يصبح زوجا لابنتى .. فأنا متأكدة أن ابنتى ستغيره تماما .. وستجعله إنسانا آخر .. أنا متأكدة أن ابنتى لها شخصية .. إنها تقرأ الكتب والمجلات .. تقرأ فى الأدب وفى السياسة وفى الفلسفة وفى علم النفس .. ولا يوجد كتاب صدر فى مصر لا تعرفه .. أنا متأكدة من أن هذا الرجل سيحب ابنتى ، فإذا أحبها ، فسيخضع لها ، ستغيره .

ولكن البنت رفضت ورفضت .. وأعلنت أسباب الرفض علنا .. قالتها لأبيها وذكرتها لأمها .. ولم تخفها عن عمها وخالها وكل صديقاتها..

وراحوا يضحكون على «صلعة» الضابط .. وعلى طريقته فى الأكل وفى مسح فمه وغسل يديه .

ولم يسكت الأب هذه المرة .. ولم تطق الأم صبرا على هذا كله .. إن الناس كلهم يتحدثون عن البنت التى رفضت كل من تقدموا لها .. ولكن الناس لا يقولون الحقيقة .. إنهم يقولون إن الرجال يتقدمون إليها .. ثم لا يلبثون أن يرفضوها .. لا بد أن فى البنت عيبا خطيرا .. العائلة كلها تتحدث ، التليفونات مشغولة باستمرار .. الخطابات تروح وتجىء .. والأمهات والبنات يقفن فى النوافذ ويتهمن الأب بالضعف . ويتهمن الأم بأنها هى التى أفسدت البنت .. لم تستطع الأم أن تعرف لموقف ابنتها سببا..والأب حائر.. إنه يستشير الأطباء .. ويدخل الأطباء البيت على أنهم جاءوا يخطبونها ويتحدثون إليها .. ساعات وساعات .. ويذهبون إلى الأب ويقولون : إن البنت فى كامل قواها العقلية .. بل إنها ذكية وممتازة .. والكتب التى قرأتها قد جعلتها إنسانا مستنيرا .

ويثور الأب على الكتب والمجلات التى قرأتها ابنته .

أما الأم فقد انتهت بينها وبين نفسها إلى رأى واحد .. هذا الرأى هو الحل الوحيد لمشكلة ابنتها .

كان من رأى الأم أن ابنتها ..«منظورة» أو محسودة .. لا شك فى أن البنت محسودة .. ولماذا لا يحسدها الناس .. البنت هى وحيدة أمها وأبيها .. أبوها غنى يملك الأراضى الواسعة .. والأم هى الأخرى غنية .. الأسرة معروفة .. أسرة الأم وأسرة الأب .. والبنت مدللة .. وجميلة ومثقفة وذكية .. والشبان يتقدمون إليها الواحد بعد الواحد وترفضهم ، من الذى لا يحسدها ؟. لا بد أنها محسودة ..

هذا هو رأى الأم ، ولم يملك الأب إلا أن يستسلم لرأى الأم .. إلا

أن يذهب إلى المشايخ لا فى القاهرة .. ولكن فى الريف .. حيث لا يعرفهم أحد .

ووضعوا الخرزة الزرقاء فى شعرها .. وأركبوها حمارا بالمقلوب .. ووضعوا الريش حول رأسها .. وقطعوا طرف فستانها .. وأحرقوه وبخروها به .. وجعلوها تنام فى غرفة مظلمة ثم فتحوا عليها الباب فجأة وصرخت البنت .. وفرح الأب والأم .. لأن المشايخ قالوا لهما : إذا صرخت البنت عندما ينفتح الباب عليها .. فمعنى ذلك أن الشياطين خرجت .. وأن الأسياد انطلقوا من جسدها إلى الشارع .

ولم يكتف الأب والأم بذلك .. بل راحا يسألان المشايخ فى القاهرة أيضا .. وقال مشايخ القاهرة إن هناك « عملا » قد ألقى فى النيل عند الزمالك .. وإنه يجب أن يذهب شاب طوله ١٥٠ سنتيمترا ويلتقط العمل بيده اليسرى وأن يغمض عينه اليمنى .. وذهب الشاب إلى المكان والتقط «العمل».

واقتنعت الأم أن البنت محسودة واقتنع الأب أن هناك «عملا» قد ألقاه أعداء الأسرة فى هذا المكان .

والآن .. قد بطل مفعول الحسد .. وبطل مفعول «العمل» .. والبنت أصبحت حصينة منيعة لا يمكن أن يؤثر فيها أى شىء .. لا العفاريت ولا الأسياد .

ولكن مضى عام وعام .. ولم يتقدم للزواج منها أحد .. إن الناس يرونها ولا ينطقون بشىء .. يرون جمالها ولا يتكلمون ، ويرون مالها ولا يتحركون ، ويتطلعون إلى شبابها ويأسفون .

لقد اقتنع الناس كلهم .. أن البنت عاقلة وممتازة وذكية .. ولكن أبويها مجنونان .. وأنه ليس بعيدا أن تصاب البنت بالجنون هى الأخرى..

فالجنون أحياناً مسألة وراثية .. والبنت تضحك .. ولكن الأب حزين على ما أصاب ابنته من كساد ، والأم حزينة لأن ابنتها قد أصابها الجنون .. فهي لا تريد أن تتزوج .. وهل من المعقول أن تكره بنت الزواج ، بنت غنية جميلة .. تكره الزواج ؟ إن الأم لا تصدق هذا وتقول : بنتي مجنونة .. عليه العوض !

فمن هو المجنون .. يا ناس !

هذا المفتاح لك

إننا نحن أبناء هذا الجيل قد تخرجنا فى مدرسة الحقد والكراهية .. قد تخرجنا فى المدرسة التى يتهم بعضها البعض بالخيانة والرشوة وفساد الحكم وضياع المبادىء .. إننا لم نعرف الحب ولا الوفاء ، لم نعرف الصدق .. وإنما كانت تجارتنا رابحة فى الكذب ، وكانت معلوماتنا عن الحياة زائفة ، وكانت معلوماتنا عن المرأة وهمية .

إننا أبناء هذا الجيل لم نتعلم إلا قليلا ، لم نواجه حياتنا بشجاعة .. لم نجد الأب الذى يهدى ، والأم التى ترعى ..

كيف تعلمنا نحن ؟

لقد أطلقنا آباؤنا فى الطرقات نروح هنا وهناك كالبط والأوز فى أزقة الريف أو كالكلاب الضالة نجمع العلم والتجارب من صناديق الزبالة .. فكانت أفكارنا ملوثة فيها تراب وفيها عفونة ، ولكننا لم نجد ما هو أحسن منها ، إلا بعد أن بلغنا سنا كبيرة . فأنا لم أر السينما فى حياتى إلا منذ عشر سنوات .. أى بعد أن تخرجت فى الجامعة وحصلت على

الليسانس .. كنت تلميذا مجتهدا .. وكان مثلى الأعلى هو أن أكون الأول فى الفصل .. وقد حققت هذا المثل الأعلى المتواضع .. ولكننى فشلت فى حياتى فى الدور الأول والثانى وطردت من كل تجربة فى الحياة . لم أعرف معنى الحياة ، لم أعرف معنى النزهة ، لم أعرف معنى الرحلات ، لم أفهم معنى الاختلاط ببنات الجنس الآخر .. لم أعرف قيمة المرأة فى حياة أى شاب .. لم أعرف إلا امرأة واحدة وهى أمى . ولم تعرف أمى من أمرى إلا شيئا واحدا هو أننى أدخل غرفتى وأقفل بابها وأظل أقرأ وأنام وأنا أقرأ ، وأصحو وأنام حتى الصباح .. فإذا كانت غرفتى مضاءة راحت أمى تصلى لله أن يجعل النجاح من حظ هذا الابن المسكين .

ولم تعرف أمى – لأنها سيدة طيبة من أبناء الجيل الأسبق أن طفلا مثلى له مشاكل وله متاعب عندما يخلو بنفسه ، وعندما يجلس إلى أصدقائه .. لم تعرف ذلك أمى . فقد كانت ترانى كائنا حيا يأكل ويشرب وينام . ترانى كالأشجار تروينى وتظللنى وتسقط من عينيها قطرات من الندى على أوراقى .. فأنا أمامها حيوان أو نبات .. هكذا تعلمت وهكذا كان يراها أبوها وتراها أمها .. وهكذا رأتنى ورعتنى .

نحن أبناء هذا الجيل .

لا نعرف من الحرية الشخصية إلا حروفها الأولى .. ولكن نعرف كل حروف البغض والكراهية والحقد والدس والكذب . لم نعرف نحن أن الحب مفتاح الفرج وأن الحب زينة الحياة الدنيا .. وأن الحب كنز لا يفنى .. وأن الله مع المحبين .

كل ذلك لم نتعلمه ، لم نجد أحدا يقول لنا شيئا من هذا كله .. إنما رأينا العصا ، ورأينا العين الحمراء ، ورأينا الإهمال .. ولم نعرف

معنى السينما ، ولا الحدائق، ولا بيت الجيران .. ولا بنت الجيران .. ولا الجيران .. لقد عشنا فى عزلة الخائفين الجاهلين ..

هكذا كنا أبناء هذا الجيل الذين ولدوا سنة ١٩٢٥ .

لم يعلمنا أحد أن الإنسان يستطيع أن يجمع بين الدراسة وبين الحياة .. لم أسمع أحدا يقول لى : تستطيع أن تكون الأول فى فصلك وأن تكون لاعبا لكرة القدم أو كرة السلة .. أو بطلا فى السباحة .

لم يقل لى أحد : إن الرياضة هى شيء أكثر من تحريك اليدين والرجلين .. لم يقل لى أحد إن الرياضة هى تجارب روحية أيضا وإنها دروس فى التعاون وفى المنافسة الشريفة ، وفى الشجاعة والمحبة بين الناس .. وأن يقبل اللاعب الهزيمة بابتسام ، وأن يقبل النصر بتواضع .. تركونى وأطلقونى فى الشارع ضالا .. ولم نعرف على أيامنا أن الكلاب يمكن أن تكون لها أسماء وأن تكون لها رخصة وأن يكون لها أطباء ومجلات.. وأن تقام لها المعارض والزينات وأعياد الميلاد وأن تكتب لها الثروات .. وأن تكون لها عائلات معروفة الاسم والأصل والجنس .. لم نعرف ذلك على أيامنا .

إننا لم نبلغ ما بلغته الكلاب ..

ولم تكن لدينا مكتبات خاصة .. لم يكن فى استطاعتنا نحن الفقراء أن نشترى الكتب وإنما نذهب ساعات طويلة من النهار نقرأ فى المكتبة العامة ولا نستطيع أن نحمل هذه الكتب التى نقرأها معنا .. ولم تكن على أيامنا كتب رخيصة الثمن .. ولو كانت هناك كتب رخيصة لعجزت عنها فلوسنا المحدودة .. ولو كانت فلوسنا القليلة تكفى لشراء كتاب أو كتابين .. فلن يشجعنا آباؤنا على ذلك .. لماذا لا نشترى بهذه الفلوس بعض الحلوى أو بعض الفاكهة .. إنها تفيد الجسم وتقوى الصحة ..

أما الكتب هذه فما قيمتها ، وماذا بعد القراءة والكتابة ليلا ونهارا .. كل ذلك لا ينفع وإنما الذى ينفع هو الصحة .. هو الجسم السليم الذى يلد العقل السليم !

أذكر أننى سألت والدى مرة : أنا من أين جئت يا أبى ؟

فضحك أبى رحمه الله وقال : عندما تكبر ستعرف ..

ولم أنتظر حتى أكبر فأعرف.. وإنما عرفت ذلك من أولاد الشارع .. عرفت أننى جئت بصورة مخيفة .. ظللت أفكر فيها ولا أصدق ما اهتدى إليه تفكيرى .. وسألت أمى مرة : كيف ولدتنى ؟

وعرفت الجواب وكان قويا مقنعا كاد يخلع أسنانى ويطفىء النور من عينى .. وبعد ذلك عرفت أن هناك سرا لا يذكره الأب ، وتخجل منه الأم .. وانتقل الخوف والخجل إلى نفوسنا نحن أبناء هذا الجيل .. ودخل الخوف مع الخجل نفوسنا .. وظللنا نفكر وحدنا فى الظلام ..

كنا نكتب على الأرض بأصابعنا ، وكنا نتفرج على صندوق الدنيا.. ونجمع الأوراق من الأرض نقرأها .. وتكون الأوراق قذرة ، وكنا ننفض عنها التراب .. وكثيرا ما دخل التراب فى عيوننا ، فنلزم بيوتنا ! ولا نذهب إلى طبيب ، فلم نكن نعرف على أيامنا أن هناك أطباء للعيون وأطباء آخرين للأذن والأنف والحنجرة .. إنما كان يقوم بكل هذا العلاج طبيب القرية أو حلاق الصحة .. إنه الرجل الذى كان يحلق الصحة من عيوننا وآذاننا وأجسادنا .. وكان محترما وكان غنيا وكان كالقضاء والقدر إذا قال فعل ..

أذكر أننى شكوت مرة من ضربة الشمس وارتفعت درجة حرارتى.. ولم يفلح الأسبرين ولا الكينين .. وقالت النساء إن الولد محسود .. وعلى أيامنا لم يكن من الضرورى أن يكون الإنسان غنيا أو عظيما ليحسده

الناس ، وإنما يكفى أن يكون حيا فيحسده الناس .. وأما حلاق الصحة فقال : لا بد أن يكوى بالنار .

وأنقذنى أبى من يد الحلاق .

ولكننى اكتويت بالنار وبغير النار بعد ذلك عشرات المرات . وكلما تذكرت الحلاق قلت فى نفسى : ليت الحلاق فعل .. فهو أرحم كثيرا مما أعانى .. بل إنه أرحم الراحمين !

هذا جيلنا .. نحن الذين ولدنا سنة ١٩٢٥ .. نحن أبناء الريف .. الذين لم يعرفوا حياة المدن والمدينة إلا أخيرا . نحن الذين عرفنا الكثير من كل شيء فى سن متأخرة .

إننا نحن أبناء هذا الجيل .. ننظر إلى الأطفال الصغار .. ونرى الحياة والأمل والشجاعة والجرأة ونرى فيهم الإقبال على الدنيا وعلى العلم.. إننا نرى فيهم كل ما كنا نتمناه .. نرى فيهم كل ما عجزنا عن تحقيقه .

على أيامنا لم يكن هناك كورنيش نيل أو بحر .. ولم تكن حدائق عامة ولا سيارات فخمة ولا مكتبات ولا حفلات ولا هدايا ولا لعب ولا أفلام .. ولم نكن نعرف ميكى ماوس ولا طرزان .. بل لم نعرف أننا بشر ولسنا دجاجا أو بطا أو حشرات إلا فى سن متأخرة .

لقد عرفنا الخوف والكراهية .. ولم نعرف الحب ..

أما أبناء هذا الجيل الذى نراه يحبو ، ويتهامس فى الليل فى النوافذ وفى الحدائق وعلى الكورنيش وفى التليفون وفى المقاعد الخلفية من السينما.. هذا الجيل يجب أن يحرص على هذا المفتاح الصغير الذى لم نعرفه .. أن يحرص على الحب ..

يا أبناء هذا الجيل احرصوا على الحب ، توهب لكم الحياة .

لقد كنا نحطم النوافذ والأبواب .. لأن صناعة المفاتيح لم تكن قد تطورت بعد ..

أما أنتم فمفتاحكم اليوم هو الحب .. لا يقف أمامه باب ولا نافذة ولا قلب .. فهنيئا لكم ، وصبرا لنا .

صياد فريسته المرأة

عندما يتباهى الشاب فإنه يتحدث عن عدد الفتيات اللاتي غزا قلوبهن وانتصر عليهن فى النهاية .

وعندما تتباهى الفتاة فإنها تتحدث عن عدد الفتيان الذين ردتهم وصدتهم وأهملتهم .

الشاب يفكر بعقلية الصياد الذى لا يخطىء الفريسة .

والفتاة تفكر بعقلية الفريسة البارعة التى لا يستطيع صياد أن يوقعها بسهولة .

فإذا وقعت الفريسة فى الشبكة .

فالشاب يقول إنها براعة . والفتاة تقول إن الشاب مسكين . وإن قلبها رق لحاله .

وإذا قال الشاب إنه تعب فى صيد الفريسة . فلا يقصد بذلك أن يوجه تحية إلى الفريسة الصعبة التى لا يقدر عليها إلا كل جبار . وإنما

بريد أن يقول إنه تعب وتعب . ولكنه استطاع أن ينتصر عليها فى النهاية أن التحية موجهة له وحده .

وعندما تقع الفريسة فى الشبكة : فى الحب فى الزواج فى الخداع .. فإنها تحاول أن تتخلص منه . ويحاول هو أن يتمسك بها . وتتعود الفريسة على الشبكة . ويجيء الشاب فيصنع من الشبكة قفصا . وللقفص باباً . ويتحول القفص إلى بيت له أبواب وعلى الأبواب أقفال ، ومفاتيح الأقفال فى جيبه . وبعد ذلك تصبح الأبواب بلا أقفال ، وتنقل المفاتيح من جيبه إلى جيبها .

وتتعود الفتاة على الحياة فى البيت ولكنها ما تزال خائفة من الصياد ، وخائفة عليه . إن الصيد غريزة فى الرجل . إن المرأة تطورت وتقدمت اجتماعيا على الرجل . فهى التى علمته حياة البيت ، وهى التى أقامت أركان الأسرة ، أما الرجل فلم يتطور بعد . إنه صياد ، يضع بندقيته على كتفه وينطلق إلى الغابات والبارات والشوارع والنوافذ ويصوب رصاصه إلى قلوب جديدة .

ومهمة الزوجة هى أن تنزع السلاح من هذا الصياد ، وأن تسد فى وجهه النوافذ والأبواب والبارات والشوارع . إنها لا تريد أن تحبس زوجها . ولكنها تريد أن تصيده كما صادها ، أن تضعه فى الشبكة كما وضعها ، أن تقفل عليه الأبواب ، وتضع المفاتيح فى جيبها .

وكل خلاف بين اثنين متحابين هو خلاف على المفاتيح ومن الذى يضعها فى جيبه . وكم مفتاحا فى جيب كل منهما ؟

* * *

أعرف سيدة مثقفة جدا وجميلة تفتش جيوب زوجها كل يوم وكل ليلة . بل إنه عندما يعود إليها عند منتصف الليل تأخذه بالحضن وتشم

كتف الجاكتة ، من هنا ومن هناك . فالرجل عندما يرقص مع امرأة ، فإنها تضع يدها على كتفه، وفى يدهـــا عطر ،وأثبت شيء فى المرأة هو عطرها . وهو الذى يترك أثرا بعدها .. إنه يترك بصمات لا ترى ولكنها لا تمحى . وأعرف أن خلافات بين الزوجين تدور في الساعات الأخيرة من الليل . وكثيرا ما يكون الزوج مظلوما ، حين تحتك به سيدة في الأتوبيس ، ويفسح لها الطريق ، وتنحرف السيارة ، وتسقط السيدة في أحضان هذا الزوج .

وقد حدث مرة أن نزل من الأتوبيس وتذكر رائحة العطر عند كتفه فانطلق فى سيارة تاكسى إلى إحدى محطات البنزين واشترى «حفانا» من البنزين ومسح به الجاكتة .. وكانت الساعة الثانية صباحا ..

إن الشبكة التى نصبتها زوجته رقيقة ناعمة ولا يشعل النيران فيها إلا عطر النساء الأخريات . وفى كل مرة يعود الزوج إلى البيت تقوم الزوجة بإجراء كشف الهيئة عليه : تنظر إلى شفتيه ، فلا ترى أثراً لامرأة أخرى .. وتنظر إلى شفته السفلى .. فلا ترى أثر الكدمات .. فهذه الشفة السفلى هى أكبر دليل على خيانة الرجل . إنه يزعم بين حين وآخر أن السبب هو أمواس الحلاقة الرديئة الموجودة فى الأسواق هذه الأيام . وتذهب الزوجة وتشترى له عشرات من الأمواس ، وتقوم بتغيير هذه الأمواس يوميا ، وبذلك لا تكون له حجة .. وأحيانا يزعم بأن البقعة الحمراء فى شفته السفلى سببها «الارتكاريا» .. والارتكاريا مرض يصيب الجلد لأن الإنسان أكل بيضا أو طماطم أو طعاما به شطة .. ولكن الزوجة لا تقدم له هذا الطعام ، فأين أكله ولماذا ومع من ومتى ؟ إلى آخر هذه الاستجوابات .

وكان الزوج يدخل الشبكة ويسحب الغطاء على وجهه عندما تطفىء زوجته المصباح وتقول : براءة ...

وأعرف سيدة أخرى ..

هذه السيدة تتحدث عن الحرية التى يجب أن يتمتع بها الزوج ومن رأيها : أن الرجل لا يقنع بالنظر إلى امرأة واحدة ، وأن هذه طبيعته . والإنسان لا يغير الطبيعة . وإذا غيرها ، فكما تغير أشعة الشمس لون البشرة . فإذا جاء الشتاء تغير لون البشرة وعاد إلى بياضه . ولذلك يجب أن نعطى للرجل فرصة يكون فيها طبيعيا . سيضايق ذلك المرأة . ولكنه شر لا بد منه . فالرجل حيوان ، والزواج يجعله إنسانا ، ولكنه يحن إلى حيوانيته ..

وحين عرفت هذه السيدة أن زوجها جلس إلى جوار سيدة أخرى وابتسم ، ظلت تبكى ليلا ونهارا .. إن قلبها يقول شيئا ، وعقلها يقول شيئا آخر .

وحار الرجل فى أمر زوجته : فهى تفتح له الباب فإذا خرج اتهمته بالخيانة ونكران الجميل . ولكن البيت أى بيت ، لا بد أن يكون له باب يقف فى وجه الريح ويعترض طريق اللصوص .

وبعد ذلك عرفت أن الرجل وزوجته قد اتفقا على شيء . اتفقا على أن يضع كل واحد منهما مفتاحا فى جيبه . وأن يكون لهما بابان وبيتان متباعدان .. وأن تكون العلاقة بينهما لها اسم آخر هو : الطلاق ..

لقد فتحت الزوجة الباب بيديها . فدخلت الريح ، فأشعلت فى البيت النار ، واحترق رجل وامرأة .

* * *

وأعرف صديقا . إنه شاب طيب القلب ، سهل ويحب الهدوء والسكون فى البيت ، إلى الزوجة إلى الأولاد . ويحب الناس والجلوس

معهم . إنه رجل اجتماعى ورب أسرة . ومضت حياته هكذا سنوات . كان يحب زوجته .

وهذا الشاب تعب فى اقتناصها . وكلما وضع لها فخا حطمت الفخ. وكلما ألقى حولها الشباك هربت منها .. فجعل من نفسه متاريس تعترض طريقها . وكانت تقفز من فوق المتاريس والحواجز .. وعرف أن المرأة لا تقوى عليها الشباك ولا الحواجز ولا الأسوار ولا النار ولا الرصاص . وإنما المرأة تشبه الكهف الذي له باب من الصخر ، وهذا الباب كان «على بابا» يفتحه بكلمة واحدة : افتح يا سمسم .. وينفتح الكهف ووراءه كنوز من ذهب وفضة .

وكذلك قلب المرأة تفتحه الكلمة اللطيفة ، والابتسامة الخفيفة ، ولمسة الإصبع ، والزهد فيها ، والترفع عنها .. فبدأ يبتعد عنها وبدأ يعاملها بكلفة ويكلمها بحساب .. وتدنو منه فلا يمس إلا ثوبها .. وثوب المرأة كجلدها تماما .. إنه حساس أيضا .. بل إنه أكثر حساسية وأجمل وأكمل من جسمها . وجرب ثوب المرأة .. واستسلم له هذا الجلد .. واستسلم له الجلد الثانى والثالث .. إنها حصون تتساقط الواحد بعد الآخر وتزوجها عشر سنوات. وأعجبت به الزوجة . لقد حاول معها كل الحيل واستخدم معها كل الأساليب .. لقد أضحكها وأبكاها ، وملأ عينيها بالنوم وملأها بالدموع ، وأفرغ معدتها من الطعام ، وملأ قلبها بالحنان .. والمرأة كأبى فروة لا شيء ينضجها إلا النار .. ونضجت الزوجة . وأطفأ الزوج نيرانه . ولكن الزوج ينسى أن المرأة تختلف عن أبى فروة . فأبو فروة ينضج مرة واحدة ويصبح صالحا للأكل .. أما المرأة فهى كالمصباح الكهربائى .. تشتعل وتنطفىء .. ومهمة الزوج ألا يسكت أبدا عن إشعالها يوما بعد يوم .. إنها نوع غريب من أبى فروة .. إنه ينضج ما دام فى النار فإذا خرج من النار عاد ثمرة باردة تطلب النار من جديد .

وأحست الزوجة أن حياتها مهددة بالبرود والخمول ، وأن الزوج قد تعب من إشعال النيران .. والنيران هى الاهتمام والحنان والجرى وراءها تماما كأيام الخطوبة ، والوقوف كطرزان فى وجه أبيها وأمها ورجال الكنيسة ..

وأمسكت هى البنزين وأشعلت عودا من الكبريت .. عودا بعد عود .. والزوج يبكى وهى تبكى أيضا .

أما البنزين فهو الغيرة . لقد أرادت أن يكون بيتها على الطراز الحديث ، فزودته بكل وسائل التدفئة والكهرباء والحريق .. والتعب ..

إنها تتعلق بكل أصدقائه الواحد بعد الآخر .. والزوج يغار ويسكت ولكن لا شىء يضايق الزوجة إلا سكوت الزوج ، وتتمادى الزوجة فى الكلام وفى العلاقة ، وزوجها يعلم أنها تحبه وأنها تريد أن تعاكسه .. فقط . والزوجة تريد أن تثير الغيرة في قلب الزوج ، وأن تجعله يشعر بأنه فقدها وأنها ستضيع من يده ، فينهض من جديد وينصب الشباك وينطلق وراءها تماما كالأيام السابقة على الزواج ..

ولكن الزوج ساكت لا يتحرك ..

وتعود الزوجة إلى شىء آخر .. إنها تسهر وتقامر وتعود آخر الليل مرهقة وفى أصابعها سيجار وفي عينيها احمرار ، وفي رأسها دوار .. وفى البيت نار . وهنا يغار الزوج ويثور وتشعر الزوجة باللذة والسعادة .. فلا شىء يسعدها أكثر من أن يحس زوجها بالغيرة ، والغيرة تعذبه ، وعذاب زوجها لذيذ .. زادت لذتها وأقبلت عليه تعانقه وتقبله وتبكى من أجله ..

إنها تريد أن تحوله من قط إلى نمر ومن نمر فى قفص إلى نمر طليق ،

فإذا انطلق وانقض عليها النمر ، راحت تستعطف القط . فإذا أصبح قطا راحت تبحث عن النمر ..

وهذا الصراع لا يقوى عليه الرجل .. بعد الزواج .

وإنما هو صراع يعمد إليه الرجل قبل الزواج ، فإذا فاز بالفريسة وهى الزوجة ، فإنه يتحول إلى قط وديع وتنتهى مرحلة التنمر هذه .. فمرحلة التنمر مرحلة مؤقتة . تماما كالصياد الذى يحمل البندقية ويختفى وراء الأشجار ولا يطبق عينيه ولا أذنيه .. حتى يرى الفريسة ويصيدها. هذا الصياد لا يحمل سلاحه معه ليلا ونهارا . ولا يحمل سلاحه وهو يأكل وهو يشرب .. وإنما يحمله فقط عند خروجه إلى الصيد .. وبعد ذلك لا يستريح إلا إذا رزقه الله بزوجة توقظه من نومه وتعطيه البندقية وتحشوها بالرصاص وتقول له : هل تعرف الجرى؟ فيقول لها : نعم ، وتقول له : إذن عليك أن تستردنى من أيدى أصدقائك ..

هذه البيوت تتحول إلى أقفاص ، والأقفاص تتحول إلى شباك والمرأة تتحول إلى حيوان مفترس ، والرجل يتحول إلى صياد فقط .. هذه بيوت مكتوب عليها : جهنم ..

إن الرجل يتزوج ليحول الشبكة إلى بيت ، والفريسة إلى زوجة ، والبندقية إلى لعبة لابنه الصغير : والخلاف بين الرجل والمرأة هو على شيء واحد : متى يبدأ الاستقرار والتحول من حيوان إلى إنسان .

أما الرجل فيقول : حالا ..

وأما المرأة فتقول : بعدين ..

وتنشب الحرب بين الصياد والفريسة .

لاشىء ينتهى

اتفق الاثنان على أن تنتهى هذه العلاقة . لم تكن علاقة . بل شىء أعمق وأطول . ليس الذى يربطهما قيد من الحديد أو من الحرير . إنما هو شىء أرق وأكثر حرارة .. إنه خيط رفيع كالذى يربط الجنين بأمه .. واتفق الاثنان على قطع هذا الخيط . وأن يتباعدا .. وألا يفكر الواحد منهما فى الآخر .. وألا يتحدث عنه . وأن يمسحه من ماضيه .. وأن يفقد ذاكرته وأن يبدأ حياته بعد قطع هذه العلاقة .. وإذا رأى الواحد منهما الآخر فى الطريق ، فلا يجب أن يحييه .. أن يتجاهله .. وأن يتعود هذا التجاهل .. حتى يصبح التجاهل جهلا ، والتعود عادة .

وأنزل كل منهما سماعة التليفون ..

وسحب هو الغطاء على وجهه ، ونام . وسحبت هى غطاء من الدموع على وجهها .. ونامت الدموع ، ولم تنم هى. إنها لم ترد أن تبكى. ولكن الدموع نزلت وحدها . من أين ؟ ولماذا ؟ كأن هذه الدموع تريد أن تجرى وراءه ، أن تتعلق به ، أن ترده إليها . أن تجعل المسافة البعيدة

بينهما قناة ملاحية أو كأنها أرادت أن تطفىء النار التى اشتعلت فى قلبها . ولكن الدموع حارة ملتهبة هى الأخرى .. إن النار فى صدرها قد تحولت إلى بخار ، والبخار قد تقاطر وأصبح دمعا .. حتى هذه المعاني لم تكن تدور فى رأسها ، وإنما سمعتها منها بعد ذلك .

وكان الاتفاق بينهما هو أن يحتفل الاثنان بهذا الوداع الطويل أو بهذا الانفصال أو هذا الطلاق .. إنه طلاق .. لأنه كان زواجا روحيا .. وهذا هو الزواج الحقيقى ، وهناك ملايين الأزواج قد وقفوا جميعا أمام المأذون وامتدت أيديهم ووقعوا وثيقة الزواج .. والحقيقة أنها وثيقة طلاق .. نعم لقد عاشوا جميعا معا فى بيت واحد ، فى غرفة واحدة ، فى سرير واحد ، بل فى جانب من سرير واحد .. ومع ذلك كانت قلوبهم جميعا فى أماكن أخرى .. فالزواج هو زواج القلب وليس زواج الجسد .. وكانا زوجين، وكان المأذون هو الحب .. وهو المأذون الذى لا يراه أحد، ولا يحتاج إلى شهادة الشهود ولا موافقة الأب أو الأم أو الدين أو الدولة.. كان زواجا روحيا ، وكان الاتفاق أن يتم الطلاق بينهما كما تم الزواج ، كان لا بد أن يلتقيا ، وكأنهما اثنان من الجنود يقفان على جانبى خط الهدنة .. كان يجب أن يتصافحا بلا تعانق . وأن يمد كل منهما يده للآخر يعطيه صوره وخطاباته وهداياه .

وقالت لى : تصور هذا يحدث .. تصور .. إننى لا أستطيع أن أتصور هذا .. إننى لم أستطع أن أنظر إلى وجهه .. أن أنظر إلى عينيه وإلى شفتيه .. هل هذا ممكن .. هل هذا حقيقى.. إنه يمثل . إنه يهزل .. لماذا لم يقتلنى ، لماذا لم يضربنى بالرصاص .. لقد طلبت منه ذلك .. طلبت منه أن يقتلنى .. فإننى عشت من أجله ، وتمنيت أن أموت بيده.. إننى أفضل الموت بيده أيضا .. تصور .. هذا الوجه يكذب .. هذا الابتسام خداع .. هل هذا ممكن .. حرام .. حرام .. كل هذا دفعة

واحدة .. حرام .. وأتحمل أنا هذا وحدى ..

وجلس الاثنان وجها لوجه .. وعلى حافة النيل .. وهى لا تدرى بشيء .. ولا تعرف إن كانت على الأرض ، أو على السحاب .. كيف يمكن أن يحدث هذا كله .

ولكنه حدث ..

امتدت يد الشاب وأخرج من جيوبه خطابات زرقاء .. وصورا .. ونزع من يده ساعة .. ووضع آلة تصوير بالقرب من الساعة .. وفتح حافظة نقوده .. وأخرج صورة صغيرة لهما قد أخذت بالقرب من الهرم .

وأغمى على الفتاة .. وعندما أفاقت بعد أيام قالت لى : هل يمكن أن تتصور أنى كنت أشعر بأنى أتمزق قطعا قطعا .. كلما أخرج من جيبه ورقة أو صورة أحسست أنه نزع قلبى .. فهو ينزع قلبى من جيبه الشمال .. وعقلى من جيبه اليمين .. لقد كنت أعيش فيه .. وهو الآن يطردنى عضوا عضوا .. كأننى أحد السكان فى عمارة .. وكأنه صاحب البيت .. وكأننى لم أدفع الإيجار عشر سنوات .. فليس أمام صاحب البيت إلا أن يلقى بأثاث بيتى من النوافذ .. تصور أن هذا الأثاث هو أنا .. .. أنا الأثاث .. أنا السرير .. أنا المقعد .. أنا الوسادة اللينة .. ثم أنا الخادمة التى تحرص على هدوء هذا البيت .. لم يعد لى شيء .. الآن .. ولا بعد الآن .

وبعد هذا كله إنها لا تعرف مادا حدث أثناء هذا كله ، ولا قبل هذا ولا بعده .. إنها فى دوامة .. إن الدنيا كلها تدور حولها .. وتميل بها يمينا وشمالا .. إنها تغمض عينيها حتى لا تقع على الأرض .. مع أنها واقعة على الأرض ، بل تحت الأرض .. إنها أصيبت بهذيان .. لقد نظرت تحت قدميها فوجدت قطة سوداء . فصرخت .. وارتمت على

المنضدة .. لقد تصورت أن هذه القطة هى قلبها .. وأن قلبها هرب منها .

إنها تريد هذا القلب .. إنه خزانة أسرارها وحياتها . ليس لها مستقبل. ولكن لها ماض .. إنها لا تريد شيئا أكثر مما عندها ، وإنما تريد أن تحتفظ بها لديها .. ومنذ اليوم ستقول : فى يوم من الأيام كان لى قلب .. ولى حب... وكان لى شباب وشاب ..

كانت الكلمة الواحدة معناها دنيا جديدة .. كلمة واحدة منه تكفى .. بل الحرف الأول من أية كلمة يكفى .. إننى أؤمن بأن الله قد خلق العالم بكلمة واحدة .. فعندما قال له : كن ! .. كان هذا العالم .. لقد كان حبيبي يقول لى أى كلام . كنت أصدقه .. وكنت أحوله إلى روايات وقصص أعيش عليها .. الكلمة ترفع ستارا ووراء الستار قصة تنقلني من يقظتى إلى أحلامى إلى يقظة أخرى وأحلام لا نهاية لها .. إنني لم أعد أسمع هذا الكلام .. ولن أسمعه .. انتهى كل شىء .

ولم ينته فى الحقيقة أى شىء ..

إنه لم يساعدها على أن تنساه . لم يساعدها على أن تكرهه .. على أن تلعنه .. على أن تجد سببا معقولا لهذا الطلاق .. أبدا .. لماذا بقى مهذبا حتى النهاية .. لماذا لم يكن وقحا بل لماذا لم يكن مجرما .. لماذا لم يلق بالخطابات والصور فى وجهها . لماذا لم يسخر منها أمام الناس .. لماذا لم يجمع كل ما لديه ويرميه فى النيل .. لم يفعل شيئا من هذا .

وإنما كان يبتسم وكأنه أحد السفراء يقدم أوراق اعتماده إلى رئيس دولة جديدة .. حتى الابتسام احتفظ به ، ولكنها استطاعت أن تتأمل ابتسامته .. إن وجهه أبيض .. ما يزال أبيض .. إن عينيه صافيتان ، لم تعرفا السهر ولا الدموع ولا الأرق ، لم تسهرا من أجل أحد .. لقد نام

أمس طول الليل ، بينما هى لم تعرف الندم لا أمس ولا قبل أمس بعشرات الأمسيات وابتسامته تملأ كل وجهه .. ولكنها لم تر وجهه جميلا ولا ابتسامته جميلة .. إنها رأت البياض والحمار في وجهه .. كأنهما بقع من الدم على منديل أبيض سقط من يد مجرم .. نعم من يد مجرم .. وإنه هو مجرم .. وهذا المنديل الأبيض هو حياتها هى الصافية النقية .. وهذه الدماء هى الماضى الأليم الذى تركه فى حياتها .. دماء لا تغسلها مياه .. لأنها دماء فى أعماقها .. دماء تنزف فى مكان لا تصله الأيدى ولا الماء ولا الصابون .. دماء في قلبها .. إنه مجرم ..

ولكن حتى هذه الكلمة الأخيرة لم تستطع أن تقولها .. إنها تبكى على أدبه ورقته وتقول لى : ليته كان وقحا معى .. ليته ضربنى .. ليته طردنى .. بل ليته قتلنى .. إنه علقنى بين الحياة والموت .. إننى الآن كالذى يجلس على الكرسى الكهربائى . ينتظر الموت .. وابتسامته هذه هى الأمل الوحيد في أن أموت .. إنها الكهرباء التى ستنقل فى الأسلاك إلى الكرسى الذى أجلس عليه .. وصدمة واحدة .. أتحول بعدها إلى اللون الأسود الذى ملأ خطاباتى له ..

ولم تنته هذه العلاقة .. وكيف ؟. كأنها خاصمت الهواء ، وغضبت من الماء ، ولكن كيف تهرب من الهواء وكيف تستغنى عن الماء .. إنها تستطيع أن تحبس نفسها عن الشارع ، عن الحدائق ، عن دور السينما ، عن المطاعم.. عن الملاهى..حيث الهواء دافىء ملوث بالدخان والعطر.. وتبقى وحدها في البيت .. حيث الهواء أيضا ..

لم ينته أى شىء بل بدأ شىء جديد . إن الحب كان يملأ حياتها .. يملأ حياتها كلها .. إنها لم تكن تتصور أبدا ذلك .. لقد كانت تتصور أن الحب هو الفستان .. الفستان «المحزق» على حياتها .. إنه يضم حياتها

ويضغط عليها .. ولكن اكتشفت أن الحب هو الجسم وليس الفستان .. وأنها بلا جسم ، وأن فساتينها ليست إلا الغلاف الخارجى لحبها.. ليست إلا الغلاف الغازى الذى يحيط بالأرض .

ولم تكن تتصور أن هذا الطلاق الروحى سيشمل كل حياتها .. كانت تتصور أن يحطم قلبها ، ويدوخ عقلها فقط .. أما بقية حياتها فستمشى عادية دون أن يدرى بها أحد .. ولكن حدث ما يحدث أيام الغارات الجوية والانفجارات .. فالقنابل عندما تسقط فى مكان تتحطم فيه البيوت .. وتنتقل الشظايا إلى بيوت أخرى .. بل إن هناك بيوتا بعيدة جدا لا تصلها الشظايا ولا القنابل تتحطم وتنهار وتطير أبوابها ونوافذها .. لماذا ؟ لأن الانفجار قد سحب الهواء من الأماكن البعيدة .. واندفع الهواء يلبى نداء النار والدمار ويشد وراءه الأبواب والنوافذ . الدموع وضغط الدم والكبد والإضراب عن الطعام والأقراص المنومة والهذيان والانتحار .

ثم إحساس غريب جدا ..

هذا الإحساس بدأ يغمرها ويدفعها إلى أى اتجاه .. كأنها زورق قد انقطع الحبل الذى يربطه بالشاطىء .. فأية موجة تضربه ، وأى شاطىء يصده ، وأى عصفور يهبط عليه .. وأى شىء وأى إنسان وأى وقت وأى كلام .. كل الناس ككل الناس .. لا معنى لهم جميعا ولا قيمة ..

إنها الآن تشعر بالحرية المطلقة ، كأنها فقدت شهادة ميلادها . وجواز سفرها ووظيفتها ، وليس لها حق الانتخاب .. لم تعد مواطنة مصرية ، ولا مواطنة فى أى بلد .. بل لم تعد أختا ولا بنتا لأحد .. إنها لم تعد تشعر بأنها ذكر أو أنثى .. إنها أصبحت لا شىء .. فقد كان

حبها كل شيء ، ولم يعد لها أى شيء .. لا الاسم ولا اللقب ولا الوطن .. لا الاسم .. ولا الجسم .. ولا الإثم .. وهى اليوم بلا مشاكل ، لأنها فقدت العقل الذى تشعر به ، والقلب الذى تحس به .. إنها حرة من هذه القيود جميعا !

أنا أعتقد أنها سعيدة ، فالسعداء هم الذين لا يمشون على ساقين اسمهما : العقل والقلب .. وإنما الذين يطيرون أو ينزلقون على الحياة بلا قيود ولا حواجز .. إن أعظم وأروع تجربة فى الدنيا .. هى تجربة الحب الذى لا ينجح .. وهذا رأيها !

قصة من نار

هل تعرف أعظم شيء اكتشفه الإنسان على ظهر الأرض ؟.

إنه النار ! فقبل أن يكتشف النار كان العالم مظلما وكان رطبا .. وقد أمسك الإنسان الأول بحجرين وضربهما بعضهما ببعض فخرج من بينهما الشرر ثم وضع بجوارهما قليلا من القش . فكانت أول نار ، وأول فرحة للإنسان . ومنذ عرف الإنسان النار لم يتركها لا ليلا ولا نهارا ، وضعها فى قلبه حبا وكرها وخوفا وقلقا ، ووضعها فى رأسه فكرا وفنا وفلسفة .

وأنت تستطيع الآن أن تضع يدك في جيبك وتخرج علبة كبريت وتنتزع أحد أعوادها وتمرره على الجانب الأسود فإذا النار بين أصابعك .. هذه العملية التى استغرقت منك لحظة ، استغرقت من الإنسانية عشرات الألوف من السنين .

والنار هذه هى القصة الأولى فى حياة البشر !

فهل تعرف القصة ؟

يقال إن كبير الآلهة عند اليونان قد غضب على البشر لسبب أو لآخر ، وما أكثر غضب الآلهة على الناس ، وما أكثر غيرتهم من الناس ، وحسدهم للضعفاء من المخلوقات .. أو هكذا كان شأن الآلهة قديما .. غضب كبير الآلهة على الناس فقرر أن يحرمهم من أكبر نعمة تعطى لإنسان .. حرمهم من نعمة «النار» . لقد حكم عليهم إذن بالظلام والبرد . فلا يعرفون إلا ضياء الشمس وحرارتها ، وإلا ضياء القمر ورعشة النجوم البعيدة الصغيرة .

ولكن أحد الآلهة ثار على هذا الظلم الإلهى .. ثار من أجل البشر ، فالحياة بغير النار مستحيلة . فصعد إلى السماء وتسلل إلى موكب الشمس وسرق منه النار ونزل بها إلى عالم البشر دفئا وحرارة وضوءا وحيوية وعاطفة .

وثار كبير الآلهة وقرر أن يعذب هذا الخارج على طاعته .. فأمر الآلهة جميعا أن يتعاونوا معه على عقاب «سارق النار» وذلك بأن يصنعوا له كائنا يشبه الآلهة ، كائنا من الطين . ورأى أن يكون هذا الكائن امرأة .. وكانت المرأة الأولى ، وراح كل إله يمنحها هبة من هباته .. هذا يمنحها الجمال واللباقة ، وذاك يمنحها السحر والصحة وذاك يمنحها جمال الصوت وروعة الوجه والعينين .. حتى أصبحت تحمل كل الهبات والمزايا التى لا يمكن أن يقاومها إنسان أو إله .

أما كبير الآلهة فقد أعطاها صندوقا وقال لها : هذا الصندوق هدية منى لزوجك . فإذا تزوجت فقدمى له هذا الصندوق !

أما من يكون الزوج ؟ فهو «سارق النار»..

لقد دفعها كبير الآلهة إلى سارق النار .. ولكن هذا السارق كان ذكيا وكان لا يحسن الظن بالآلهة فهم كاذبون خادعون .. وكبير الآلهة

أكثرهم كذبا وخداعا .. فلما جاءته هذه المرأة الفاتنة أشار إليها أن تذهب لأخيه .. وأحبها أخوه وأغرم بها وقدمت له الصندوق ، وامتدت يداه إلى غطاء الصندوق فرفعه .. وخرجت من الصندوق كل شرور العالم .. خرج المرض والجهل والفقر والحقد والحسد والموت والحروب وكل شيء يقضى على الإنسان والإنسانية ويجعل العالم خرابا مظلما باردا .

وارتاعت هذه المرأة الفاتنة ، وأقفلت الصندوق الذى خرج منه كل شيء ولم يبق إلا شيء واحد هو : الأمل !

والأمل هو الدرع التى يواجه بها الإنسان المرض والفقر والفشل .. فالمريض يأمل أن يشفى ، والفقير يأمل أن يثرى ، والفاشل يأمل أن ينجح . إنه الأمل ، إنه تلك الحرارة الهادئة التى تدفع الإنسان إلى العمل وإلى الكفاح .. إنه تلك النار السحرية التى تحرك الدم فى العروق ، وتحرك الفكر فى الرأس ، وتوقظ الحب فى القلب .

لقد نجا « سارق النار » من هذه المكيدة التى دبرها الآلهة جميعاً .. فثار كبير الآلهة وقرر أن يعذبه ثلاثين ألفاً من السنين .. فألقى به في بلاد القوقاز ووضعه فوق حجر ، وربطه بحبل متين ، وجعله عاريا تماما ، وجعل نسرا ينهش قلبه .. وكلما أكل قلبه ، عاد القلب فنبت من جديد ، وما زال « سارق النار » يعانى هذا العذاب الشديد ، ثلاثين ألف عام مات فيها قلبه وعاش ثلاثين ألف مرة .

ولكن هذا السارق الثائر على الآلهة كان له أصدقاء وأعوان فأنقذوه وقتلوا النسر وأطلقوا سراح أول ثائر من أجل البشر ، ومن أجل حياة البشر .. من أجل الدفء والحرارة والنار !

وظلت النار التى أودعها هذا السارق فى جوف الأرض وقلب الإنسان

مشتعلة لم تنطفىء من عين أو من قلب أو من رأس أو من بركان .. وكل ما أنتجه الإنسان من علم وفن وأدب يرجع إلى النار التى تدفع البخار فيتحرك كل جهاز وكل كائن حى !

ما الذي يجعل إنسانا يتحرك ، ما الذى يجعل جهازا يتحرك ؟ إنه الاحتراق الداخلى فى الإنسان وفى السيارة وفى الطائرة .

والإنسان لا يزال حيا ما دام يحترق ، والإنسان الذى لا يحترق هو إنسان ميت أو إنسان (كان) ولم يعد (كائنا) .. إنسان عليه رحمة الله !

إن الحياة كأبى فروة ، لا طعم لها إلا إذا وضعت فى النار ، إلا إذا احترقت .. احترق آكلها وشاربها وكاتبها وقارئها .. معا !

وكثير من الناس يخاف من هذا الاحتراق الذى لا يخمد ، يخاف من القلق الذى لا يتركه عندما ينام وعندما يصحو وعندما ينظر إلى نفسه فى المرآة فيرى شعرة بيضاء فى رأسه أو شاربه أو يتلمس جيبه فلا يجد مالا ، ويتلمس بيته فلا يجد ولدا أو زوجا أو أما ، وحين يرى كل شىء حوله فلا يجد له مكانا إلا إلى جوار أمه فى قبرها .. فلا يملك إلا أن يهز رأسه ويحزن على هذا الجزع والقلق .

والشاب في حوالى العشرين من عمره قلق حائر خائف لا يثق بشىء ، ويفتح يديه ويقفلهما فلا يجد شيئا .. يرى فتاة جميلة فيرتفع صدره عاليا ويقول : آه .. ويرى سيارة فاخرة فتعصر يده المنديل فى جيبه ويقول : آه !

هذا كله هو الدخان الذى يصاحب الاحتراق في نفس كل إنسان.. فاحرص على أن تظل نفسك محترقة ، إن الذى لا يحترق هو الخامد ، والخامد هو الميت ، ولا مكان للأموات فى هذه الحياة .

إن الذى يريد أن يسكن فلا يتحرك ، خامد خامل ، وإن الذى

يريد أن يستقر فلا يتعب ، عاجز قاصر .

وتاريخ البشرية كله سلسلة من الحلقات لأناس ماتوا فى الهواء وفى الماء وفى الغابات .. لأناس لم تستقر بهم الأقدام ولا الأيدي ولا القلوب . إن الإنسان لم يتقدم لأنه نام فشبع نوما ، أو أكل فشبع أكلا ، ولأنه وقف حتى انطبعت قدماه على الحجر ، أو جلس حتى غاصت الأرض به .

إنه الإنسان المتحرك القلق .. إنه الإنسان المحترق ، إنه الإنسان الذى يحرص على النار أن تظل محترقة فيه ، فى عينين لا تكفان عن النظر ، وفى أذنين لا تكفان عن السمع ، وفى قلب لا يكف عن الحب ، وفي رأس لا يكف عن الفكر ، وفى «صندوق» لا يفرغ من الأمل !

والنار نعرفها فى شبابنا ، وكلما تقدمت بنا السن خمدت النار وازداد الدخان ، فإذا الدخان يتحول إلى منديل أسود يولول على الماضى الذى خمد ، ولا نزال نتقدم فى السن والنار تسكن ، والرماد يتضاعف ويصبح فى لون شعر الرأس .. والنار ترتعش رعشتها الأخيرة ، ترتعش فى أيدينا وفى ألسنتنا وفى رؤوسنا ، وفى قلوب الباكين علينا عندما ينهال علينا تراب الحياة ونعود إلى الكهوف : إلى الظلام والرطوبة ، قبل أن تكون هناك نار على هذه الأرض !

* * *

هل هذا شىء صغير ؟ هل هذا شىء تافه ؟

أن تستمتع بالشمس ، وأن تمرح مع الربيع ، وأن تحب ، وأن تفكر ، وأن تصادق ، وأن تحطم أعداءك ، وأن تحترق .

ليس هذا شيئا صغيرا ، بل هذه هى الحياة ، إنها احتراق دائما !

* * *

هذه هى قصة النار ..

ولكن لهذه القصة هى الأخرى قصة .. كنت أفكر فى أمر صديق هادىء ساكن ، من الممكن أن يكون شيئا عظيما أديبا فنانا اقتصاديا تاجرا زوجا أبا لعشرات من الأولاد .. يمكن أن يكون شيئا .. ولكننى كلما جلست اليه أحسست أن روحه «قش» تنال منها الرطوبة ، وتطلع عليها الشمس فتتوارى الرطوبة ، ويصبح ويمسى ويسافر ويعود ، وينفق ويكسب ، وله صديقات وله عشيقات وكان يمكن أن تكون له زوجات .. إنه إنسان موهوب ولكنها مواهب «مع وقف التنفيذ»..

تنقصه النار التى تخرج من حجرين معا ، فيشتعل «القش» فى روحه الكبيرة .. إنه لم يحب أبدا ، ولم يكره أبدا ، ولم يجزع أبدا ، لم يمرض أبدا .. لا بد له أن يحترق ! لا بد له أن يحس بالنار فى أصابعه فيقول : إننى مسرف ! ويحس بالنار فى قلبه فيقول : إننى أغار ! ويحس بالنار في رأسه فيقول إننى موهوب ! ويحس بالنار فى عمره فيقول : إننى شاب !

لا بد أن يحترق ، وأن يصب الزيت على النار فى نفسه حتى لا تخمد وحتى لا تسكن ، وحتى لا يعيش كما كان يعيش الإنسان فى الكهوف المظلمة الرطبة ..

فاحرص على النار ، توهب لك الحياة !

عريس بالليسانس

شاب حديث التخرج فى قسم الفلسفة بكلية الآداب ، يذهب إلى بيت أحد الموظفين المتقاعدين . يدق باب الشقة ، ويسلم الخادمة رسالة ملفوفة ويطلب إليها أن تقدمها لسيدها .. وتدخل الخادمة ، وبعد لحظات تفتح الباب وتقول للشاب : ادخل .. سيدى فى الصالون ينتظرك..

ويدخل الشاب حانى الرأس ويجلس على طرف مقعد وثير ، وقد وضع بعض الكتب وحقيبة وجريدة ومجلة على ركبته .

وينفتح الباب ويدخل «عبد الستار بك» وهو رجل طويل القامة له شارب مفتول وبين شفتيه سيجار غليظ ، وفى يده اليسرى مسبحة .. ويقف بالقرب من الباب وينظر إلى الشاب ويمد يده دون أن يتجه إليه .. فينهض الشاب وتسقط الكتب والمجلات فيدوس عليها بقدمه ويسلم على سعادة البيه . وسعادته يضغط على قطعة القطن التى حشرها فى إحدى أذنيه !

عبد الستار : اجلس مكانك .. اجلس !

الشاب : مع الشكر .

عبد الستار : ما الحكاية ؟ عندك كام سنة ؟

الشاب : ٢٥ سنة !

عبد الستار : سن الشباب والفروسية والتطلع لمستقبل عظيم . هل تركب الخيل ؟

الشاب : لا ..

عبد الستار : هل تلعب الشيش ؟

الشاب : لا ..

عبد الستار : كم مترا تستطيع أن تسبح في الدقيقة ؟

الشاب : لا أعرف السباحة ..

عبد الستار : هل تستطيع صيد الأوز بيدك اليسرى ؟

الشاب : لا أعرف ضرب النار .

عبد الستار : ما شاء الله . إذن أنت رجل مستقيم ، رجل عاكف على الدراسة والعمل . هذا عظيم يا بنى ! هذه سن المسئولية والإحساس بالواجب والرجولة . لا بد أن لك أماً ؟

الشاب : طبعا ..

عبد الستار : وأخوة طبعا ؟

الشاب : أربعة أصغر منى !

عبد الستار : لقد كنت أكبر أخوتي وكنت أنفق عليهم . وهذه هى الرجولة . أن يكون الإنسان كبيرا فى السن وفى المقام .. ينفق على أمه وأخوته وأقاربه الفقراء إذا استطاع .. هذا عظيم .. ! تقول إن لك أما .. وهى على قيد الحياة ؟

الشاب : موجودة ..

عبد الستار : أنت محظوظ يا بنى .. إن أمى ماتت . وهل لك أب ؟

الشاب : مات .

عبد الستار : إذن أنت الذى تنفق على أمك وأخوتك . هذه رجولة تستحق أن يضحى الإنسان من أجلها .. وأكثر الناس تضحية هم أعظم الناس .. طبعا أنت موظف . وفى هذه السن الصغيرة ؟ هذا عظيم . كم تكسب في الشهر ؟

الشاب : ١٥ جنيها .

عبد الستار : ماذا ؟ ماذا تقول ؟ ١٥ جنيها ، أى ٥٠ قرشا فى اليوم ؟ ولكن ألا تكسب شيئا آخر ؟ هذا مرتب يكفى شابا ليذهب إلى السينما مرتين فى الأسبوع ويدخن علبة سجائر كل يوم ..

الشاب : إننى أبحث عن عمل .

عبد الستار : عمل ؟ تقول إنك موظف ؟

الشاب : عن عمل بعد الظهر .

عبد الستار : هل تظن أنني مجنون ؟ هل تتصور بعقلك أنت ، أننى أقدم ابنتى لشاب مثلك ؟ أنت لا تصلح .. لا تصلح أبدا .

الشاب : لا أصلح ؟ لماذا ؟

عبد الستار : وتسألنى لماذا ؟ لماذا تريد أن تتزوج ابنتى بهذه السرعة. أنت ما تزال صغيرا وفلوسك أصغر من سنك .. ثم أنا لا أفهم لماذا اخترت ابنتى بالذات ؟ هل دخل فى رأسك أن أباها متقاعد لا يعمل في الحكومة ، أنه أيضا لا يفكر وأنه تقاعد عن التفكير ؟ أبدا ، إنني أفكر الآن فى أسرتى وابنتى الوحيدة ! أنت مجنون يا أستاذ !

الشاب : .. ..

عبد الستار : لم تقل ما الدافع ؟ لم أفهم ..

الشاب : والله لا شيء إلا الحب !

عبد الستار ؛ إلا إيه ؟! لا شيء اسمه الحب .. هذا كلام فارغ وأوهام شبان مفلسين مثلك وشغل تياترو !

الشاب : ولكنها قبلت أن تتزوجني .

عبد الستار : هي التي قبلت ؟ وأنا هنا طرطور ؟! هل تظن أن أوامري لم تعد تطاع — لا بد أنها أخبرتك بأنها ذهبت للسينما فى الأسبوع الماضى على الرغم من أننى عارضتها .. لا بد أنها ظنت أن كل شيء يمكن أن يسير هكذا .. أبدا !! أنا رجل جاد وأوامرى صارمة . فلا تحاول أن تغضبنى على ابنتى ! ثم لم تكتب في الطلب الذى قدمته لى ، ماذا تحمل من الشهادات يا حضرة الأستاذ ؟

الشاب : الليسانس .

عبد الستار : ولماذا لم تشتغل محاميا بدلا من التدريس .. هذا العمل الشاق القليل الأجر .

الشاب : الليسانس التي معى هى ليسانس فى الآداب ، وليست في الحقوق ..

عبد الستار : فماذا تدرس الطلبة يا حضرة ؟

الشاب : أدرس الفلسفة والمنطق والأخلاق وعلم النفس !

عبد الستار : تدرسها لمن ؟

الشاب : لطلبة المدارس الثانوية .

عبد الستار : وماذا تقول فى هذه الفلسفة ، لا أفهم ما قيمة هذه الفلسفة .. ما هذه الفلسفة ؟

الشاب : الفلسفة هى محبة الحكمة .

عبد الستار : محبة ماذا ؟

الشاب : الحكمة ..

عبد الستار : هذا حسن . محبة الحكومة واجبة .. وطاعة الأوامر فضيلة كبيرة .. الشعب يجب أن يطيع الحاكمين والأبناء يجب أن يطيعوا آباءهم .

الشاب : أقول محبة الحكمة .. الحكمة ..

عبد الستار : ما الحكمة هذه ؟

الشاب : يعنى الكمال في كل شىء .

عبد الستار : يعنى إيه ؟!

الشاب : فى الفلسفة نحن نتعمق الأشياء ونتساءل عن العلل الكامنة وراء الأشياء التى يراها الناس بأعينهم فحسب ، أما نحن فنذهب إلى أبعد من ذلك ...

عبد الستار : هو كل شىء عندك حب .. حب ابنتى وحب الحكمة ؟! ولكن بماذا ترى هذه الأشياء التى تقول عنها ؟ إن نظرك ضعيف جدا .. كم نظرك ؟

الشاب : عينى اليسرى ٦ على ١٨ .. وعينى اليمنى أضعف قليلا .

عبد الستار : ما شاء الله . وتقول إنك ترى أكثر من الناس ؟ هذه هى الفلسفة ؟!

الشاب : أريد أن أقول إننا نرى الأشياء بعقولنا ، ونضع الوجود تحت «مقولات» و .. أستطيع أن أضرب مثلا ..

عبد الستار : لا ! لست فى حاجة إلى أمثلة فعندى حضرتك أحسن

مثال ! . إذن هذه هى الأفكار التى أدخلتها فى رأس ابنتى وجعلتها تتصور أنها قادرة على أن تتزوج من حضرتك دون مشورتي ، وتجعلك تكتب طلبا تقول فيه : إن حياتكما قد أصبحت شيئا واحدا منذ الأزل ! كلام فارغ ! من الذى أشار عليك بتعلم هذه الفلسفة ؟

الشاب : أنا .

عبد الستار : أنا فهمت الآن . هل الفلسفة هى أنك لا تستشير أحداً. لماذا لم تطلب رأى أحد أقاربك هل تدرس الفلسفة أو هل تدرس القانون أو الطب ؟ هذه فلسفة ! تسميها محبة الحكمة ؟ يا أخى لماذا لا تحب الفلوس ؟ هل الفقر فلسفة ؟.

الشاب : الحب هو هذا الوجود كله ...

عبد الستار : الفلوس هى هذا الوجود كله ، والفلسفة هى هذا الإفلاس كله ، هى حضرتك ! ليس في جيبك مليم واحد يا أستاذ .. مليم واحد !

الشاب : كيف ؟

عبد الستار : اسكت ! ليس معك فلوس توصلك إلى آخر أى شهر ولو كان نصفه إجازات ؟ أنت بائس يا حضرة المدرس يا حضرة الفيلسوف .. بائس ومريض .. كم وزنك ؟

الشاب : ٥٥ كيلو ..

عبد الستار : يا أستاذ أنت تبعث على الرثاء .. أنت ستموت قريبا.. قريبا جدا ! وزنك خفيف ، ونظرك ضعيف ومرتبك ١٥ جنيها .. يا أستاذ عش راهبا ، عش نباتيا . اكتف بما كان يلبسه غاندى وهو فيلسوف مثلك .. أو اسرق .. اسرق يا حضرة المحترم ..

الشاب : كيف !

عبد الستار : حتى السرقة لا تعرفها. ألا تعرف كيف تعطى الطلبة دروسا خصوصية في الإجازة ..

الشاب : لا توجد دروس في الفلسفة ..

عبد الستار : كيف ؟ لا يرسب فيها أحد ؟

الشاب : من النادر جدا ..

عبد الستار : هذا هو الشقاء ، ولكن يا أخى أنت تستحق هذا وأكثر .. لماذا تدرس علما سهلا ، لماذا لا تشتغل بتدريس علم صعب يرسب فيه الطلبة عادة .. لماذا لا تدرس اللغة الإنجليزية ، لماذا لا تدرس الجبر والهندسة ؟

الشاب : هناك أساتذة مختصون .

عبد الستار : يعني مفيش فايدة ؟!

الشاب : طبعا ..

عبد الستار : وهنا أيضا مفيش فايدة !

الشاب : كيف ؟

عبد الستار : لم تفهم حتى هذا ؟ أقصد مفيش فايدة أن أزوج ابنتى لمدرس تعبان مثل حضرتك . أنا لا أنسى أن حضرتك ساعدتها فى المذاكرة . وأنا لا أستطيع أن أزوجها لمثلك .. إلا إذا كنت أريد منك أن تعطيها دروسا خصوصية في مقابل ١٥ جنيها في الشهر أدفعها لك .. على سبيل المساعدة ، ولا أدرى كيف تقبلها منى ؟ وأنا رجل طيب أثور أحيانا ولكن قلبي ينفطر دائما لمناظر الفقراء ..

الشاب : مساعدة ؟ أنا لست فى حاجة إلى أى إنسان ؟

عبد الستار : تقول بوقاحة إنك لست فى حاجة إلى مساعدة .. يا أستاذ ليس مرتبك إلا مساعدة . هذا المرتب هو «بدل تسول».. هذا

المرتب يغنيك عن مد يدك .. تفضل ! تفضل يا أستاذ ولا تتعجل فى الزواج كما تعجلت فى دخول قسم الفلسفة !

الشاب : ولكننى أحبها !

عبد الستار : لا يوجد شىء اسمه الحب ! قلت لك ألف مرة .. فاهم يا حضرة ..

الشاب : وهى تحبنى ..

عبد الستار : كذب !

الشاب : هى التى قالت لى .

عبد الستار : لا بد أنك سمعتها بعينيك !

الشاب : أنت لا تتصور .. مدى هذه الصدمة فى نفسى ! هذا حرام عليك !

عبد الستار : أخرس ! أنت وأمثالك نستحقون الصدم والهدم والموت .. كيف تستبيح لنفسك يا حضرة المدرس المربى الفاضل أن تعذب فتاة من أسرة كريمة .. أن تنفق شبابها مع فقير واهم .. بأى فلسفة تجعل عذابها مباحا حلالا .. ثم تقول دون حياء إنك تحبها..! تحبها ماذا ؟ تحبها فقيرة دائخة مريضة ؟ انصراف ! قلت لك انصراف !

الشاب : ولكن يا سعادة الـ ..

عبد الستار : انصراف ! انصراف !

الشاب : الحل الوحيد هو ..

عبد الستار : هو أن تفكر كيف تعيش أنت أولا .. وأخوتك يا حضرة الأستاذ وأم حضرتك .. هؤلاء أولى من أية فتاة فى العالم بالعناية والرعاية .. هذه هى الرجولة .. هذه هى التضحية .. ما عيب حب الأم وحب الأخوة وحب التضحية ؟! شاب تافه واهم .. انصراف !

الشاب : لحظة يا سعادة البيه .. الحل الوحيد هو ..

عبد الستار : الحل الوحيد فى الشارع مش هنا ..

الشاب : .. .. ..

عبد الستار : لا تتكلم أبدا ... حضرتك درست ١٣ سنة وتنال جنيها واحدا عن كل سنة ، ثم خرجت محطما قصير القامة ، قصير النظر ، قصير الحيلة .. اذهب يا أستاذ إلى أى مقبرة ، واستعد للموت على مهلك ! ولا تحاول أن تمد يدك الذابلة إلى أى وردة نضرة من بنات الناس .. نحن نسمى هذا حراما ، أما الفلسفة فتسميه حبا ! كلام فارغ وقلة أدب !

الشاب : أنا آسف .

عبد الستار : العفو ... الرجوع إلى الحق فضيلة .. ولو كانت عندك فتاة وتقدمت أنا إليها وكانت حالتى كحالتك لوجب أن ترفضنى فوراً دون مناقشة .. مع السلامة يا بنى ..

الشاب : كنت أريد أن أقول إننى آسف فلم أتصور أن من هو فى مركزك يتحدث بهذه اللهجة .. إن الذى ...

عبد الستار : قلة أدب ! تسخر منى ! أنت يجب أن تأسف طول عمرك ، وأن تستلف عمرا آخر لتزداد أسفاً على رأسك المملوء بالأوهام ، وجيوبك الفارغة من الفلوس .. اخرج يا أستاذ .. لماذا لا تشتغل ماسحاً للأحذية .. لماذا لا تبيع فول مدمس .. هذه صناعات تجعل لك خبرة في الحياة وبجمع الفلوس واحترام بنات الناس .. انصراف ! اخرج ..

الشاب : .. .. ..

السعادة الزوجية

هذا الكلام الذى أقوله هو نتيجة دراسة طويلة وتجارب عديدة ونظرة إلى وجوه الناس وإلى أصابعهم وإلى حياتهم من ثقب الباب ومن الباب . وأنا أتحدى الناس البائسين من السعادة وأتحدى المتشائمين ، والذين ينظرون إلى الزواج على أنه حكم بالإعدام على آمال وأحلام وراحة الناس جميعاً في كل مكان .

فأنا أقول معهم إن الزواج رحلة طويلة . ولكن هذه الرحلة ليست معروفة البداية ولا النهاية . إنها رحلة فيها حركة وفيها انتقال ولكن أحداً لا يستطيع أن يعرف أبداً المفاجآت التى تكمن فى القطار وعلى الأرصفة وفى النوافذ . فقد يفتح الإنسان نافذة فيدخل الهواء وقد يدخل التراب .. والنافذة التى على اليمين غير النافذة التى تطل على اليسار .. ونافذة الدرجة الأولى غير نافذة الدرجة الثالثة .. فلا العربات متشابهة ولا النوافذ متشابهة ، ولا الهواء ولا الشمس ولا التراب ولا البرد واحد بالنسبة لكل راكب ولا بالنسبة لكل قطار ، فى كل ساعات الليل والنهار .

إن الزواج رحلة . وفيها مغامرة .

ولكن هناك أشياء كثيرة تتعلمها « فى » الزواج ..

فنحن لا نعرف فى الحياة الزوجية كل شىء ، ولا يمكن أن يعرف إنسان كل شىء عن الزواج إلا إذا تزوج . والذى نسمعه عن حياة الآخرين ، ونراه فى حياة الآخرين ليس مقياساً .. فليس الأزواج متشابهين كقوالب الطوب وليست الزوجات متشابهات تماماً . فكل زوج يختلف عن الآخر . وكل زوجة تختلف عن الزوجة الأخرى . وأنت إذا سرت مع صديق لك فى الشارع ، فلايمكن أن تتفق معه فى طريقة المشى ، ولا فى اتساع الخطوة . فما بالك بطريقته فى التفكير أو فى الحياة أو فى آماله أو فى مخاوفه أو فى شجاعته أو فى إحساسه بالمسئولية .. بالنسبة للمرأة .

وهدف الحياة الزوجية هو : أن يكون هناك تعاون سعيد مدى الحياة .

والتعاون يجب أن يقوم على أساس أن يفهم الرجل معنى الحياة الزوجية وأن يستعد لها . وأن يؤمن بأنه مختلف عن زوجته . وأن هذا الاختلاف فى الذوق وفى التفكير وفى النظرة إلى الحياة وإلى المستقبل ، طبيعى جداً ، وأن المسئولية الملقاة على عاتقه هى أن يجعل الاختلاف بينهما كخيطين متعانقين أو نغمتين منسجمتين .. هناك خلاف إذن . ولكن هذا الخلاف طبيعى جداً .

فالزواج فن الحياة . والأصح أن تقول إن الزواج هو فن « الحياة معاً » .. إنه فن التعايش أو « العيشة معاً » .

ويجب أن نعلم أن أعظم دروس الحياة هى التى نتعلمها ببطء . والزواج هو أعظم دروس وتجارب العلاقة بين رجل وامرأة . ولذلك

فالزواج يجب أن نتعلمه يوماً بعد يوم .

والناس أمام الزواج الفاشل ثلاثة أنواع : الرجل الذى ينظر إلى الزواج نظرة جنسية . وهو لا يرى فى المرأة إلا جسماً فقط . ومثل هذا النوع من الزواج لا ينجح . لأن هذا الرجل ستشغله عن زوجته أية امرأة أخرى . والرجال هم أكثر من النساء تفكيراً فى الجنس . والنساء يشعرن بالأمومة ، أكثر مما يشعرن بالرغبة الجنسية .

والنوع الثانى هو المثالى الذى يحلم بأن الحياة ورود ورياحين وعطور وضياء . وأن الحياة الزوجية ستكون سعادة دائمة وقبلات أولها غروب الشمس وآخرها مطلع الفجر . وأن الحياة الزوجية ليس فيها تعب ولا ملل ولا مرض ولا أولاد .. وهذا النوع الحالم من الشبان والشابات لا ينجحون فى زواجهن أبداً . ومهمة الآباء هى أن يفتحوا عيون أولادهم وأن يوقظوهم وأن يدقوا رؤوسهم بالحوائط الحجرية .. وأن يضعوا الشوك في أيديهم .. ليعرفوا أن الحياة كلها فيها الشوك والورد ، وفيها التراب وفيها الذهب .. وفيها الصحة والمرض ..

والنوع الثالث من الأزواج هو ذلك القلق الذى استمع إلى آراء الناس وإلى قصصهم عن الفشل وعن خيبة الأمل وعن الطلاق وعن الخيانة الزوجية وعن الرجل الذى كان لا يكف عن الضحك قبل الزواج ، فلما تزوج عرف الحزن والمرارة والإفلاس . ثم أقام آخر الأمر تمثالاً لحماته وانتحر أمامه ، وجعل من نفسه درساً دامياً لكل من يفكر فى الزواج . وهذا النوع من الناس إذا أقبل على الزواج ، فهو مؤمن أولا بأن الزواج فاشل وأنه لا أمل فى إصلاحه .. فهو كمن يسأل الواقفين على باب السينما عن رأيهم فى فيلم من الأفلام فيقولون له : إنه سخيف . فيدخل السينما ويغمض عينيه ، ويحاول أن يشغل المتفرجين عن الرؤية ..

وهؤلاء جميعاً جماعة من الرجال أو النساء قد ادعوا لأنفسهم أنهم يعرفون كل شيء عن الحياة الزوجية .. إنها جنس فقط أو إنها أحلام فقط أو إنها خيبة أمل فقط .. أما الذى يدعى أنه يعرف كل شيء من أى شيء ، هو الرجل الذى يفشل دائماً . لأنه لا يريد أن يكتسب تجارب جديدة ، ولا يريد أن يضيف إلى نفسه معلومات عن حياة الناس الآخرين من الكتب أو من القصص أو من السينما .. أو من الصحف.. إنه اكتفى بما عنده واستراح إليه .

ولكن من هى الشابة أو الشاب الذى يصلح للزواج ؟

كل شاب بالغ أو شابة بالغة تصلح للزواج . وتصلح لأن تنفخ بطنها ، وتجيء بطفل كل تسعة أشهر .

ولكن هل كل شاب يصلح للزواج ؟ هل الصلاحية للزواج هى مجرد البلوغ جسمياً أو حسياً ؟

أبداً .. وتستطيع أن تكررها ألف مرة، وليست هذه حماسة أدبية ولا مظاهرة سياسية ، ولكنها حقيقة عالمية تقال بصوت هامس وفى درجة حرارة عادية ..

فالذى يصلح للزواج يجب أن يكون « ناضجاً » «عاطفياً» يجب أن يكون لديه الاستعداد « العاطفي » للزواج وأساس هذا النضوج العاطفى هو : الاحتمال والتسامح والعطف ..

والذى يجد فى نفسه العطف والصبر والتسامح ، أى العطف على إنسان آخر والصبر على عيوبه ورغباته والتسامح معه .. هو الذى يصلح للزواج ، يصلح « للحياة معاً » و « التعاون معاً » و « التعايش معاً » و « التسامح معاً » .. وكل شيء ، وأى شيء « معاً » ..

وأنا أضع لك عدة أسئلة الآن .. فاذا كان الجواب عليها بكلمة :

نعم ، فأنت تصلح لأن تكون زوجاً ، وإذا لم يكن الجواب عليها جميعاً بالإيجاب ، فأنت تحتاج إلى تجارب وإلى فهم . ولا تظن أن كل رجل مهما كانت سنه كبيرة يصلح للزواج . فهناك رجال ونساء تجاوزوا الخمسين ، ومع ذلك فإحساساتهم هى إحساسات أطفال ، لا إحساسات أناس ناضجين فالنضوج العاطفى هو الذى يقوم على الفهم والاحتمال والصبر والعطف .

والأسئلة التى توجهها إلى نفسك هى :

١ ـــ هل أنا أعرف شريكتى المقبلة ؟

٢ ـــ هل أنا على استعداد لتحمل نصيبى من المسئولية ؟

٣ ـــ هل من عادتى أن أقدر مشاعر غيرى ، وأحترمها ، كما أحترم مشاعرى؟

٤ ـــ هل أستطيع أن أعطى ، كما آخذ وبنفس الحرية والتسامح ؟

٥ ـــ هل أنظر إلى زوجتى أو زوجى نظرة واقعية فأقدرها لعيوبها ومزاياها ورذائلها وفضائلها ؟

٦ ـــ هل أنا قادر ـــ بكل عيوبى ومزاياى ـــ على أن أدمج حياتى فى حياة إنسان آخر ، وتصبح حياتنا نغمة منسجمة ؟

وبعد أن تجيب على هذه الأسئلة أحب أن أذكرك بشىء هام : هو أننا جميعاً فينا عيوب وفينا رذائل ، ولا بد أن نخطىء فى التقدير ، وأن نفاجأ ببعض النتائج فى حياتنا الزوجية .. فلا نظن أن هناك إنساناً كاملاً أبداً ، ولا نظن أن هناك حياة سعيدة أبداً .. لا الحياة الزوجية ولا الحياة بلا زوجية .. ولكن هناك حياة فيها راحة ، وفيها كفاح ..

والحقيقة الهامة جداً هى : يجب أن نعمل ، وأن نحاول أن نتعلم ،

وأن نضيف إلى الحب درجات من الألوان والمرارة والعمق .. وأن نجعل الزواج تجربة جميلة ..

وإذا أحسست بعد هذا ، أننى أطلب منك المستحيل ، وأننى أدفعك إلى أن تسير فوق خيط معلق فى الهواء ، دون أن تقع ودون أن ينقطع الخيط . فأنت لا تصلح للزواج .. وإذا أحسست أن الذى أطلبه منك صعب ، ولكنه يحتاج إلى كفاح وأنه معقد ويحتاج إلى فهم وتفكير ، فأنت تحس بالمسئولية وأنت جاد وأنت تصلح للزواج .

الزواج له معنى

أذكر أنني سمعت شابا قد تزوج من شهرين يقول لأمه : والله لو عرفت أن الزواج هكذا ما تزوجت .. لماذا لم تخبريني بهذا من قبل ؟ لماذا أوقعتني في هذه المصيدة .. لا أريد أن أعيش مع هذه الفتاة .. لم أعد أطيق الاقتراب منها .. ولا أستطيع أن أنظر إلى وجهها .. إنني لن أنسى لك هذا يا أمي .. لن أنساه ..

وكثير من الفتيات قلن هذا لأمهاتهن أيضا ..

ومعنى ذلك أن الشاب أو الشابة تزوجت وكانت تظن الزواج شيئا ، فوجدته شيئا آخر .. كانت تراه تفاحا فوجدته بصلا ... وكانت ترى الحياة الزوجية لامعة دائما ضاحكة دائماً .. فوجدت الرجل يدخل البيت ، ويمد لها يده وكأنه يريد أن يقول لها : البقية في حياتك . كلنا لها ...

هذا الخطأ يقع فيه كثير من الناس ..

ولذلك يجب أن يفهم كل من يرغب في الزواج معنى الزواج . . فإذا عرف كل منهما معناه ، لم يقدم على شيء مما فعل ، ولم يلم أحدا

من أهله ، أو من أهل عروسه أو مس أصدقائه . إذا كان عسلا فهو المسئول ، وإذا كان بصلا فهو أيضا المسئول ، وهو وحده القادر على أن يجعل من هذا البصل الصعيدى بصلا إيطاليا لا يلسع ، ثم استطاع أن يجعل منه عسلا .. كل هذا يحدث فى كل بيت وكل زمان .. وهذه الزوجية هى العلاقة السحرية بين رجل وامرأة ..

إذن يجب أن يعرف معنى الزواج ، أولا . فما معناه؟

وأنا أقول معنى الزواج عندى .. معناه : اتحاد بين اثنين يشتهى كل منهما الآخر . وليس معنى الاشتهاء مجرد الرغبة الجسدية العابرة ، ولكن اشتهاء دائما .. أو بعبارة أخرى أن الزواج معناه : أن يشتهى الرجل زوجته لدرجة الحب ، وأن يحبها لدرجة الاشتهاء.. فالزواج إذن اتحاد دائم بين جسم يشتهى وقلب يحب ..

وهناك شىء هام جدا ، يربط الاثنين معا . هذا الشىء اسمه : الحب ..

وكل إنسان يتحرك قلبه ويعلو ويهبط ويطرد شيئاً من الدم فى خده يضع يده على صدره ويقول : أنا أحب..

وأنا أقول له : أنت لا تحب . فهذا الذى تحس به هو حرارة الدم ، لا حرارة العطف والإعجاب والحاجة إلى إنسان آخر ..

لأن الحب معناه أن يحس إنسان نحو إنسان آخر بإحساس قوى دائم ، وأن يحس بالحاجة إليه ، إلى عطفه إلى اهتمامه إلى تقديره إلى تشجيعه ، يحس أنه مربوط بهذا الإنسان ، وأنه بغيره ستكون حياته شاقة ، إنه الطائرة التى ترفعه إلى السماء ، والمظلة التى تمسكه عندما ينزل من السماء فلا ينهار .. والحبل الذى يتثبت به حين يصعد الجبل فلا يرتطم بالصخور .. وهو الحاجز الكبير الذى ينير له فى بحر

الحياة ويحميه من الأمواج الهائلة .. هذا هو الحب يا سيدى .
وهناك شىء آخر ..

فالذى يحب فتاة ، يجب أن تحبه هى أيضا . ويجب أن يكون مخلصا لها ، وأن تكون هى مخلصة له . فالحب إخلاص . إخلاص منك أنت ، وإخلاص منها هى . لأن الإخلاص معناه أن هذه الفتاة تملأ حياتك ، فلا تترك مجالا لإنسان آخر ، ومعناه أنك تحترم هذه التى تشاركك ، ومعناه أنك حتى لو نظرت إلى فتاة أخرى ، فأنت تغمض عينيك عن التى تشتهى ، من أجل التى تحب .. ومعناه أن الحياة الزوجية قد أصبحت لها مبادىء أخلاقية رفيعة جدا ..

والإنسان الذى يتخذ صديقة أو الذى يتخذ عشيقة أو الذى يتطفل على زوجات الآخرين .. إنه إنسان لا يستطيع أن يتزوج .. إنه لا يستطيع أن يلتزم مبدأ أو قاعدة أخلاقية .. إنه الذى لا يجد فى نفسه الكتفين العريضتين لتحمل مسئولية كبرى .. إنه يحرص على هذه العلاقات «بدلا» من الزواج .. فكل هذه العلاقات ليست إلا «تعويضا» عن الزواج الذى لا يستطيعه . إنه يفضل أن يعيش فى الخيام على الشواطىء ، إنه يفضل أن يسكن البيوت ولا يشتريها ، إنه يفضل أن يكون نباتا طفيليا ، يبنى أعضاءه ، وأزهاره على جذوع أشجار أخرى..

وهناك أنواع من النباتات الطفيلية تعيش فى الهند وفى جزيرة مدغشقر . هذه النباتات تغرس جذورها فى الأرض .. وتغرس أغصانها فى أغصان الشجرة التى تتطفل عليها ، ولا تزال تحاصرها وتتكاثر عليها وتغطيها وتحجب عنها الشمس والهواء .. وتتصاعد عند القمم .. وقد تموت الشجرة الأم ، وتعيش المتطفلة على جثة شجرة كبيرة .. هؤلاء المتطفلون مهما عاشوا ومهما ارتكبوا من جرائم .. فهم على كل حال

متطفلون .. وستبقى دائما أشجار قوية فى كل مكان ، وأسرة كبيرة ، وعلاقات زوجية .. محترمة وسعيدة أيضا ..

والتاريخ من أوله لآخره ليس إلا ثوبا كبيرا أساسه ثلاثة خيوط : الأب والأم والابن أو الابنة .. ثلاثة دائما .. زوجان وابنهما أو بنتهما . ومنذ اللحظة التى يولد فيها الطفل ، تولد معه الأسرة بل تسبقه أيضاً . والأسرة هى الخلية الحية المحترمة التى قام عليها المجتمع .

والطفل عندما يولد .. فأنت لا تستطيع أن تقاوم ولادته ولا أن تقاوم وجوده .. لقد ولد الطفل .. وهو فى حاجة إلى عناية الأم وإلى حمايتها .. والأم هى الأخرى فى حاجة إلى عنايتك وإلى حمايتك أيضا .. ولا تستطيع امرأة أخرى مهما كانت كمية العطف والحنان التى تتمتع بها أن تحل محل الأم فى العناية بالطفل وفى الحرص عليه والتضحية من أجله . ولولا غريزة الأمومة هذه لانقرضت البشرية منذ زمن طويل . فلو كل أم أنجبت طفلا ألقته فى الأرض ، لمات الطفل ومات كل طفل . ولكنها الأم التى تحمل ابنها جنينا ، ثم إذا ولدته حملته مرة أخرى ، فإذا كبر حملته مرة ثالثة .. ولا تزال تحمله الأم .. حتى يكبر ويصبح رجلا .. وتنسحب الأم أمام امرأة أخرى ، تعطف عليه ويعطف عليها ومن بينهما يخرج طفل .. وتدور الدورة وتتقدم الإنسانية ويعيش الإنسان ..

* * *

ويحدث كثيرا أن تسألك الفتاة التى تحبها : هل تحب الأولاد ؟ وهل تحب أن تكون لك ابنة أو ابن ؟

فإذا أجبت بأنك تحب أن يكون لك أولاد .. فإن الفتاة تفرح

بك ، لأنها هى الأخرى تحب أن يكون لها أولاد .

وإذا سألتك : وهل تحب أن يكون لديك ابنة أو ابن ؟

فإذا قلت أنت : بل أحب أن تكون لى ابنة ، ازدادت الفتاة حبا لك . لأنها هى الأخرى تحب أن تكون لها ابنة .. أن تكون لها فتاة صغيرة تعطف عليها وتصادقها ، وتمنحها كل شىء حرمت منه .. والمرأة تعرف أنها أقلية ضعيفة فى المجتمع فهى تريد أن تكون أغلبية فى هذا البيت الصغير ..

وإذا قلت لها : إننى أحب أن يكون لى ولد .. لم تغضب زوجتك ، فهى الأخرى تحبك ، وهى الأخرى تريد أن ترى طفلا منك ، شبيها لك .. إنها تريد أن تراك مرتين .. مرة أبا ومرة ابنا .. وهى الأخرى تحب الولد الذى يجعل فى البيت رجلين ، يجعل فى البيت أبوين وزوجين ..

وإذا قلت لها إنك لا تحب الأولاد ، لا البنين ولا البنات .. فإنها تغضب من ذلك .. لأنك لا تريد أن ترتبط بها ، وأنك لا تريد أن تصبح العلاقة بينكما أقوى ، وأنك لا تحب أن يكون للزوجة أية ثمرة .. وأنت كذلك تحرمها من عاطفة الأمومة وتحرمها من صورة صغيرة حية ، لك ولها .. إنك تحرمها من أعز شىء فى حياة المرأة .. تحرمها من أن تكون أما ..

وإذا أنت وجدت نفسك لا تحب الأولاد ، وإذا وجدت نفسك تستكثر على زوجتك الإخلاص لها ، وترى أنها لا تستأهل كل عطفك وكل تضحيتك .. فأنت لا تفهم معنى الزواج . وأنت لا يصح أن تقبل على الزواج الآن ..

وكثيرون يقبلون على الزواج دون أن تتوافر لديهم كل هذه الشروط ..

لأنهم لا يعرفون إن كانوا يصلحون أو لا يصلحون .. إن أحداً لا يعرف إن كان قادراً على الجرى مسافة الف متر .. أو قادراً على أن يأكل أوزة أو يشرب عشرين كوبا .. إنه لا يعرف . ولكن كل إنسان يتوهم أنه قادر على كل شيء .. ومن هذه القدرة الوهمية يرى نفسه أحسن عريس وأعظم أب ..

والنتيجة لن تعرفها بعد ذلك .. أو قبل ذلك !

بين القرش .. وبين الكرش

يجب أن تتفق أنت والفتاة التى اخترتها على كل شىء.. يجب أن يكون كل شىء واضحا .. لا تترك شيئا غامضا . قل لها كم تكسب .. وقل لها عن ديونك .. وقل لها إذا كنت توافق على أن تعمل هى الأخرى .. وإذا قررت أن تبقى فتاتك فى البيت ، يجب أن تقول لها ذلك ، وأن تشرح لها وجهة نظرك ..

أطلق الضوء فى حياتك كلها . لا تترك جانبا مظلما . فإن الظلام يعدى وإذا تحولت حياتك كلها إلى ظلام ، فقل على الزوجة وعلى السعادة السلام ورحمة الله ..

أنا أعرف أن الرجل يجب أن يكون المورد الوحيد لمال الأسرة وطعامها وشرابها . إن ذلك يرضى غروره ، ويرضى نزعة الأبوة فيه . إنه يجب أن يكون الأب والسيد والنهر الذى يسقى والحديقة التى تثمر . لا مانع من هذا كله .

ولكن عندما تكون الأسرة فى حاجة إلى معونة مالية أيضا ، فلماذا

لا يوافق على أن تشاركه زوجته فى العمل أيضا . ما المانع ؟ يجب أن تناقش هذا مع زوجتك . ويجب أن تعرف أيضا أن الرجل حريص على أن تعتمد عليه زوجته . وأن يكون يديها ورجليها وعينيها وأذنيها .. أن تكون زوجته تابعا له ، لا حياة لها بغيره ولا راحة لها بغيره ..

ليكن هذا شعورك ..

ولكن لا تنس أن هذا عيب فيك وأن هذا عناد منك ، لا مبرر له .

حتى لو كان هذا رأيك يجب أن تناقش هذه المشكلة مع زوجة المستقبل وأن تصل معها إلى حل ، إلى علاج لها .

ناقش مع زوجتك أيضا مسألة العمل فى البيت .. من الذى سيعمل؟ هل هى زوجتك ؟ هل هى الخادمة ؟ وما نفقات البيت بخادمة ، وما نفقاته بغير خادمة ؟ ناقش هذا أيضا .

وكل الذين لم يتزوجوا بعد سينظرون إلى هذا الكلام باستخفاف شديد .. ولكن لو سألوا المتزوجين حولهم لعرفوا أن بيوتا خربت بسبب الخادمة . وأن علاقات مقدسة تمزقت بسبب اشتغال الزوجة فى البيت دون خادمة ..

وهناك مسألة هامة جدا .. وهى الأقارب . أقارب الزوج وأقارب الزوجة . يجب أن تتفق مع زوجتك على الأقارب الذين يزورون بيتك ، والذين تقاطعهم .. ويجب أن تتفق معها أيضا على أصدقائك القدماء أو صديقاتك القديمات .. هل تظل صلتك بهم كما هى . أم تنقطع صلتك بكل ماضيك .. ويجب أن توضح لها نوع هذه الصلات حتى لا تكون فى حياتكما قلاقل وعواصف فى المستقبل .. وزوجتك هى الأخرى يجب أن توضح لك علاقاتها القديمة وأن تدلك بكل صراحة

على كل الذين كانوا على صلة بها .. من تقدم لخطبتها ومن رفضته ومن خرج معها ومن رقص معها .. ومن أحبها ومن أحبته هي .. كل ذلك يجب أن يقال بوضوح وبصراحة .

والحياة التي أولها نور آخرها نور وسعادة ..

أعرف أن هناك شيئا واحدا يقتل الحياة .. إنه يقتلها يوما بعد يوم ، أو يقضى عليها مرة واحدة .. هذا الشيء المخيف جدا اسمه :

ال‍م‍ل‍ل .. اعرف هذا الاسم .. واسأل عنه أى زوج وأية زوجة.. ستجد أنه أثقل ضيف عرفته الزوجية منذ أيام آدم وحواء ..

والملل معناه أن تكون الأشياء متشابهة .. والأيام متشابهة .. وكل شيء لا طعم له ولا لون .. وكل شيء قديم .. وكل شيء بطيء .. وسبب هذا هو أنه لا جديد في حياة الزوجين ولا تبديل فى نشاطهما .. ويحس الزوجان أن الحياة كالطعام الذى خلا من الملح أو كالفاكهة التى خلت من السكر ، أو كالغرفة التى لم تفتح نوافذها وقتا طويلا أو كالملابس التى اختزنت العرق ، أو كأنها وجه شاحب خلا من الأحمر والبودرة .. كل هذه أسماء متعددة لشيء واحد اسمه الملل ..

وعلاج الملل هو خلق نشاط جديد . تغيير فى البيت ، فى وجوه البيت ، فى مواعيد الزيارات والموضوعات التى يتحدث فيها الزوجان ، والبحث عن متعة جديدة أو عن تسلية تشغل الزوج والزوجة معا .

هذا التجديد والتغيير هو كتغيير الهواء ، وتحريك المياه حتى لا تركد ، وتغيير الملابس وغسلها وعرضها للشمس ولبسها من جديد .. هو النفتالين الذى نضعه فى الدواليب وبين المراتب وفى جيوب الجاكتات والبنطلونات .. لكى يقضى على حشرة الملل ويعطى الملابس رائحة الصحة والراحة ..

هل عرفت أعدى أعدائك ، هل عرفت الميكروب الذى تنقله فى شفتيك وفى عينيك ، هل عرفت الوحش الذى يدخل بينك وبين زوجتك .. اسمه : الملل !

بقى شىء واحد سأحدثك عنه .

هذا الشىء الهام فى حياة الزوجين هو الولد .. ولعلك تذكر أننى رويت من قبل ذلك عن الحوار الذى يدور بينك وبين زوجتك عن الأولاد .. هل تحبهم أو تكرههم .. هل تريد البنت أو هل تريد الولد .. أو هل تريد حياة بلا بنت ولا ولد ..

تأكد أن الحياة الزوجية تكون رائعة إذا تحرك فيها طفل .. اسأل أية زوجة واسأل أى زوج .. سيتحدثان عن متاعب الأولاد وعن نفقات الأولاد .. ولكن واحدا منهم لن يخفى عنك سعادته بالولد أو بالبنت ..

ما دمت قد قررت الزواج ، فلا بد أن تنجب ولدا وبنتا ، على الأقل .

ولذلك يجب أن تتفق مع زوجتك على عدد الأولاد فى السنوات الثلاث الأولى من حياتكما . يجب أن تتفق على هذا قبل الزواج . يجب أن يكون عندكما مشروع السنوات الخمس أو العشر .. وعدد الأولاد التى تتحملها ميزانية الأسرة .

يجب أن تعرف عدد القروش التى تكفى هذه الكروش .. يجب أن تضبط حركات الكرش وفقا لحركات القرش ..

إياك أن تزيد عدد الكروش على عدد القروش .. إياك ..

فالقرش الأبيض هو الذى ينفع فى اليوم الأسود ، واليوم الأسود

هو متاعب الحياة ومشاكلها وهو الأولاد أيضا .. إذا زاد عددهم وكانوا أغلبية فى البيت ..

أنا أعرف مقدما أن هذا الكلام كله يبدو غريبا على الشبان الحالمين .. ويبدو صدمة لهم .. ولكن أنا أفضل أن أصدم الشبان بالحقيقة الآن ، قبل أن تصدمهم هى ، دون استعداد ، بعد الزواج ..

الآن افتح عينيك . وافتح فمك أيضا .. وناقش كل شىء مع زوجتك المقبلة .. فالحياة الزوجية مشروع تكتب صيغته قبل الزواج ، ثم تعاد كتابتها بعد الزواج .. فاكتب كل شىء قبل الزواج .. وليس بعده .. والأيام وحدها كفيلة بتعديل هذا المشروع وتحسينه ..

فى قطار مع زوجتك

أنت وزوجتك مسافران فى رحلة العمر كله .. ولذلك يجب أن تعرف هذا المسافر معك .. يجب أن تعرف المكان الذى يستريح إليه .. بجوار النافذة ، فى مواجهة الضوء ، فى مواجهة الهواء .. ماذا يقرأ فى الرحلة الطويلة . ماذا يأكل .. يجب أن تتحدث إليه . يجب أن تتفاهم معه ..

ولكن أنا أعرف حقيقة واحدة منذ الآن ..

هذه الحقيقة هى أنك ستختلف معه فى كثير من الأشياء .. ستختلف معه حتما .. مهما كانت المسافة التى ستقطعها معه فى هذه الرحلة الطويلة .

ولكن الاختلاف طبيعى جدا بين رجل وامرأة .. حتى لو كانا فى سن واحدة ومن طبقة واحدة وفى ثقافة واحدة ، ويحب كل منهما الآخر بنفس الدرجة ..

لماذا ؟ لأن الرجل بطبعه مختلف عن المرأة .. مختلف فى تركيب

الجسم ، مختلف فى وظائف الجسم ، مختلف فى العواطف وفى درجة نموها ..

وأنا أعرف أن الإنسان يستطيع أن يفهم الكثير من حياة وأفكار وشخصية زميله المسافر معه بسرعة وفى بساطة .. وبذلك يستطيع أن يتفاهم معه ..

ولكن أهم شيء فى حياة الإنسان . ليس هو الذى تدركه بسهولة وبسرعة .. إن أهم شيء فى حياة الزوجين ليس هو الذى يظهر لأول لحظة أو لأول مقابلة أو لأول يوم أو شهر .. إنه الذى يظهر بعد ذلك ..

وهناك مثل بلدى يقول : بعد الحمل والرضاعة تبان البضاعة ..

ومعنى المثل أن المرأة تظهر قوة بنيتها وقوة شخصيتها وقوة احتمالها بعد أن تحمل وتلد وتقوم بإرضاع وليدها .. أو بمعنى آخر لا بد أن تكون هناك تجارب كثيرة قبل أن يعرف الزوج زوجته ، وقبل أن تعرف الزوجة زوجها ..

وهناك اختلاف جوهرى جدا بين الرجل والمرأة .. والسعيد من يعرف هذا الاختلاف ويعمل له ألف حساب.

فالرجل يعتمد على المنطق والعقل والذى يسمعه ويقرأه ويجربه بنفسه .. وهو يحتكم إلى عقله فى كل شيء .

أما المرأة فهى تعتمد على الوجدان ، على العاطفة ، على قلبها .. إنها تعتمد على إحساسها فى كل شيء .

والمرأة فى كثير من الأحيان تصيب فى الوقت الذى يخطىء فيه تفكير الرجل . ولكن خطورة هذا التفكير العاطفى عند المرأة أنه يجعلها تتأثر بسهولة وتغير موقفها من اليمين إلى الشمال . ومن أعلى إلى أسفل . وهذا هو الذى يتعب الرجل ، ويحس أنه قد تزوج عاصفة هائلة .

فالمرأة لا تعرف الوسط فى حياتها .. فهى إما تحب ، وهى إما تكره .. وهى تنتقل من الحب إلى الكره ، كما تنتقل من الشمس إلى الظل أو من غرفة إلى غرفة ..

وكثير من الرجال قد اتهموا زوجاتهم بالتقلب وعدم الاستقرار ، وأن المرأة لا عقل لها .. وأن المرأة نار وماء وليل ونهار . وأنها شىء صعب . وأنها شىء مستحيل ..

كل ذلك قاله ويقوله وسيقوله كل الأزواج البيض والسود والصفر فى كل الدنيا ..

ولكن الذى يعرف هذه الحقيقة هو الذى يعرف مفتاح قلب المرأة ، ومفتاح الراحة الزوجية أيضا .

وليس معنى ذلك أن المرأة متقلبة دائما .

وليس معنى ذلك أن الرجل أعقل وأكثر اتزانا من المرأة ..

وإنما هناك حقيقة أخرى هامة أيضا ..

وهى أن المرأة أكثر نضجا من الرجل . وإذا نحن قارنا شابا وشابة فى عمر واحد وفى ثقافة واحدة ، لوجدنا أن الفتاة قد سبقت الفتى إلى حالة من النضج العاطفى ، لن يبلغها هو إلا بعد ذلك بعشر سنوات.

والسبب فى ذلك أن الطبيعة قد هيأت هذا الدفء وهذه العاطفة الهائلة فى قلب المرأة من أجل إنسان آخر .. هذا الإنسان الآخر ليس هو الزوج وليس هو الأب ، ولا الأخ ولا الصديق ولا حتى العشيق .. وإنما هذا الإنسان الآخر هو الطفل الذى ستلده هذه الزوجة . كل شىء قد أعد له .. الحنان والتفكير والأحلام والثديان والغذاء وكل غرائز المرأة .

فالمرأة أولا وقبل كل شىء : أم . كل شىء فى المرأة يدور

ويرفرف حول الأمومة .. كل شيء .. إنها تحلم بالطفل الذى سينام إلى جوارها والذى ستغمره بحنانها ، وبأحلامها وحياتها .. كل شيء فيها من أجل هذا الطفل .. والفتاة وهى صغيرة تحلم بابنها والفتاة وهى شابة تحلم بأولادها .. والزوجة تحلم بالطفل . بل تنظر إلى زوجها على أنه طفلها أو ولدها .. وتحب أن يعاملها الزوج على أنها أمه ، وأنه رضيعها الصغير المحتاج دائما إلى عنايتها ..

ومهما كان حب الزوج لأولاده ومهما كان عطفه عليهم .. فإن الزوج لا يستطيع أن يقوم بالدور الذى تقوم به الأم .. والزوج قد يترك أولاده ويضحى بهم من أجل الزوجة أو أية امرأة أخرى .. ولكن الزوجة يستحيل أن تضحى بأولادها من أجل شيء آخر ولو كان من أجل الزوج الذى تحبه أو تعبده من دون الله .. لأنها بذلك تقف ضد طبيعتها كأم ..

ولذلك يجب أن تعرف أن هذا الإنسان الذى يجلس إلى جوارك فى قطار الحياة وفى رحلة العمر عندما يغمض عينيه قليلا فهو يحلم بطفل منك .. لأن هذا المسافر معك : أم وهى طفلة ، أم وهى شابة ، أم وهى زوجة . إنها أم دائما .

وهناك سؤال : هل كل الذين عاشوا سعداء فى حياتهم الزوجية قرأوا كتب علم النفس والتربية والتشريح ؟ هل عرفوا كل هذه الحقائق وساروا وفقا لها ؟

والجواب على ذلك أن هناك أناسا عرفوا كل هذه الملاحظات أو الحقائق من تلقاء أنفسهم .. أو بالغريزة . وتصرفوا تبعا لهذه الغريزة . فتحققت السعادة على أيديهم ، كأنهم يسيرون وفقا لتعاليم هذا الكتاب أو غيره من الكتب .. وهناك أناس لا يستخدمون العقاقير ولم يقفوا أمام

طبيب ومع ذلك ينعمون بصحة جيدة ولا يعرفون الإمساك ولا الإسهال ولا الأرق ولا ذبحة الصدر ولا قرحة المعدة .. ولا يعرفون شيئا من هذا كله ..

وهناك أناس لم يقرأوا كتب الاقتصاد ولم يعرفوا مسك الدفاتر .. ومع ذلك ينفقون على قدر دخلهم ويدخرون ولا يعرفون الديون ولا يعرفون المرابين .. إنهم يهتدون بالتجربة والفهم والإدراك السليم لأنفسهم ولغيرهم من المسافرين معهم فى عربة واحدة من قطار الحياة ..

أيها المسافر سيصبح زميلك فى هذه الرحلة غريبا عليك إلى أن تفهمه ، ولن تفهمه إلا إذا اقتربت منه وطال الاقتراب ، ولن يطول الاقتراب إلا إذا كان هناك حب ، ولن يكون هناك حب إلا إذا كان هناك فهم ..

والفهم هو السبيل الوحيد إلى أن تحب إنساناً أو تكرهه .. لأنه من المهم أن تفهم وأن تفعل بعد ذلك !

الحياة السليمة زوج وزوجة وطفل

أعتقد أن الزوج الذى ينجح فى السنتين الأولبين فى حياته الزوجية يستطيع أن ينجح طول حياته . ولذلك فالأطباء وعلماء النفس يهتمون جدا بما يحدث فى السنة الأولى من الزواج ويهتمون أيضا بما يحدث فى السنة الثانية.ومن رأيهم أن الزوج يمر بتجربة غريبة عليه ولذلك كثيرا مـــا يضطرب أو يخطىء . وكثيرا ما يساء فهم هذه الأخطـــاء غير المقصودة ..

وكل هذا أمر طبيعى جدا . والمستحيل هو إن الزوج لا يخطىء وأن الزوجة لا تتشاجر أو لا تتخاصم أو لا تعلن بينها وبين نفسها قائلة : عيشة زى الزفت ..

كل علماء النفس يقولون إن هذا أمر طبيعى ولا بد أن يحدث . وفى نفس الوقت يجب على الزوج وعلى الزوجة أيضا أن يصلحا الموقف وأن يلتقيا فى منتصف الطريق .. فالكلمة الطيبة تكفى والقبلة تشفى العليل وترد الروح ..

ويجب أن تتذكر دائما أنك إنسان غريب على زوجتك ، وأنها هي الأخرى إنسان غريب .. وأنك لا تحب البقاء فى البيت . أما الزوجة فهى تحب البيت وتحب أن تجعله مريحا وهادئا . ولا تنس أن الرجل بينه وبين نفسه يقول دائما : والله أنا لا أدرى كيف تزوجت . إننى لم أفكر فى الزواج مطلقا . وأنا كنت مستريح البال ..

كل هذا الكلام يقوله الرجل لنفسه وستقوله أنت . كما قاله أبوك وجدك من قبلك . ولكن هذا الكلام لا تقله إلى لزوجتك . فهذه إهانة لها . وهذا معناه أنها عبء وأنها قيد وأنها سجن وأنها عذاب .. وكل هذه حالات نفسية لا بد أن تقع لكل إنسان فى السنتين الأولى والثانية من الحياة الزوجية ..

وأنا أريد الآن أن أتفق معك على عدة أشياء هامة فى السنة الأولى من حياتك الزوجية .. بل فى الشهر الأول من هذه الحياة .

والشهر الأول كل إنسان يعرفه واسمه «شهر العسل». والذين عاشوا شهر العسل وكان عسلا أو كان من غير عسل ، لا يعرفون كيف نشأت هذه العادة عند الناس .

لقد نشأت عادة شهر العسل هذه عندما كان الإنسان يعيش فى الغابة وكان يحصل على كل شيء بالخطف والضرب والقتل . وكانت الحروب تقوم بين القبائل البدائية دائما . فلم يكن الناس يعرفون المفاوضات والمباحثات والأساليب الدبلوماسية فى الحصول على ما يريدون .. فكان الشاب إذا أراد امرأة خطفها وهرب بها فى مكان بعيد من الغابة ويظل هكذا مع زوجته شهرا أو شهرين . وبعد ذلك يعود إلى أهل الفتاة يحمل الهدايا ويقدم هذه الهدايا إلى أبيها ويرضى عنه الأب ويعود إلى الحياة العادية هو وزوجته ..

وفى أوروبا نجد الزوج يحمل عروسه من الكنيسة إلى سيارته أو إلى بيته بينما يصرخ أقارب العروس ويرمونها بالملح وينطلقون وراء العروسين : إنها نفس العادات ولكن بصورة مهذبه .. فالعريس قد فاز بالعروس واختطفها رغم أنف أبيها وأمها ، وأهلها يطلقون عليه وابلا من الملح . .

والكلام عن شهر العسل جميل ويدخل السعادة على قلب الفتاة . ولكن شهر العسل وفهمه على هذه الصورة خطر جدا .

فالناس يعلقون أهمية كبيرة على شهر العسل والحياة فيه والسعادة التى لا تنتهى والابتسام الذى لا يختفى من الوجه والشفاه والعين . ولذلك نرى الزوج يهتم به اهتماما خاصا ويسرف فيه إسرافا شديدا . يسرف ماليا ونفسيا وجسميا . ويتصور العريس أنه يجب أن يترك أثرا قويا عميقا فى نفس زوجته لا يتلاشى أبدا .

ولا تزال نساء كثيرات يتحدثن عن شهر العسل والدموع تملأ عيونهن وتقول الواحدة لنفسها ولغيرها : كانت أياما جميلة .. كان زوجى لطيفا رقيقا حلوا شابا لا يرفع عينيه عنى .. حتى كلامه كان سحرا . إنها أيام مضت ولن تعود !

والخطورة فى هذا كله ، أن الناس تتصور أن الحياة يمكن أن تكون هكذا كشهر العسل . أى أن يتفرغ لزوجته ويجلس إليها طوال الوقت ، وأن يكون بعيدا عن الناس ، وأن يضحك دائما بلا تعب ولا ملل ولا تظهر له مشاكل ولا متاعب .

وهذا هو أول خطأ .

والخطأ الثانى أن الإنسان يعلق أهمية كبرى على كل ما يحدث فى شهر العسل . فهو يتصور أنه إذا أخطأ مع زوجته بشكل من الأشكال ، أو إذا صدمها صدمة نفسية أو جسمية فستكون هذه الأخطاء عميقة

فى نفسها ولن تغتفرها له أبدا .. وطول حياتها مهما فعل الزوج .

وهذا الكلام طبعا مبالغ فيه جدا . لأن الزوج سيخطىء فى هذا الشهر .. لأنه يقوم مع زوجته بأشياء غريبة عليه وغريبة عليها أيضا وأنه لا بد أن يخطىء فى حسابه لكل تصرفاته وتصرفاتها . والذين يترددون على المسارح يعرفون أن الفرقة المسرحية تكون فى أول يوم لها متخوفة ومترددة وأنها تتعرض لكثير من الأخطاء ، مهما كانت براعة الممثلين ومهما كان عدد البروفات التى قاموا بها قبل عرض روايتهم على الجمهور ..

وكذلك فى الأيام الأولى من شهر العسل ، وفى كل شهر العسل . وهو الشهر الأول من الحياة الزوجية ..

وأمر ثالث هام هو أن المبالغة فى قيمة شهر العسل تجعل الزوج ينفق الكثير من ماله فى شراء الهدايا وفى الحياة على مستوى أعلى . وقد كان ذلك مفهوما أيام الغابة وأيام كان الزواج يتم رغم أنف الوالدين والأهل ، وأيام كان الزوج فى حاجة إلى أن ينافق الأب وإلى أن يملأ فمه بالذهب والهدايا ..

ولكن الدنيا تغيرت .. ولم يعد رضا الأب أو غضبه يهم كثيرا فلا داعى إذن لهذه المبالغة الضارة فى تطبيق هذه التقاليد القديمة .

وأنا أعلم أن التقاليد من الصعب تغييرها . فمهما قلت عن شهر العسل وعن أصله وكيف تطور فإن عبارة «شهر العسل» هذه لها وقع السحر والعسل والخمر فى نفوس كل الناس . ولكن مع ذلك أنا أطلب من كل إنسان أن يعتدل فى فهم كل شىء وأن يعتدل فى تنفيذه أيضا . فإن شهر العسل ليس هو الشهر الوحيد فى حياتنا ، ولا يمكن أن تكون كل الشهور مثلـــه . ولذلك يجب ألاّ نجعل الفـــارق

كبيرا بين هذا الشهر والشهور التالية وأن ندرك أن الخطأ والسهو والنسيان ممكنة فى هذا الشهر أكثر منها فى أي شهر آخر .

وأنا أعتقد أن الزوج الناجح هو الذى يفلح فى تكوين عادات طيبة فى أول حياته .. فإذا كان يحب البقاء فى البيت ، فمن الصعب عليه بعد ذلك أن يغير هذه العادة ، وإذا كان يحب الخروج كل يوم ، فليدرك أنه سيصعب عليه تغيير ذلك فيما بعد . وإذا كان يحب الزيارات أو استقبال الضيوف فى بيته أو الذهاب إلى السينما .. كل ذلك يجب أن يفكر فيه جيدا . فإن زوجته ستتمسك بهذه العادات كلها . فإذا غيرها قالت له : ماذا حدث ؟ إنك لم تكن هكذا من قبل ؟ ما الذى حدث ؟ لا بد أن شيئا أو أحدا قد دخل فى حياتك ؟

وهذا كلام يعرفه كل المتزوجين . ولذلك فأنا أنصحك أن تحرص على تكوين عادات جديدة طيبة وأن تحرص على بقائها طول هاتين السنتين .

والمرأة تعرف بغريزتها أن الرجل يحب الهرب من البيت والهرب من المسئولية وهى تحاول دائما أن تربطه من رجله أو من يده أو من عقله . والزوجة الناجحة هى التى تعرف ذلك والتى تعامل زوجها على أنه طفل دون أن تجعله يشعر بذلك فهى تقدم له كل ما يريد وتريحه من التفكير فى البيت ومشاكل البيت وتتولى هى هذا . والبيت مملكة الزوجة ومقر حكمها . وهذا لن يتعب الزوجة فهى بغريزتها أم قبل كل شىء .. وهذا الزوج ولدها وطفلها الكبير وأبو طفلها الصغير ..

وأريد أن أقول خلاصة لهذا كله : إن الزوجين غريبان عن بعضهما فى العادات والفهم والإحساس بالحياة ، ولذلك يجب أن يتقاربا فى غير عنف وفى غير عناء ، وأن ينزل الزوج عن بعض ما

يحب من أجل الزوجة ، وكذلك الزوجة يجب ألا تتشبث بكل مايعجبها ، من أجل زوجها وحياتهما معا . فإذا نجح الزوجان فى ذلك لمدة سنتين . فمن المؤكد أن حياتهما ستنجح . والنجاح لمدة سنتين ليس بالعمل السهل وليس بالوقت القصير أيضا .

زواج بلا حب

الزواج مجموعة من العلاقات .. من الخيوط المختلفة الألوان والأحجام والمتانة . ليس الزواج صداقة فقط ولا أخوة ولا هو مسألة جنسية ولا هو مشاركة فى البيت أو فى الغرفة أو فى الفراش .. إنه أشياء كثيرة جدا وكلها متداخلة ومترابطة .

والذى يظن أن الزواج أخوة بين رجل وامرأة ، إنه يفسد الحياة الزوجية .

والذى يظن أن الزواج هو العلاقة الجنسية فقط ، وأن النجاح أو الفشل فى الزواج سببهما النجاح أو الفشل الجنسى ، هو الآخر يفسد معنى الزواج .

ولا أقول إن الجنس أو العلاقة الجنسية بين الزوج وزوجته ليست أمرا هاما . إنها أمر هام جدا . ولكنها ليست كل شىء . إن الجنس هو التعبير العادى عن الحب بين رجل وامرأة فى هذا العالم . ولكن الجنس ليس كل شىء .. إن الناس قبل الزواج يدفعهم الجوع والأحلام

والأوهام إلى أن يتصوروا أن كل السعادة بين رجل وامرأة هي جنس فى جنس ، ليلا ونهارا ، فى شهر العسل وفى الشهور التالية .. وأن الجنس هو العسل الذى يضعه الزوجان فى الشهر الأول فى كل طعام وشراب وكلام وسلام .

ولقد صدرت فى الخمسين سنة الماضية مئات الكتب عن الحياة الجنسية الناجحة . وكيف تكون زوجا ناجحا . وصور مختلفة من حياة الناس الجنسية ، والعيوب الجنسية عند الرجل وعند المرأة . وعلاج البرود الجنسى . وعلاج الفوران الجنسى . والعلاقات الجنسية غير المتكافئة .. وماذا تفعل إذا تزوجت فتاة أكبر منك . وماذا تفعل إذا كانت زوجتك بكرا وإذا كانت زوجة سابقة .. وعشرات وعشرات من الكتب عن كيف يبدأ الإنسان حياته الجنسية قبل الزواج ..

وفى كل بلاد العالم صدرت هذه الكتب .. واشتراها الناس بالملايين . وسبب ذلك أن الناس يريدون أن يعرفوا هذا السر الذى يحمل السعادة . أن يعرفوا أسرار المفتاح الذى ينقلهم من النار إلى الجنة .

ولكن هل يجب أن يقرأ الإنسان كل هذه الكتب لكى يصبح زوجا سعيدا ؟

هل قرأ كل إنسان له معدة قوية ما كتبه الأطباء عن المعدة ؟ هل قرأ صاحب النظر السليم ما كتبه أطباء العيون ؟ هل الذين ينعمون بالراحة العائلية هم جماعة من العلماء المتخصصين فى قراءة كتب الراحة والسعادة العائلية !

أبدا ! أنا أعرف أناسا كثيرين يعيشون حياة هادئة دون أن يقرأوا كتابا فى معنى الحياة أو الهدوء . إن أجدادنا عاشوا كذلك ، وماتوا كذلك . وفى الريف وفى الطبقات الفقيرة نجد الكثيرين من الراضين الهانئين ، دون قراءة ودون تخصص ودون بحث طويل ..

ولكن ليس معنى ذلك أن يظل الإنسان جاهلا . وألا يفتح كتابا ، وألا يفتح أذنا أو عينا على تجارب الناس أو حياة الناس .

هل تعرف السبب فى هذا كله ؟

إنه دواء سحري رخيص جدا ، يتعاطاه الزوج والزوجة قبل الزواج ، ومن رأى الأطباء والخبراء والعقلاء وأصحاب التجربة أنه يجب على الزوجين أن يتعاطيا هذا الدواء بعد الزواج بصورة مستمرة فيها فهم وفيها إدراك .. العقار هو ، بكل بساطة وكل تواضع : الحب !

من غير الحب ، لا يمكن للحياة الزوجية أن تنجح ، فمن الممكن أن تكون هناك حياة جنسية ناجحة بين الزوجين . ولكن بالحب تصبح أروع وأجمل وأبقى . ولكن الحياة الزوجية القائمة على الجنس فقط ، لا يمكن أن تبقى .

والحب هو الذى يجلو حياة الزوجين . إنه الملح الذى يمسك الميوعة فى الطعام ، إنه السكر الذى تضعه فى الشاى ، إنه الفاكهة التى تضعها على المائدة ، إنه الموسيقى الحالمة التى تبعث من كل مكان فى البيت ، إنه العطر الذى يرفرف حولك وأنت جالس وأنت نائم وأنت فى طريقك إلى عملك .. إنه الصوت الصغير الذى ينبعث من سرير صغير إلى جوار سريرك .. كل هذه أسماء مختلفة لشىء واحد .. هو الحب ..

لقد أعجبنى كاتب أمريكى عندما صدر له كتاب بعنوان «أعظم شىء فى العالم». وكان موضوع الكتاب هو الحب ..

ونحن نسمع من الزوجات هذه العبارة : إن زوجى يحبنى ولكنه أنانى .

ومعنى ذلك أن هناك حبا وأن هناك أنانية . أو أن هناك حبا أنانيا .

ولا يوجد فى الدنيا شيء اسمه الحب الأنانى .. كما أنه لا يوجد شيء اسمه الأبيض والأسود أو النار والماء أو السماء والأرض ..

فالحب معناه أن تعطى . والذى يحب لا يحب نفسه وإنما يحب غيره فهو يعطى غيره وهو ينزل عما يريده هو نفسه من أجل غيره . ولذلك فهو يضحى أيضا ، والذى يعطى غيره ليس أنانيا . والذى يضحى من أجل غيره ليس أنانيا .

ولعل الزوجات يقصدن من هذا الحب الأنانى أن الزوج لا يعنى بزوجته دائمـــا . فهو يحبها لا كل الوقت ، ولكن بعض الوقت . وأنه يضحى لها بعض الوقت ويضحى بها معظم الوقت .

فالحب هو الشيء الوحيد الذى لا يعرف الأنانية .. إن الحب هو الميل نحو إنسان آخر ، والشيء الذى يميل هو الشيء الذى ينحنى أمام إنسان آخر .

والمشكلة الآن . ما هى العلاقة بين الحب وبين الجنس ؟

هل الحب جزء من الجنس ؟

هل الجنس جزء من الحب ؟

الجنس يجب أن يكون جزءاً من الحب . يجب أن يكون الحب هو الأب أما الجنس فهو الابن أو البنت.. الحب هو الشجرة والأزهار هى الجنس .

ولا يمكن أن يكون الجنس هو الشجرة والحب هو الغصون والزهور . إذا كان الجنس هو الأصل ، فقل على الحب السلام . فإذا ضعف الجنس تساقط الحب ، كما تتساقط الأوراق فى الخريف .. يتساقط الحب ورقة ورقة وكلمة كلمة ونظرة نظرة .. ولا تبقى إلا شجرة الجنس فى انتظار عصافير أخرى تقف عليها ..

إن المرأة التى تقول عن زوجها إنه يحبها ثم تتهمه بالأنانية .. إنها فى الغالب تتحدث عن العلاقة الجنسية بينها وبينه .. إنها تتهمه بأنه لا يهتم بأحد سوى نفسه .. إنه يبحث عن الراحة على صدرها ، ولا يبحث عن راحتها على صدره .. إنه يبحث عن راحته . لا عن راحتها ..

هذا هو الأنانى فقط . ولكن بلا حب .

وهناك مسألة هامة جدا يجب أن تعرفها كل زوجة وكل زوج . وهى أن الحب ليس كلون الجلد أو كلون العين .. أى أنه ليس هكذا ثابتا لا يتغير ولا يتبدل . أو لا يمكن تغييره أو تبديله .. إن الحب كالشجرة الصغيرة أو كالطفل الصغير .. يجب أن نعنى به ، أن نهتم به ، أن نبحث له عن طعامه وشرابه : إن الحب يرضع العطف ، وينام على الحنان ، ويتطلع إلى الأمل .. إن الحب يموت إذا لم نقدم له طعاما ليلا ونهارا . وكل الذين ظنوا أن الحب يؤدى إلى الزواج . وأن الزواج هو نهاية كل حب ، لا يفهمون الحب على حقيقته . لأن الحب يجب أن يتعاون الزوج والزوجة على صيانته وعلى تربيته لأنه الرباط القوى الذى يشدهما معا ، إنه القطار الذى ينقلهما إلى المستقبل .. إن القطار يحتاج إلى عناية ، إلى إضاءة ، إلى وقود ..

والذى يعرف أن الحب طفل صغير يرضع العطف والحنان والأمل ، هو الذى يستطيع أن يجعل زواجه وما بعد زواجه ناجحا .

إن الحب هو «الشماعة» الكبرى التى يضع عليها الزوج متاعب العمل وتضع عليها الزوجة متاعب البيت .. ولا بد من شماعة ، ولا حياة بغير شماعات .. بغير حب ..

والزوجة التى تهتم بالزينة فى وجهها ، وفى شعرها وفى أصابعها وفى أذنيها وفى عنقها ولا تهتم بشىء آخر .. زوجة تعطى لحياتها لونا

جنسيا فقط ، زوجة تريد من زوجها أن ينظر إلى ملابسها وجلدها ولحمها .. ولكن الزوجة الناجحة هى التى تحرص على أن تكون هناك زينة أخرى وألوان أخرى . زينة عاطفية .. وألوان عاطفية .. إنها هى التى تحرص على أن يكون هناك حب ..

وهذا ما يحدث فى شهر العسل .. يسافر الزوجان إلى مكان بعيد عن الأهل والأقارب ، عن الأصدقاء والأعداء .. يقضيان النهار كله فى التنقل من مكان إلى مكان .. وفى الليل يذهبان إلى دور السينما أو الكباريهات .. ويظلان كذلك إلى منتصف الليل أو بعده ويعودان بعد ذلك إلى البيت .. ويصحوان فى ساعة متأخرة من النهار ... ويعودان إلى الشارع وإلى السهر .. وإلى النوم .. هكذا طول شهر العسل ..

وبعد شهر العسل تبدأ حياة أخرى ونغمة أخرى فى الكلام والطعام والسلام والنوم .. وتمضى سنة .. وتفتّر العلاقة بين الرجل وزوجته .. وسنة ثانية .. لا يستطيع فيها الرجل أن يقبل زوجته إلا تحت تأثير الخمر .. ويحس الزوجان فى السنة الثالثة أو الرابعة أن حياتهما صعبة لا تطاق ويفكران فى أشياء كثيرة سخيفة وسوداء ..

من المسئول عن هذا ؟

إنهما معا .. لماذا ؟ لأنهما كانا حريصين على أن تمتلىء حياتهما بكل شىء من الطعام والشراب والجنس والنوم .. فلم يبق فى حياتهما مكان للحب ، والحياة التى تضيق بالحب ، سعادتها مؤقتة ، وراحتها قليلة ، ولونها أسود .

من أجل ولدك

كل زوجين لهما ظروفهما الخاصة العاطفية والمالية . ولذلك لا أستطيع أن أضع قواعد تسير عليها كل أسرة ، فى أى مكان ، فالذى يصلح لهذه الأسرة لا يصلح لأسرة أخرى .

ومع ذلك فهناك نصائح أتقدم بها . وعلى كل إنسان أن يسير عليها وفقا لمدى اقتناعه بها . ووفقا لظروفه الخاصة به . دون أن تضطرب أحواله العاطفية والمالية والجنسية .

فأنا أنصح أولا كل زوجين بأن يرتبا حياتهما على أن يكون لهما طفل واحد كل سنتين ، ومعنى ذلك أننى أرى أن الأسرة يجب أن يكون لها أطفال . فالطفل هو نعمة من نعم الحياة والأسرة التى لا يوجد بها طفل ، أسرة فقدت الكثير من السعادة والبهجة ، والروابط القوية بين الزوجين . ولو أنك سألت رجلا أو امرأة قائلا : هل من الضروري أن يكون للزوج ولد أو بنت .. لقال كل واحد منهما : إن الأولاد ترهق الأسرة بالمشاكل والمتاعب والمال والمرض والهموم .. ولكن مع ذلك

فالأسرة بلا أولاد باردة مظلمة لا طعم لها .

ولذلك من الطبيعى جدا أن يكون لك أولاد ما دمت قد تزوجت . وفى هذه الحالة يجب أن ترفق بميزانية الأسرة ، الميزانية المالية والميزانية العاطفية ، فإذا أنت حرصت على أن يكون لك أطفال بصورة منظمة ، كان ذلك مريحاً للزوجة التى تبذل الكثير من نفسها وجسمها من أجل أطفالك وأطفالها .

ولى نصيحة ثانية ..

وهى أنه يجب ألاّ ترتب حياتك على أن يكون لك ولد واحد .. أو بنت واحدة .. أبدا . إياك أن تفعل هذا . فإن الابن الوحيد ينال الكثير والزائد من عطف والديه .. وهذا العطف الزائد سيربك حياة الطفل العاطفية ، ويربكه خارج البيت .. فسيكون هذا الطفل مدللا ، ويتصور أن معاملة الناس كلهم له ، ستكون كمعاملة والديه .. وهذا مستحيل طبعا . وهنا يقع الاضطراب فى حياة الطفل . فهو قد تعود أن يأمر فيعطيه أبوه وأمه ، ولكن الناس خارج البيت لا يمكن أن يقوموا بدور الأب والأم معا بهذه السهولة والبساطة .. إن الطفل المدلل يجب أن يجعل أباه وأمه كرة يلهو بها . ولكن المجتمع يجب أن يجعل من أفراده كرة يلهو بها .. وهنا يصطدم الطفل بمن لا يقيم له وزنا ولا معنى ولا طعما .

وكثير من الأطفال الوحيدين فسدوا فى حياتهم من أولها لآخرها . ولذلك أنصح بأن يكون لك أكثر من ولد أو بنت .. وبذلك يقتسمون حنانك وعطفك .. ويكون الحنان معتدلا لا مسرفا ..

ونصيحة ثالثة ..

من رأيى أن تتزوج قبل الثلاثين ، فهذه السن هى أنسب سن

للزواج . وأنا أفضل أن تكون أبا فى سن صغيرة . وبذلك يكون ابنك صديقا لك . ويكون إحساسه بالنسبة لك هو إحساس الصديق الصغير والصديق الكبير . والإنسانية قد مرت بهذه المراحل . فقد كان الابن خادما للأب . ثم كان ابنا بعيدا عن أبيه . واليوم أصبح الابن صديقاً لأبيه .. والأب الناجح هو الذى يجعل ابنه صديقا له . وإذا كان الأب قريبا من سن ابنه كان أفضل .. وأنا حريص على أن تكون أكبر من ولدك بثلاثين عاما . إنه ليس فارقا كبيرا بينك وبين ولدك .

ولكن ليس معنى ذلك أن الابن الذى ولد من أب كبير فى السن هو ابن شاذ أو غريب أو محروم من الحنان . أو لن ينجح فى حياته المقبلة .. طبعا لا أريد أن أقول ذلك ، ولا شيئا من ذلك . فقد نجح آباء كبار فى السن فى تربية أولادهم . ولكن من الصعب على هؤلاء الآباء الكبار فى السن ، والذين ينتسبون إلى جيل أقدم وأسبق أن يجعلوا أولادهم أصدقاء لهم .

وأنا ما أزال أنصحك أن تختار لابنك صديقا له ، وأن يكون أول صديق لا يكبره بأكثر من ثلاثين عاما ، هذا الصديق هو أنت ، إذا أردت ..

ورابعا : أنصحك أن تستشير زوجتك أولا ، إن كانت تريد ابنا أو لا تريد . اسألها هى .. فإن الذى يصيبها من الحمل والولادة لا تعرفه أنت ولا تقدره أنت . ولا تحاول أن ترغم زوجتك على أن تأتى بطفل لا تريده هى .. إن الطفل سيعيش طول حياته تحت تأثير معاملة أمه ،وتربية أمه وسهرها وصوتها ولبنها ودموعها ، وابتسامتها .. اسألها أولا ، ولا تكن قاسيا على طفل مسكين لا ذنب له . لا تجعل أمه تكرهه ، لا تجعلها تكويه بالإهمال . وتحرقه بلبن مسموم . وتقضى عليه بقسوتها ..

فالأمر أولاً وقبل كل شيء لزوجتك .. إنها هى مصدر الراحة والعذاب . والجنة والنار ، لهذا الكائن الضعيف الذى لا يعرف شيئا عن شيء أو عن أحد ..

أما النصيحة الخامسة فأوجهها للزوجة ..

لا تنسى أنك زوجة وأنك أم أيضا . ولا تنسى أنه ستحدث حالات جسمية ونفسية تجعلك تنصرفين عن زوجك تماما . وأنا أعرف أن غريزة الأمومة عندك قوية ، وأنا أعرف أنه عندما تستعدين لميلاد طفل جديد ، ستكونين مشغولة عن زوجك تماما .. ويصبح الفتى الأول فى البيت هو هذا الطفل . وستنسين زوجك تماما .

هذا إحساس طبيعى .. وهذه حكمة الحياة التى استقبل المولود الجديد ، الفقير إلى عطفك وحنانك إلى أن يمشى على قدميه .. وحينئذ ينتهى القسم الأكبر من مهمتك .. ولكن لا تنسى أن هناك طفلا كبيرا قد تعود عنايتك واهتمامك وعطفك . وأنك كنت ، قبل مجىء هذا المولود ، أمه وزوجته وأخته وصديقته .. هذا الطفل الكبير هو زوجك ولقد رأيت عددا كبيرا من الخلافات الزوجية يبدأ بظهور الطفل الأول . فكان هذا الطفل يعلن نهاية مهمة وجود الزوج . كان هذا الطفل قد حل محل أبيه ..

وكثير من الأزواج يدهشون لهذا الذى يحدث وكثير منهم قد شكا من زوجته التى تهتم بهذا «المفعوص» ولا تهتم بوالده . وكثير من النساء يقلن : إن الأب يغار من ابنه .. ولا يطيق النظر إليه ..

وكثير من النساء ينظرن إلى الطفل على أنه «رباط» قد شد الزوج إلى البيت وإلى الزوجة . وإن الزوجة تستطيع بعد ذلك أن تجر زوجها من أنفه إلى أى مكان وراءها .. إنها أم لابنه . وإنها تستحق العناية .

وإن ابنها يستحق العناية أيضا .. وإن هذا الابن لا يستطيع أن يعيش من غير الأم .. ومعنى ذلك أن الأب يجب أن ينحنى أمام الأغلبية الموجودة فى أسرته ..

ولكن الزوجة التى تنظر إلى الطفل على أنه رباط ، إنما تحاول أن تجعل منه حبلا يلتف حول عنق الرجل . وإنها تضغط على الحبل باستمرار . ثم تدهش لصراخ الزوج وشكواه منها فى كل مكان ..

فنصيحتى إليك يا سيدتى ألا تنسى أنك زوجة أيضا . وأن زوجك طفل لك ، وإن لم تكونى أمه ..

والنصيحة السادسة والأخيرة ..

هى التى كانت تقولها الأم قديما لابنتها .. فتقول لها : اسمعى يا ابنتى .. إن الرجل عينه فارغة ، ولا شىء يملأها إلا التراب .. إن الرجل لا يشبع له فم ، ولا يسكت له لسان . وإذا أنت أطبقت عينيك عن زوجك ، طار منك .. وهناك ألف فتاة فى انتظاره .. إذن لا بد من تقييده وربطه بالسلاسل .. كما تربط القرود .. والمثل يقول : قصقص طيرك ، لا يلوف بغيرك ..

ومعنى ذلك أنك تقومين إلى جناحى زوجك وتنزعين ريشهما أولا بأول ، وبذلك لا يصبح عصفورا يطير من شجرة إلى شجرة ، ومن زهرة إلى زهرة ، وإنما يصبح «فرخة» تضرب رجليها فى الأرض .. وإذا لم تسكت الفرخة فعليك أن تنزعى ريشها أيضا وتصبح «الفرخة» كتكوتا.. وعليك أن تسيرى على نصيحة جدتك إلى النهاية .. وتضعى الكتكوت فى بيضة ، تضعى البيضة فى ركن من أركان المطبخ . . وبذلك تضمنين «راحة بالك».. ولكن بعد أن يكون الزوج قد توفى نهائيا .. ولا أظن زوجا يطيق أن تنزع زوجته ريشه وتحوله من ديك إلى فرخة إلى بيضة..

بيني وبينك هذا الكلام قديم جدا . ويجب أن تكوني أوسع أفقا وأكثر فهما لطبيعة الرجل وطبيعة المرأة .. افهمي طبيعة الرجل ، وافهمي ظروفك أنت كزوجة لها حالاتها الحسية والنفسية . ولها حالاتها السابقة على الحمل وقبل الولادة وبعد الولادة ..

اذا عرفت ذلك بوضوح ، أدركت ما يصيب الرجل في هذه الأثناء . وأدركت أنه زوج ، وأنه يذكرك بألا تكوني أماً لطفلك فقط .. وأدركت أن الرجل الذي يحبك ، والذي اختارك .. وتزوجك وجعلك أماً لأولاده ، لا خوف عليه من أحد .. وإنما الخوف عليه يجيء من نصائح أمك ونصائح أمه .

مخاوف قبل وبعد الزواج

في حياة كل إنسان أشياء غريبة تروح وتجيء دون أن يشعر بها .. وهذه الأشياء أحيانا تزحف تحت اللحاف ، وأحيانا تنام على المخدة ، وأحيانا تدخل إلى القلب .

وأشياء تبقى من أيام الطفولة وأشياء لا تذهب مع الطفولة .. كل هذه الأشياء المقلقة التي لا ترحم هي المخاوف ..

وهناك مخاوف لها أب ولها أم .. ومخاوف لا يعرف أحد أباها ولا أمها . هناك مخاوف كأبناء الطريق .. إنها موجودة ولكن من أين جاءت وكيف ولدت وفي أي ظروف ، لا يعرف أحد هذه المخاوف «اللقيطة» .

فمثلا هناك مشكلة تفكر فيها الفتاة وهي : ماذا يحدث لو أن خطيبي أو زوجي أحب فتاة أخرى غيرى ؟ ماذا يكون نصيبي أو مصيبتي ؟

طبعا هذا يحدث ، كل يوم وعند كثير من الناس . فنرى شابا

زوجا سعيدا ، ومع ذلك يقع تحت إغراء فتاة أخرى . قد يقاوم هذا الشاب وقد يستسلم . وهناك أناس يخرجون من حب ليقعوا فى حب .. كأن حياتهم العاطفية سلسلة من الأوحال والصمغ .. فالحب يمسك بالقدم ولا يتركها .. وهذا النوع من الناس هو القلق عاطفيا، هو «المتقلب» الذى لا يثبت على حال ، ولا على حب .. إنه يتقلب على جنبيه يمينا وشمالا . ويقعد ثم ينهض .. ولا يستريح ولا يسكن .

والذى يحدث هو أن الرجل الذى يقع تحت إغراء امرأة أخرى يحس بالحرج إذا كان زوجا. إنه يقدر موقفه وموقف زوجته التى يحبها والتى أحبته ، ويجلس وحده ويفكر فى المصاعب والمشاكل التى واجهت زواجه ، وهل يخسر كل هذا الذى كسبه ويلقى به عند أول امرأة تطلعت إليه ..

إن الرجل المتزوج الذى يحب زوجته ، أو حتى الذى لا يحب زوجته قلما يستسلم لإغراء جديد دون تفكير ودون مناقشة طويلة مع نفسه ومع غيره ..

والرجل الذى يحب زوجته حبا ناضجا هو الذى لا يستسلم لإغراء امرأة أخرى . إنه يقاوم إغراءها ويحتفظ بالمرأة التى أحبها وأحبته ، واختارها لتكون له ومعه وبه فى بيته .

وإذا فكر هذا الرجل فى الخلاص من زوجته ، لأنه لم يعد يقاوم إغراء امرأة أخرى ، فمعنى ذلك أن هذا الرجل قد فشل وأن زوجته أيضا قد فشلت . لأن الحياة الزوجية معناها المحاولة المستمرة لأن يتوافق وينسجم ويتناغم اثنان معا . فإذا نجحت فهو نجاح للاثنين معا . وإذا فشلت فهو فشل للاثنين معا . فالرجل الذى يريد أن يطلق زوجته معناه أنه لم ينجح فى التوافق معها ، ومعناه أن هى أيضا لم تنجح فى الانسجام معه ..

وكثير من الذين طلقوا زوجاتهم وتزوجوا زوجات أخريات قد فشلوا فى الزواج الثانى أيضا ، لأن هذا الزوج قد فشل فى التوافق ، قد فشل فى مسايرة امرأة أخرى مسافة طويلة من الليل والنهار والحياة .

ولذلك يجب على الزوجة وعلى الزوج أن يحرصا معا على التوافق ، على التطبع كل بطباع الآخر .. وبذلك يتلاشى الخوف من المرأة المغرية ويتلاشى الخوف من الزوج الضال ..

وهناك مشكلة هامة هى : هل الرجل الذى أحب فتيات كثيرات أو على علاقة بفتيات كثيرات ، ثم تزوج بعد ذلك ، ينجح فى زواجه ، وإذا تزوج فهل يعود إلى علاقات أخرى خارج الحياة الزوجية ؟

سؤال هام جدا يدور فى رأس كل فتاة وكل زوجة . وفى رؤوس الرجال أنفسهم .

فالرجل الذى يعرف فتيات كثيرات فى آن واحد ، ليس « ناضجاً عاطفيا».. والمهم هنا هو النضج العاطفى . وسبب ذلك أنه قد تعود أن يكون موضع اهتمام الفتيات ، وأن تجىء الفتيات للسؤال عنه والبحث عنه والالتفاف حوله ، وأن يكون موقفه هو موقف المنتظر .. وهذه كلها صور من صور الطفولة ، لا من صور الرجولة ..

فالرجل الناضج عاطفيا هو الذى يعطى ويتحمل المسئولية . أما الذى يأخذ بلا مسئولية فهو الطفل ، أو هو الذى لم يبلغ درجة النضوج. ومثل هذا الرجل لا ينجح فى زواجه . وعلى الزوجة التى يكون من نصيبها رجل كهذا أن تعطف على حاله . وأن تعامله بما يستحقه الطفل الكبير . وفى الحياة الزوجية ، نرى الناضج من الزوجين يعطف على الذى لم ينضج .. وبذلك تتعادل الحياة الزوجية . أما إذا تخلى الناضج

عن غير الناضج وراح ينقد تصرفاته بلا مجاملة وبلا رحمة.. فالطلاق هو الباب الذى يقتحمه الزوج أو الزوجة أو هما معا ..

وهناك خوف آخر .

فالزوجة تخاف من أن كل الألوان الجميلة التى تشع فى حياتها وفى عينيها وفى قلبها ، ستتلاشى قريبا .. إن لم تكن اليوم فبعد يوم آخر . وهى لذلك فى خوف دائم من الأيام المقبلة .. إنها تتصور الشر والمرض والفقر . تعيش فى «الغد».. وإن «الغد» معناه «الغدر» والمصائب كلها لا تجىء اليوم ولكن غدا ..

وأنا أريد أن أسأل هذه الفتاة فأقول : هل التفاحة التى لا تستغرق حلاوتها فى فمك دقيقة يجب ألاّ تأكليها لأن حلاوتها زائلة ؟ هل لا يصح أن تشاهدى رواية مضحكة ، لأن الضحك سينتهى بعد إنزال الستار؟ ثم لماذا نأكل ونشرب ونلبس، ونتعب فى الحصول على الأكل والشرب واللبس ، ما دام هذا كله سيفنى وما دامت الحياة إلى فناء ؟. لماذا نحرص على الراحة وعلى الصحة وعلى المال وعلى السمعة وعلى المبادىء ما دام الموت هو نهاية كل كائن حى ؟

إن هذا الخوف مصدر عدم الثقة بالنفس ، أو عدم الثقة بالغير أو قلة التجارب .. ولكن فى استطاعتنا أن نعمل حسابا للغد ، وأن نستمتع باليوم . بالحاضر . بهذه اللحظة أيضا .

وكل الذين حولنا يضحكون ويمرحون ويعيشون ولهم أولاد ، ولأولادهم أولاد .. كل هؤلاء عاشوا وسيعيشون لأنهم تخلصوا من الخوف .. ولأنهم عرفوا مصدر الخوف .

وهناك خوف ثالث هام عند كل امرأة ..

فالمرأة دائما تشكو من أن زوجها أو خطيبها أو حبيبها قد «تغير»

وأنه لم يعد كما كان من قبل ، كما رأته أول يوم .. لم يعد يضحك عندما يراها ، ولم يعد ينتظرها بالساعات ، لم يعد يتلهف على أخبارها .. ولم يعد يتناول الأسبيرين ، إذا أصابها هى الصداع .. ولم يعد يعطس إذا أصابها الزكام .. ماذا جرى له ؟ ماذا أصابه ؟ إذن لقد تغير ، ولم تعد هى تعجبه ، أو أن هناك فتاة أخرى ظهرت فى حياته .. و .. و ..

ولكن هذه الفتاة تنسى .. أن كل شىء وكل كلام وكل عمل له ظروف وله مناسبات ، وأن الذى حدث أيام زمان ، قد لا يحدث بعد ذلك .. والرجل الذى تعب فى الحصول على زوجته أو حبيبته وانتهى تعبه بالزواج منها لا يجب أن يظل كذلك طول عمره .. لقد انتهى من هذه المهمة الكبرى واتجه إلى شىء آخر .. فإذا كان يقف تحت شباك خطيبته بالساعات ، فلماذا يقف تحت شباكها بعد أن تزوجها ، لماذا يقف فى المطر لتنظر إليه من النافذة ؟ لماذا ينسى أنه لا داعى لهذا لأنها فى بيته وفى فراشه وأم لأولاده ؟

لا بد أن يتغير الرجل ، بتغير ظروفة فى البيت وفى العمل وأصدقائه ومشاكل العمل ومشاكل البيت ومشاكل العائلة .. وعندما لا يجد المال وعندما يجده ، وعندما تكون الزوجة مصدر راحة ، وعندما تكون الزوجة لا راحة فيها ولا معها .. لو كان هذا الرجل حجراً لتغير . ولكن الرجل ليس حجرا .. إنه أكثر مرونة . ولهذه المرونة فى استطاعة الزوجة أن تقف فى وجه الظروف والحوادث .. فى استطاعتها أن تكون مظلة واقية من السقوط ، وأن تكون مظلة فى الأيام المطيرة القادمة .. والزوجة الناجحة هى التى تواجه المتاعب واقفة والتى تنشر ذراعيها كأنها تستقبل ضيفا عزيزا . فالمتاعب تقتلها المعاملة الطيبة والاستقبال الحار ؛ والمصائب تهرب من الوجوه الباسمة .. فاضحكى تهرب منك المتاعب ، وافتحى ذراعيك فلن تجدى إلا نفسك وإلا زوجك وإلا سعادتك .. فالمشاكل

تطارد الهاربين ، ولكن الذين يطاردون المشاكل يجعلونها تهرب منهم ..

وكلمة أخيرة ..

هى أن المخاوف كالأسماك .. إذا خرجت إلى الهواء ماتت .. إنها كبالونات الأطفال إذا تعرضت لدبوس ضعيف تفجرت وتلاشت .. فلا تجعلى بيتك حوضا للأسماك .. وإنما جففى هذا الحوض وعرضى المشاكل للهواء والشمس ، فهى تموت .. لتعيشى أنت وهو ..

***

وأخيراً أريد أن أقول لك شيئا .. إنه ليس هاما جدا . ولكنه هام ..

سيجىء يوم تفتش فيه أوراقك القديمة .. ستجد خطابات وستجد صورا وبعض الهدايا التى أخفيتها عن زوجتك . كل هذه الخطابات من صديقات أو من أصدقاء يتحدثون فيها عن أيام زمان ، أيام الحرية والحياة بلا قيود ولا سدود ولا أولاد .. تلك أيام جميلة ، فى حياة كل رجل .. أيام لها طعم لذيذ ، ورائحة فاتنة . أيام يختلط فيها الليل بالنهار ، ويختلط فيها الهزل بالجد، والطفولة بالرجولة ، والشرف بالنذالة ، والعقل بالطيش ..

وأنا لا ألومك على حسرتك على هذه الأيام .. لا ألومك أبدا . فكلنا ذلك الرجل .. ولا أحد بلا ذكريات ولا أحد بلا خطابات ولا أحد بلا هدايا .. كل الناس كذلك ، كل الرجال وكل النساء .

وأقف هنا قليلا ..

وهناك رجال يحبون المرأة التى لها ماض .. ورجال لا يحبون ذلك . والأغلبية العظمى فى أوربا ، لا يسألون المرأة عن ماضيها . فكل إنسان له تجارب ، كل إنسان يجرب حظه والحياة فرص ومحاولات ، من

الخطأ ومن الصواب ، والمجتمع السليم هو الذى يسمح بالخطأ ، خطأ الرجل وخطأ الفتاة .

ولكن فى أمريكا وفى آسيا وأفريقيا نجد الأغلبية العظمى من الناس يسألون عن ماضى الفتاة ويهتمون بذلك ويحرصون على معرفته . بل إن هناك صورا مضحكة ومؤلمة أيضا : فهناك الشاب الذى يخرج مع الفتاة ويتعشى ويتغدى ويرقص معها ويقبلها ويعانقها وبعد ذلك يرفض الزواج منها لأنها خرجت معه ولأنها قبلته ولأنها عانقته .. فهى إذن فتاة لها ماض ! وينسى أن ماضيها هذا كان معه هو؟ وهو يتصور أنها إذ كانت هكذا حلوة سهلة معه ، فلا بد أنها ستكون كذلك مع كل الناس ، أو أنها كانت هكذا مع أناس آخرين . وينسى أنها أحبته ، وأنها لذلك أعطته نفسها وجسمها .. وأنها لم تفعل ذلك لأحد ..

هذا مضحك ومؤلم أيضا ..

وأريد أن أقول لك .. إن هذه الخطابات هى بمثابة ألغام عائمة فى البيت ، وهذه الصور هى بمثابة مظلات هابطة على حياتك الزوجية ، وهذه الهدايا هى ديناميت قابل للانفجار فى أى وقت ..

ولذلك يجب أن تتفق مع زوجتك على حل لتفجير هذه المواد الناسفة . إذا كانت هناك صور عزيزة عليك وترى زوجتك أنه لا مانع من بقائها ، فليكن . وإذا كانت هناك صور أو خطابات أو هدايا ترى زوجتك مانعا من بقائها ، فمزقها . أو أحرقها ، أحرق أيامك وذكرياتك. احرق ماضيك من أجل حاضرك ومستقبلك .. احرص على المستقبل ، على زوجتك وعلى سعادتك وعلى أولادك وعلى بيتك . وهذه نصيحة ، والذى يحب هو الذى يضحى !

روى لى صديق تجربته : أنا شخصيا قد عانيت هذه التجربة .

فعندما تخرجت من كلية الطب . كانت لى صديقة . وكانت تحبنى . وكنت أحترمها . ولم أكن أحبها . فهى جميلة وطيبة القلب ، ولكنها لا تصلح زوجة لرجل مثلى قلق لا يستقر على حال من طعام أو شراب أو نوم .. شرحت لها حالتى وقلت لها : إننى كالزئبق ، ولا تستطيعين أن تمسكينى بيديك .. إننى قطعة من النار ، تحرق أصابعك .. إننى شوك ، إننى لا أصلح لك .. ولكنها مع ذلك أهدتنى ترمومترا للحرارة فى علبة من الذهب الخالص .. وشكرتها . ولم أشأ أن أهمل هذه الهدية وإنما احتفظت بها فى صندوق خاص . وظل هذا الصندوق بعيدا عن يدى وعن يدى زوجتى .. وبعد ست سنوات من زواجنا عثرت عليه زوجتى ورويت لها هذه القصة . وقد لاحظت بأن زوجتى الطبيبة فى أكبر مستشفيات أمريكا ، قد تأثرت قليلا . تصور بعد ست سنوات ، وتصور بعد وفاة هذه الصديقة المسكينة أيضا . هل تعرف ماذا فعلت ؟ أهديت هذا الصندوق وهذا الترمومتر إلى إحدى الجمعيات الخيرية . ودهشت زوجتى لتصرفى هذا ونفت أنها تأثرت أو حتى اهتزت بهذا الذى قلته لها .. ولكننى أعرف زوجتى ، وأعرف طبيعة المرأة وأعرف ما يتهدد حياتى . ولذلك اخترت راحة البال ، ومستقبل أولادى ، ومستقبلى .. واخترت زوجتى أيضا . وأذكر لك على سبيل المثال حادثا صغيرا . فوجئت فى يوم بأن زوجتى قد أمسكت المشط الصغير الذى أضعه فى جيبى .. ونظرت إليه طويلا ، ثم نظفته وأعادته إلى جيبى دون أن تنطق بكلمة . وقد لاحظت امتقاع وجهها ، ورأيت شعرة سوداء طويلة تخرج من بين أسنان المشط ، وتذكرت أننى فى الليلة الماضية قد ذهبت لزيارة صديق قديم وظللنا نلعب الشطرنج ساعات طويلة ، حتى نسيت أن أعود إلى البيت فى الساعة المحددة .. وفكرت فيما عسى أن تقوله زوجتى .. وخصوصا بعد أن رأت شعرة سوداء طويلة ،

لا بد أنها شعرة من رأس صديقة لى . أما أنا فليس فى رأسى شعرة واحدة سوداء .. ولا بد أن زوجتى قد استنتجت أننى قضيت السهرة مع هذه الصديقة ، وأننى أخفى عنها هذا السر ، ولا بد أنها رجعت إلى كل تصرفاتى وإلى كل اعتذاراتى فى التليفون وتأخرى عن البيت . ولا بد أنها استنتجت من هذا كله أن السبب هو صديقتى ذات الشعر الأسود الطويل . أما السبب الحقيقى فهو أننى اشتريت مشطين .. واحدا لى وواحدا لابنتى . وكثيرا ما أخطأت فى ذلك .. وأخذت مشط ابنتى بدلا من مشطي أنا .. وحدث هذا أكثر من مرة .. واكتشفت أنـــا وكذلك زوجتى هذه الشعرة السوداء .. ومع ذلك . فزوجتى قد امتقع وجهها . ولم تستطع أن تتغلب على طبيعتها كامرأة ، ولم تستطع أن تنسى الماضى الذى نسيته أنا .

ولذلك فأنا حريص على أن تتفق مع زوجتك على هذا «الماضى»؟ هل يجب أن يكون لك ماض ؟ هل يجب أن يكون لها ماض ؟ هل يجب أن تروى لها ماضيك ؟ هل يجب أن تروى لك ماضيها ؟

وأنا أنبهك إلى شيء خطير جدا .. وهو أن المرأة لتى لها ماض لا تحب أن تذكره . حتى لو كنت تشجعها على ذلك . فلا تضطرها إلى أن تذكر ماضيها . ولا تنس أنها تحبك ، وأنها اختارتك وأنك أحسن ما فى حياتها .. وكل ما فى حياتها من ذكريات سيئة ، قد تبدد أمام نورك أنت ..

فافتح له يا سمسم باب السعادة ، فهذا الشاب له ماض معروف ، وحاضر مفهوم ومستقبل كله نور !

مع إنسان غريب

لا بد أن يكون لك ولو إنسان واحد قريب منك جدا .. فالمسافة التى بينك وبينه ضيقة توجع العين والأذن والأنف ..

ولذلك فأنت لا تعرفه جيدا ولا تفهمه على حقيقته .. وتظلمه ويظلمك . كأنه إنسان غريب عنك . وكأنك غريب عنه .

وليست هذه نظرية جديدة . وإنما هى حقيقة تحسها أحيانا ، وتنساها فى معظم الأحيان ..

ولأنها حقيقة ، فهى تهمك ولو مرة واحدة فى حياتك ..

ضع يداك على كتفى وأنا أدلك على طريقة تعرف بها كيف يعيش غيرك من الناس . وستكون النتائج مذهلة . وعليك أن تنتهز هذه الفرصة لتفتش فى حياتك أنت أيضا . فإذا اكتشفت أن أساس حياتك خاطىء .. فلا تنزعج فلست وحدك الذى عرف هذه الحقيقة . ولست وحدك الذى لم يتسع وقته ولا صدره ليفكر فى نفسه وفى حياته وفى ظروفه وفى مستقبل علاقاته بالآخرين .

ولنبدأ التجربة بسرعة : ادخل أى حفل يكون فيه أناس تعرفهم . وحاول أن تنفرد بسيدة . أية سيدة ، واسألها عن حالها وعن حياتها الزوجية . وأى كلام تقوله لك هذه السيدة له معنى . ولا تنس أنها ستكذب . فهى لا تحب أن تدور وقد فشلت ، ولا تحب إذا كانت موفقة فى حياتها أن تصيبها بالحسد . فالخوف من الحسد شعور عميق عند كل النساء ؛ على كل المستويات . وقد تكون صريحة معك لأنك فاجأتها بهذا السؤال . وعليك أن تفكر قليلا فى كل ما قالته هذه السيدة ..

وبعد ذلك اذهب إلى زوجها فى نفس الحفلة ، أو فى أية مناسبة أخرى . واسأله عن حياته الزوجية . وأى كلام سيقوله لك هذا الزوج له معنى . فهو بدافع من الغرور سيروى قصة نجاحه . أو بدافع من الغرور أيضا سيروى لك كيف أنه حاول أن ينبه زوجته إلى خطورة الخلافات التى تقع بينهما . ولا تنس أن الرجال لا يهمهم الحسد .. لأن الحسد يرضى غرورهم . فأنت تحسدهم على شىء أو على النجاح فى شىء . ولذلك فالرجل يصارحك بكل شىء بنجاحه أو بفشله فى محاولة استمرار النجاح المزعوم .. وبعد ذلك فكر قليلا فى هذا الذى سمعته من الزوج ..

قارن بين ما قاله الزوجان ..

ستجد أن كلا منهما يروى قصة مختلفة لشىء واحد . وستجد أن كلا منهما يرى متاعبه بشكل آخر . وأن رأى كل منهما فى الآخر غريب جدا . كأن كلا منهما لا يعرف الآخر .....

وهذه نتيجة سريعة . من الممكن أن تصل إليها بلا مجهود كبير . وحتى عندما تبذل مجهوداً أكبر فستصل إلى نفس النتيجة ولكن بوضوح أكثر ..

مثال ذلك : إذا طلبت من أى زوجين أيا كانت مدة زواجهما ، ان يجيب كل منهما عن عشرة أسئلة عن أسباب زواجهما وعن معنى الحب ، وعن ظروف الزواج وعن رأى كل منهما فى الآخر ، وعن أهم عشر حوادث فى حياتهما وعن أسباب الخلاف بينهما . .

فمن المؤكد أنك ستجد إجابات مدهشة مذهلة .. ستكشف أن كلا منهما يتحدث بلغة أخرى . إنهما غير متفاهمين . بل إن الزوج لا يفهم زوجته ، وهى أيضا لا تعرف . وليس بينهما أى اتفاق على أسباب الزواج ، ولا ظروف الحب ، ومن المؤكد أنك ستجد الأحداث الهامة فى حياتهما ليست هى هى .. وربما اتفق الاثنان فى ذكر حادثتين أو ثلاث ولأسباب مختلفة .

ومعنى ذلك أن هذين الزوجين غريبان تماما ، وكأنهما لم يتعارفا إلا بسرعة ولمدة قصيرة ثم انفصلا بعد ذلك . مع أنه من الممكن أن يكونا زوجين لمدة عشرين عاما كاملة ...

والحقيقة هى : أن أى زوجين غريبان ، وهذا طبيعى جدا . فكل واحد منهما قد كانت له حياة وتجارب نجاح وفشل وتاريخ وآمال ، قبل أن يلتقى بالآخر فلما التقى كل منهما بالآخر ؛ كان لا بد أن يختلفا ، لأنهما بالفعل مختلفان .. وكان لا بد أن يتفقا ..

وهما يحاولان أن يتفقا على أمور كثيرة . ولكن الوقت لا يتسع للاتفاق على الطباع القديمة ، ولا يتسع للاتفاق على المواقف التى تتجدد يوما بعد يوم . والنتيجة هى أن يحاول كل منهما أن يؤجل مناقشة الكثير من الموضوعات إلى وقت آخر .. وتتراكم الموضوعات وتتكدس وتصبح حائطا كبيرا يباعد بين الاثنين .

ويحاول كل منهما — وخصوصا الزوجة — أن ترفع هذا الحاجز

لكى تقترب من الزوج . ولكن هذه المحاولة ترهقه وترهقها أيضا . وبدلا من أن تؤدى إلى إزالة الحائط الفاصل بينهما ، فإنها تضع فوقه قطعا من الزجاج ، وعدداً لا نهاية له من الأسلاك الشائكة .

مع أنه ليس من الضرورى أن يتفاهم أى اثنين من الناس تفاهما تاماً . أى رجلين ولا أى سيدتين . ولا أى رجل وامرأة . فالتفاهم التام صعب جدا . بل إنه يؤدى إلى الغاء واحد من الاثنين .

وما دام أى اثنين من الناس مختلفين من البداية ، فلا بد أن يظلا كذلك حتى النهاية .. خصوصا إذا كانا رجلا وامرأة . وخصوصا إذا كانا زوجين . والحياة الزوجية تقوم على : الجنس والخبز والدين .. وليس من السهل الاتفاق على هذه العناصر الثلاثة ! .

والإجابات المختلفة التى حصلت عليها لهذين الزوجين تؤكد أن الحياة الزوجية ليست هى الاشتراك فى كل الأهداف والرغبات ووسائل تحقيقها . وإنما هى اشتباك مستمر . أى ليست خيطين مضفورين معا . وإنما خيطان معقودان معا . وإن كلا من الزوجين قد اكتشف بعد زواجهما بأيام أن قطع هذه العقدة أسهل من حلها . وكل واحد منهما يحاول أن يقطع هذه العقدة .

وسنكتشف من هذه الإجابات أن محاولة قطع العقدة ، هى محاولة صامتة فكل من الزوجين يستخدم الصمت كمقص لقطع كل ما بينهما من صلة . والصلة التى بين الناس هى الكلام ، فإذا لم يكن هناك كلام كان معنى ذلك : قطع أسلاك التليفون التى بينى وبين الناس . إطفاء المصابيح التى تضىء المسافة التى بينى وبين الناس .. هى ابتلاع لسانى .. ووضع يدى فى جيوبى ..

الصمت والجليد ..

فالصمت معناه أن يتحول أى إنسان إلى شيء .. إلى قطعة من الحجر ليس لها لسان ولا عينان ولا يدان .. فالصمت هو الذى يحول الإنسان إلى كائن بلا أطراف !

والعلاقة بين اثنين إذا دخلها الصمت من الباب ، دخلت عواصف الجليد من النافذة ، فيتحجر كل منهما فى مكانه البعيد . وينسج الصمت أكفان الجليد .

ويتعود كل منهما هذا المنظر الرهيب ..

وهذا التعود هو وحده الذى يقوم بدور الحانوتى فيدفن الزوجين قطعة قطعة .. يدفن اللسان والعين واليد والرجل . أما القلب فيسكت من تلقاء نفسه بعد ذلك !

ومهما حاولت أن تقوم بهذه التجربة وبأشكال مختلفة وعلى كل المستويات فستصل إلى هذه النتائج : ليس عندك وقت لتفهم الناس . وإذا كان عندك وقت فليست عندك الرغبة دائما . وكل إنسان ترتبط به فأنت تفهمه أقل . وكل إنسان لا ترتبط به فأنت تفهمه أقل أيضا : والظروف التى نلتقى فيها غير عادية . فأنت تلتقى بالناس فى مجالات المنفعة .. أى من خلال منفعتك أو خوفك على منفعتك ، ولذلك فأنت لا تفهم الناس بوضوح . فإذا ارتبطت بزوجة مثلا ، وكانت المسافة التى بينك وبينها تضيء فيها ثلاثة مصابيح : أحمر وأصفر وأخضر فى وقت واحد ودائما ، فأنت لا يمكن أن تعرف لونها بوضوح . والمسافة التى بينك وبين زوجتك يلونها : الجنس والخبز والدين .. ولذلك يجب أن تطيل وقفاتك لتفهم .

وإذا استطعت فأنت رجل مثالى . فإذا لم تستطع فأنت واحد من ألوف الملايين ، الذين لا يستطيعون أن يحققوا هذه المعجزة ، أن يفكروا

على مهل ، وهم ينطلقون فى حياتهم بسرعة . ولأن لنا علاقات مع ألوف الناس ما فكل واحد يرانا بشكل ، ونحن نرى كل واحد بشكل آخر . والعلاقة التى بيننا غريبة .. فنحن غرباء . وأنت غريب عن أقرب الناس إليك . فأنت وجارك متواجدان فى بيت واحد . وأنت وخادمك متعايشان فى شقة واحدة . وأنت وزوجتك عائشان فى غرفة واحدة . وليس المهم أن تتواجد مع زوجتك ولا أن تعايشها ، وإنما أن تعيشا شيئا واحدا . هذا رأيك . وهذا رأيها أيضا . وهذا رأى الناس فيكما . ولكن لو سألكما رجل عن معنى الزواج والحب وأهم حادث فى حياتكما ، فإن كلا منكما يروى قصة غريبة ..

* * *

وهناك تجربة أجمل قام بها الكاتب المخرج الفرنسى أندريه كيات ، فقد لاحظ فى حياته الطويلة كمحام يدرس الأحوال الشخصية أن كل زوج عندما يطلب إليه الطلاق من زوجته يروى قصة مختلفة عن التى ترويها زوجته. وكل واحد منهما يجعل حكايته منطقية ومعقولة. ويحاول أن يقنع المحامى ليكسبه إلى صفه . وقد استمع أندريه كيات إلى ألف قصة طلاق .. وأدرك هذه الحقيقة : إنه لا توجد حقيقة واحدة يتفق عليها الناس .

ثم طلب إلى الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار أن تكتب سيناريو لأغرب فيلم عرفته الشاشة حتى الآن . لقد قرر كيات أن يعرض قصة واحدة فى فيلمين اثنين يعرضان فى دارين متجاورتين . وكل فيلم يروى قصة واحدة ، مرة من وجهة نظر الزوج ومرة من وجهة نظر الزوجة . وترددت الكاتبة الوجودية . ثم اعتذرت ثم كتبت هى قصة حياتها وعلاقتها بالفيلسوف سارتر . ثم جاء سارتر وكتب حياته من وجهة نظره هو . وظهر للأديبة ثلاثة كتب ، وظهر لسارتر كتاب واحد ..

وقد حاول أندريه موروا الكاتب الفرنسي أن يروى أيضا قصة حب واحدة على مرتين : مرة من وجهة نظر البطل ومرة من وجهة نظر البطلة في كتاب واحد بعنوان : أجواء الحب ..

والأديب الإيطالي البرتو مورافيا حاول أن يروى قصة واحدة ثلاث مرات .. مرة على لسان الزوجة ومرة على لسان الزوج ، ومرة ثالثة على لسان الحماة . وظهرت القصة بعنوان « بنت الريف » ورأيناه على الشاشة أيضا !

أما الذى حاوله المخرج كيات فهو شيء جديد ..

فالقصة عادية جدا . شاب محام أحب زميلة له في الجامعة . وظهرت الفتاة في نهاية الفيلم وهى تتوقع مولودا . ولم يقدم لنا المخرج أى حل لمشكلة الاثنين .. وإنما عرض القصة دون أن يكون له رأى خاص . وترك هذا الرأى لجمهور المتفرجين الذين يشاهدون الفيلمين ، الواحد بعد الآخر . ومن الغريب أن المخرج قد عرض كل الظروف والأشخاص والأماكن والأحداث مرتين . وكل مرة معقولة جدا ومنطقية جدا . لأنها تبين وجهة نظر أحد الزوجين .

وعلى الرغم من أن المخرج حرص على ألا يكون له رأى ، وأن يترك الرأى للمتفرجين ، فإن المتفرجين لهم رأى آخر : وهو أنه كان يجب أن يعاونهم على فهم المشكلة وعلى حلها . ونسى المتفرجون أن رأى المؤلف هو : أنه يجب ألا يكون هناك رأى لأحد يفرضه على الناس . وإنما الرأى الوحيد المعقول هو الذى يصل إليه كل متفرج من تلقاء نفسه بعد أن يكتشف حقيقة العلاقة التى تربطه بذلك الإنسان الغريب الذى يراه ليلا ونهارا ، وخصوصا ليلا : زوجته !

الفهـــرس

رقم الايداع : ٨٨/٣١٥٩
الترقيم الدولى : ٠ ـ ٢٢٧ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣